
2
2
رواية
منى سلامة
احكي يادُنيازاد
رايات الشوق
عصير الكتب



أسرارًا تُخفيها النجمات



الكتـــــاب: احكي يا دنيازاد ج 2
المـــؤلـــف: منى سلامة
تنسيق داخلـي: سمر محمد
تدقيق لغـــوي: نرمين عياد
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
الطبعة الأولـى: يناير 2021
رقم الإيـــداع: 2020/20088
I .S .B .N: 978-977-992-130-3

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

رواية

منى سلامة

أحكي يا دنيازاد

رايات الشوق

رايات الشوق

الجزء ٢

كان يا ما كان
في زمنٍ من الأزمان
رأيتُ إنسانًا قلبه مشطور
نصفٌ فوق السحاب محمول
ونصفٌ بين الطين مغمور!

جاء في المثلِ:
«الاعترافُ يهدمُ الاقتِراف»
و«لا ذنبَ لمن أقرَّ»
ولا يكون فلانُ عفوًا
إلا إذا وقفَ على الذنب
ثم عفا عنه
لكن للعفو حدودًا
فِقهًا ومعايير وشروطًا
أولاها أن يكون المُذنب مُدركًا
لجُرمِهِ ومُستَدرِكًا
وثانيها بذنبهِ يُقر
وبأقدام الندم على الأرض يخِر

فالصَفحُ رهنٌ بالاعتذارِ
بلا تمادٍ أو إصرارِ!
ومَن كان طَبعهُ حليمًا
يكون صَفحهُ جميلًا!
دون حقد يَحِيكه القلب
ولا بُغض يبيتُ في الصدرِ
دون انتقام أو تنكِيل
أو عقاب أو تمثيل!
لا خير في امرئ ليس فيه غَفِيرة
وتخلو خِصالهُ مِن كل عَذِيرة!

قِطعة الكُتب إخبارة،
وقِطعة الليل هَزيع
قِطعة الكَبد فَلذة،
وقِطعة الحطب حِزمة
قِطعة الشَعر خُصلة،
وقِطعة النار جُذوة
قِطعة الثوب خِرقة،
وقطعة الخبز كَسرة
فدعونا نُسمِّي قِطعة الشوق.. حَسرة.

(١)

يشعر الإنسان بنفسه خفيفًا فجأة، حُرًّا مثل طير، وكأن الذنب قيد، صخرة ثقيلة تسحق الصدر، وتُورِث القلب وَحشة.

فتحت «شفق» زجاج نافذة السيارة تستنشق الهواء المُنعش بعُمق، وكأن رئتيها لم تكونا بهذا الاتساع قط. طيلة اليوم لم تقع عيناها في الزلل، كسَرَتْ دائرة العادة بمعول العزم.

ومن هاتفها أقفلَتْ كل الأبواب التي كانت على الهاوية مُشرَّعة، نظَّفته كما طهَّرتْ قلبها. هل يزول شؤم المعصية بهذه السهولة، وبتلك البساطة؟

فلا يتطلب فتح أبواب السماء إلا توبة صادقة، وعزمًا على عدم العودة.

يا الله! إذا كانت الجنة قريبة إلى هذا الحد، فلماذا ننغمس بهذا العُمق في وحل اليأس؟

حينما كانت تتجول في محل أجهزة الكمبيوتر لبيع جهازها اللوحي القديم وشراء واحد جديد، تذكَّرتْ قصة قاتِل الأنفس المائة، لم تصدُق توبته إلا حينما غيَّر عشيرته، ورحل من أرض السوء إلى أرض صالحة.

ولأن ذنبها لم يُقيِّدها إليه صُحبة سوء أو أرض مُفسِدة، لم تجد ما تغيره سوى جهازها اللوحي، وكأنه الأرض التي عليها أن تغيّرها.

هذه المرة لم تختره أسود اللون، بل فِضِّيًّا مثل نجمة تلمع في السماء.

ركبت سيارتها وانطلقت بها صوب بيت «بشير»، ألقت نظرة على الأكياس المُتكدِّسة في المقعد الخلفي بعين الرضا، وبابتسامة فرح.

تعالى صوت الرجال بالضحكات بينما يحتسون الشاي معًا بعد وجبة الغداء المُشبِعة، أفاضتْ عليهم زوجة «بشير» من كرمها، وصنعت لهم ما تشتهيه الأنفُس، وتستلذ به البطون.

رنَّ هاتف «بشير» وسط الصَخَب، ولأن «غرابًا» كان الأقرب له في الجلوس سمع الحديث دون عمد، ما إن نطق «بشير» اسم «شفق» حتى تحفَّز «غراب» بلا وعي، لم يقصد استراق السمع لكن ردود «بشير» استقرت في عقله. بعدما أنهى المكالمة التفت له «غراب» قائلًا بضيق مُعاتبًا:

- لماذا سمحت لها بالحضور يا «بشير»؟

هزَّ «بشير» كتفيه في اضطراب يقول:

- قالت إنها تُريد زيارتي، ماذا كنتُ سأقول لها؟

أشار «غراب» برأسه إلى الرجال المتمازحين وقال بانزعاج:

- كيف ستُدخِلها وسط كل هؤلاء؟

ثم بعد بُرهة من التفكير قال وهو يضع كوب الشاي فوق الطاولة:

- سنرحل إذن، انتهى حديثنا على كل حال.

لكن رنّة صغيرة من هاتفه لفتت انتباهه، بينما يجتذب آحد الرجال «بشيرًا» في حوار آخر. قرأ «غراب» بجبين يتغضّن بحدة رسالة نصيَّة من «دهب» تقول فيها: «يُريدون توريطكَ يا «غراب»، إياكَ أن تثق في «شفق»».

فكَّر لدقائق في فحوى الرسالة، ثم آثَرَ البقاء؛ عليه أن يفهم أي شَرَك هذا الذي تحوكه هذه المحامية وأبوها.

سمع صوت سيارة تتوقف بالقرب من البيت، ولأنه شارع جانبي تندر فيه السيارات خمَّن أنها القادمة، وقف وتوجَّه صوب الباب بهدوء، وحينما ناداه أحد الرجال إلى أين يذهب، نظر صوبه ثم هزَ رأسه هزَّة خفيفة.

وقف أمام البيت بعدما أغلق الباب خلفه، ينتظرها حتى ترجَّلَتْ من السيارة، لم تندهش لرؤيته، عندما أخبرها «بشير» أن العمال مُتجمِّعون في بيته خمَّنتْ أنه معهم.

دَنَتْ منه بهدوء، هزَّت رأسها في تحية صامتة، فردَّ تحيتها بمثلها، ولأن حديثها كان صعبًا وطريقة عرضه تحتاج إلى حِنكَة وبراعة، احتاجت إلى وقت أطول مما ينبغي كي تستهِل الحديث.

تململ خلالها في وقفته، دون أن ينطق شيئًا بدوره، حتى قالت:

- أتيتُ للتحدث بشأن إضراب العمال، علي هذا الإضراب أن ينتهي، لا أقول هذا لصالح الشركة فحسب، بل لصالحكَ أنتَ أيضًا.

رفع حاجبه مُتعجِّبًا من قدرتها على لَي عُنُق الحقيقة، قال بغِلظة:

- لصالحي؟! هل أصبحتِ محاميتي دون أن أعرف؟

كان من المستحيل أن تشرح له أنها بمساعدتها إياه ترُدُّ جميلًا لـ «صوت» سمعته في ليلة عصيبة، وأن التوبة من ذنب يستلزم أن تستمد القوة من فِعل الأعمال الصحيحة.

وأن ضميرها ينغزها كل ليلة كلما خطر حال «بشير» والخالة «نوَّارة» على عقلها. ولم تستطع أن تهتدي إلى طريقة تُثبت بها أنها لا تضمر له ولا لباقي العمال الشر.

هواء الليلة المُنعِش مع مزاجها المُعتدل جعلها أكثر ثباتًا من المُعتاد، لم تنفعل. قالت ببساطة إلى حَد السذاجة:

- إن لم تتعاون معي سيستبدل أبي بي محاميًا آخر.

- وأنتِ لا ترغبين في التخلِّي عن قضية ستجلب لكِ المَجد؟

لم يكن إقرارًا، بل سؤالًا سخيفًا، كمَن يسأل لصًّا هل تستمع بكونكَ قليل شرف؟ سؤال لا يُنتظَر له إجابة.

مرَّ طائر حبَّاري فوق رأسها ثم حطَّ فوق مقدمة سيارتها، نظرت صوبه مأخوذة به. خفق قلبها وكأن الطائر حطَّ بداخلها، يُرفرف بجناحيه فيهزُّ صدرها. ومن بطنها يتصاعد مغص خفيف، وكأن عضلاتها تنقبض وتنبسط مع حركة الطير.

ما هذا الشعور العجيب؟ هل عاشت عمرها كله تتشوَّق لرؤية طائر حبَّاري يحط فوق سيارتها؟ لا تذكر أن هكذا أمنية راودتْ من قبل أحلامها، ما سبب هذا الشعور إذن؟

همستْ بصوت مسموع:

- يحمل الذهب في بطنه.

تتبع «غراب» نظرتها إلى الطائر، فتعجَّب! لا يُميِّز الكثيرون الحبَّاري حين رؤيته. قال باقتضاب:

- خُرافة.

نظرت صوبه مُتسائلة، فأضاف بالاقتضاب ذاته:

- بقَرتُ الكثير من بطون الحبَّاري في صغري لأتأكد من ذلك.

تخيَّلته يصطاد الحبَّاري من قفار الصحراء كي يبقر بطونها، ويُفتِّش أمعاءها بحثًا عن الذهب، ولأن المُفارقة كانت حاضرة وبقوة لم تستطع منع نفسها من أن تقول مُتفكِّهة:

- على الرغم من ذلك حصلت في النهاية على «الذهب».

فهم مقصدها، فتجعَّد جبينه أكثر. هل حصل حقًّا على الذهب؟ أم أن يده فارغة منه كفراغ بطن الحبَّاري؟

نفض رأسه، لا يفهم كيف وصل الحديث إلى بطون الحبَّاري والذهب، بعد أن كان يخبرها بشكل مُستتر أنها عديمة شرف لا يثق بها.

تحوَلتْ نبرتها فجأة إلى حزم وثقة:

- سأقول الأمر ببساطة وعليكَ أن تختار، إذ إن أمامكَ خيارين لا ثالث لهما.. إما أن تُقنِع العمال بالعودة إلى الموقع ومعاودة أشغالهم وأن تكون ريِّسًا عليهم كما كنتَ سابقًا، أو ستنتهي في هذه الليلة مدة الأربع والعشرين ساعة التي منحني إياها أبي لإقناعكَ وسيستبدل بي من الصباح الباكر محاميًا غيري لا أثق في ذمَّته، وسيكون قادرًا على اكتشاف دليل براءتك قبل وقوفك أمام القاضي، وعندئذ سيختفي هذا الدليل وكأنه لم يكن، وسيخسر أهالي العمال المتوفين فرصتهم في الحصول على التعويضات.. الخيار لكَ.

تتابَع حديثها دون أن تلتقط أنفاسها؛ عندما انتهت أخذت نفسًا عميقًا، وانتظرت جوابه. في رأسه قلَّبَ كلماتها الواضحة جدًّا، الموجزة جدًّا، القاطعة جدًا، مثل سهم يخرج من قوس. سألها بريبة:

- ولماذا أصدق أنكِ تريدين مساعدتنا؟

قالت بتحدٍّ:

- ليس عليكَ أن تُصدِّق لأنني لن أقنعكَ بشيء، بل عليكَ أن تكتشف ذلك بنفسكَ.

قال بتحدٍّ مُماثل وكأنه يُذكِّرها بحقيقة غابت عنها:

- إذا ربحتُ القضية سيكون لزامًا على شركتكم دفع التعويضات للعمال، ستخسرون مبلغًا كبيرًا من المال.

بادرته دون تردد:

- المال لا يستطيع شراء ضمير جديد لا ينهشه الذنب.

ألجمَ ردَّها لسانه، وأعجزه عن الفهم! ولأنه لم يعتَد أن يُقيم الناس من خلال أعين الآخرين؛ لم يقف على السبب الذي دفع «دهب» إلى أن تقول له «لا تثق بها».

إذا كانت «دهب» تستند إلى علاقتها المضطربة بأختها، فهذا بالنسبة لرجل سيد قراره ليس كافيًا للحُكم عليها والبَتِّ في أمرها. يُصدِّق ما يراه، ويختبر ما يسمعه، لكن كيف السبيل لاختبارها؟

يشعر بصِدق مُبادرتها، لكن ألم تكن فراسته محل شك في ليلة ماضية حينما حاكَتْ «دهب» كذبة بارعة ساقته بها إلى تحقيق ما أرادتْ؟ لماذا لا يكون للأختين البراعة ذاتها في الكذب وحياكة الخدع؟

ومن زاوية صغيرة في عقله نادى منادٍ أن مستحيل المقارنة بين الأمرين، في حالة «دهب» غلَبَ قلبه تفكيره السديد، فلم يفطن في صوتها إلى إشارة، وفي كلماتها إلى أمارة تُنبئه بكذبها. أما مع الفتاة الواقفة قبالته فقلبه خالٍ من أي عاطفة، ويستطيع بعين العقل أن يقف على ثغرات حديثها. هذه الفتاة شفافة مثل حِفنة ماء، هذه الفتاة لم تعتَد الكذب.

ارتبكتْ دواخله، للحظة حدث زلزال اهتزَّ له ما يحفظه عقله من صور، هزَّة شعورية شديدة، لو أمكن قياسها بمقياس ريختر لوصلت إلى درجة سبعة، وحينما توقَّفتْ الهزَّة بعد ثانيتين وجد بداخله الكثير من الأنقاض. حاول أن يُلملم إطارات الصور المُهشَّمة، ويرفع ملفات الذكريات المتساقطة. تداخَل كل شيء فجأة، وكأن الكون لم يعد ثابتًا!

- آسفة.

نطقت بها ببساطة لافتة للنظر، بتلقائية لم تحتج إلى كثير مُكابَرة.

تتبع نظرتها صوب ضمادة يده اليُسرى؛ فطِن إلى مبعث أسفها، ولأنه فكَّر كثيرًا في تلك الواقعة، وكيف تركته عُرضة لثلاثة كلاب مسعورة تنهشه وسط الصحراء القاحلة، قال ببساطة مماثلة:

- كانت إحدى الضروريات الخمس.

هزَّتْ كتفيها في حيرة من حديثه، فوضَّح قائلًا:

- الدين.. النفس.. العقل.. الشرف.. المال.. ضروريات خمس تقوم عليها حياة الإنسان، وقد يموت من أجل الدفاع عنها، ويتغير ترتيبها حسب الموقف.

ثم قال كمن يعفو عن ذنب ليُحرر فاعِله:

- كنتِ تحمين نفسكِ من رجل لا تعرفينه، لستُ ناقمًا عليكِ.

لم تتخيل أن يكون عفوه حاضرًا بتلك البساطة، على الرغم من ذلك لم

تعفُ عن نفسها.

- لو عاد الزمن سأفتح الباب.

همست بها بضيق شديد، ثم أفصحت عن السبب:

- الندم أسوأ من الخطر، لو تكرر الأمر سأختار الخطر.

قالتها بشجاعة انتبه لها، وعلى الرغم من أنه لو وقع في مأزق مماثل سيحذو حذوها، فإنه قال بجدية بالغة:

- لا تعرفين أبدًا ما ينتظركِ خلف الأبواب المغلقة.

سَرَتْ رعشة خفيفة في أوصالها، صحيح أنها ليلتها لم تعرف أي نوع من الرجال ذاك الذي يقف خلف باب السيارة، لكن في ليلة أخرى أبعد منها بأسبوعين، ومن خلف باب مُغلق، اطمأنَّتْ إلى رجل لم تره قط، «الصوت»!

- ليس كل ما ينتظرنا خلف الأبواب المُغلقة سيئًا.

قالتها بتحدٍّ، ولسبب لا تعرفه تذكّرتْ جملة سابقة رماها بها، فقالت مُدافعة:

- وبالمناسبة، التقيتُ «رجلًا» من قبل.

لوهلة لم يفهم مغزى عبارتها، ثم فطن إلى أنه سبق وأن قال لها: «ليس ذنبي أنكِ لم تُقابلي رجلًا من قبل».

حديثها عن الباب المغلق ضرب زلزالًا آخر أشد قوة من الأول، ثمانية بمقياس ريختر، احتاج إلى خمس ثوانٍ حتى يتوقف. اهتز خلالها داخل عقله المزيد من الذكريات والصور.

تحرَّكتْ من أمامه بغتة، ظنَّ أنها راحلة، رآها تفتح الباب الخلفي لسيارتها، وعلى ثلاث مرات حملتْ الكثير من الأكياس المُعبَّأة بالأغراض ووضعتهم أمامه على الأرض. هزَّ رأسه مُتسائلًا بدهشة، فقالت:

- هذه زيارة لـ «بشير».

قال بخشونة وهو يشير صوب البيت:

- المكان يعج بالرجال، كيف ستدخلين؟

همست بشيء لم يسمعه، ثم قالت مُتبرّمة:

- ومن قال إنني سأدخل؟ ستعطيه أنتَ إياهم.

ما إن همَّ بالاعتراض على تصرفها حتى رفعت إصبعها مُحذِّرة وهي تقول:

- أخبرتَني أن السيناوي الأصيل لا يرد الزيارة أبدًا.

أشار إلى الأغراض بكفيه ويقول باستنكار:

- وهل تُسمِّين هذا زيارة؟ وكأنكِ على وشك فتح دُكَّانٍ صغيرٍ في الحارة.

- كم سيكون هذا لطيفًا! وعندئذ ستمضي في القضية مع المحامي الجديد وتندم أنكَ رفضتَ يدي التي مددتها للمساعدة.

استغفر مرتين، ثم أراح كفَّيه حول خصره، وأخذ يضع العقبات أمام مبادرتها:

- لن يعود العمال بدون ضمانة بعدم المساس بهم، لا بالقول ولا بالفِعل.
تخطَّتْ العقبة الأولى فورًا:
- لكَ كلمتي في ذلك.
- ودون زيادة في أجورهم.
- سيحدث من الغد.
- ودون أن يتلقَّى «بشير» العلاج عند طبيب نفسي على نفقة الشركة.
- عدَّ ذلك قد تم.
- ولن أعمل تحت إمرَة «دهب».
تعجَّبَتْ كثيرًا لمطلبه، كادت أن تُذكِّره أنه عمل تحت إمرتها قبل خطبتهما فما الفارق الآن، لكنها آثرتْ الصمت، إذ إن هذا الأمر لا يُعنيها كثيرًا. قالت:
- لن يحدث ذلك.
نجحت في إزالة كل العقبات التي وضعها حتى لم يبقَ واحدة، زفر بقوة ثم قال مستسلمًا:
- ماذا أقول؟ موافق إذن.
- أما أنا فلي شرط واحد.
شبَّك كفَّيه خلف ظهره، وزمَّ شفتيه مُتبرِّمًا، ها هي ستبدأ في فرض سيطرتها من الآن، وهو رجل لا يتحمل أن ترأسه امرأة، لكن شرطها جاء كأنه صفعة لظنونه، إذ قالت بنبرة تجمع بين الحزم والرجاء، اللين والقوة، الخوف والشجاعة:
- إياكَ أن تؤذي «دهب».
تعجَّب لأمرها، هل الفتاة التي عكفتْ لسنوات على أن تؤذي أختها، تشترط الآن ألا يؤذيها؟
هزَّ رأسه هزة خفيفة كإشارة موافقة.
- سأنتظر في السيارة، إذا قبِل «بشير» الزيارة أعطني إشارة.
قالتها واستدارت فورًا تدور على أعاقبها، حمل الأغراض على مرَّتين. انتظرتْ دقيقتين عصيبتين وكأنها تمر بامتحان مصيري، وعندما انفتح باب البيت، ظهر من خلفه يقف ساكنًا بغير إشارة.
همست بحدة وهي تُحرِّك رأسها «لم أفهم»، زمَّ شفتيه مُتبرِّمًا، ثم رفع إصبعيه في علامة النصر ساخرًا.
- ها ها، ظريف!
مطَّتْ شفتيها تهمس بها، ثم أدارتْ المحرك وغادرت المكان.
وعندما عاد إلى مجلسه قال له أحد الرجال:
- ساعة إلا ربع تقف بالخارج يا «غراب»، مع مَن كنتَ تتحدث؟
هل حقًّا ظلَّ بالخارج طوال هذا الوقت؟ لماذا يشعر أنهم دقيقتان أو ثلاث!

عاد للجلوس فوق مقعده بعقل مُشتَّت، يحاول بناء ما آفسده الزلزال.

---

(٢)

حدث كل شيء كما خططتْ «عِيدة».

انتظرتْ «عين» أمام المسجد، رأت سائلًا طاعِنًا في السن من فقراء القبيلة يتحدث إلى «بحر»، فيمد يده في جيبه ويمنحه مالًا في السر، ثم يُربّتْ فوق كتفه.

أشارت إليه، وعندما اقترب أخبرته أنها تريد الحديث معه في أمر مهم. وها هي تقف في الديوان أمام «بحر»، تُشاغله بالحديث عن «أم ذيل» وصحتها، لكن بدلًا من أن يجيبها، قال بضيق:

- لا هذا وقت ولا مكان للحديث يا «عين»، ظننتكِ تُريدينني في شيء أهم.

ارتبكت كثيرًا وهي تسأله:

- مثل ماذا؟

رغمًا عنه لم يستطع أن يضع سدًّا أمام أمواج الغضب التي تضرب جوارحه، قال:

- زواجنا مثلًا.

وقعتْ كلماته في قلبها موضع لهفة، قالت بخجل وهي تضع كفها فوق وجهها المُستتر بفرحة:

- صدقًا تقول؟

ما زادته فرحتها إلا غضبًا، قال بقسوة:

- نعم سأتزوجكِ يا «عين»، لكن ليس وحدكِ، سأتزوج معكِ بثلاث من أجمل فتيات القبيلة، وأشرفهن نسبًا، حتى إنني سأتخيرهن مختلفات؛ الشقراء والسمراء والصهباء.

انقبض القلب الذي فرح، ولم تستطع منع عبرة حزن وهمسة استنكار:

- ماذا تقول يا «بحر»؟

أجابها بقسوة دون أن يرأف بحالها:

- هكذا اتفق الشيخ مع أبيكِ، ما قولكِ يا «عين»؟ هل أكتب عليكِ في الغد؟

هزَّتْ رأسها نفيًا، وكأنها تعيش في كابوس، أخذت تبحث عن باب للهرب فلم تجد. لماذا هو هائج جدًّا، عنيف جدًّا، لماذا لا يكون مُسالمًا مثلها؟ يعيش كما يعيش رجال القبيلة، وتكون هي واحدة من نسائهم. لماذا عليه أن يكون مختلفًا إلى هذا الحد؟ ولماذا لا تستطيع هي أيضًا أن تكون مختلفة؟

رقَّ لحالها، وهدأتْ غضبته وهو يقول:

- لا أريد أن أجرحكِ يا «عين»، هذا الوضع سيؤذيكِ ويؤذيني.

أطرقتْ برأسها أرضًا لا تقوَى على رفعها.

- ارفضي هذا الزواج يا «عين».

قالها في رجاء، آملًا أن تتحلَّى بالقوة هذه المرة، لمرة واحدة في حياتها، لكنها هتفت مُستنكرة على الرغم من الألم الذي شقَّ صدرها:

- لا أستطيع.

أغاظه عجزها، كرهه كما لم يكره أي شيء من قبل. ورغمًا عنه قفز موقف ابنة «طحنون» إلى رأسه، صوتها، كلامها، موقفها، عنادها. كل شيء فيها كان قويًّا، صادمًا، مختلفًا عمَّا حولها.

- لا أستطيع رفض أمر لأبي.

أعادت «عين» تركيزه إليها، بَدَتْ صورتها في عينيه صغيرة جدًّا، هزيلة جدًّا، تقزَّمَتْ تمامًا، لو هبَّتْ ريح ستأخذها في طريقها كأنها لم تكن.

صاح بها:

- كيف لا تستطيعين؟ هذا حقكِ يا «عين»، موافقتكِ شرط لصحة الزواج!

هزَّتْ رأسها نفيًا بقوة، ما يقوله مستحيل، بل جنون.

- لا أستطيع أن أعارض أبي.

هتف بالحدة نفسها:

- وماذا سيحدث إن خالفتِه في أمر يجوز لكِ مخالفته فيه؟ هل سيسُبك؟ سيضربكِ؟ سيطردكِ من بيته؟ السُبَّة لا تلتصق بأحد، والضرب تُشفَى آثاره، وإن أغلق في وجهكِ بابًا فأبواب القبيلة كلها مفتوحة لكِ.

تساءَلتْ في نفسها وهي تشعر بالخوف، من جموحه، ومن قسوته، هل هذا هو «بحر»؟ لم يتحدث إليها بهذه الحدة من قبل، على الرغم من كل ذلك رددتْ الكلمات ذاتها، بضعف ووهن:

- لا أستطيع مُعارضة أبي.

ضمَّ قبضتيه بقوة وكأنه على وشك ضربها، ثم هتف بغِلظة مُتحدِّيًا عجزها:

- لكن أنا أستطيع.

تنامى إلى مسامعها صوت أقدام تقترب، الآن عليها أن تتقدم خطوة واحدة، ستحل لها المشكلة. ها هو «بحر» يخبرها بصراحة أنه سيرفض الزواج بها على الرغم مما قدَّمه له أبوها على طبق من ذهب، خطة «عِيدة» هي راية الشوق الأخيرة التي تنصبها في ساحة المعركة، لو فوَّتتْ هذه الفرصة ستتجرع مرارة الهزيمة طوال حياتها.

لم تستطع أن تفعل، ليس لأنها تخاف الشيخ وردة فعله، ولا «بحر» وغضبته، بل لأنها طيلة حياتها لم تقوَ على أن تُؤذي حشرة واحدة، لا تعرف المكر والحيل. شعرت أنها تتغير إلى أخرى بغيضة لا تعرفها، تتحول شيئًا فشيئًا إلى شيء آخر غير «عين». أفزعها ذلك بشدة، وكأنها تُلقي بنفسها في بحر لُجِّي ثائر، يبتلعها شيئًا فشيئًا.

غاضبة من نفسها، ومن «بحر» الذي جاءَتْ لتذبح قرابين كرامتها بين يديه

طواعية، فقابَل تضحيتها بالصفع، ليس بامرآة واحدة، بل بثلاث نساء.

وعندما استطاعتْ أن تُميِّز صوت «عِيدة» التي تقترب؛ هربت بسرعة من الطريق الخلفي للديوان.

تفاجأ «بحر» بفعلتها، ولم تكن المفاجأة من نصيبه وحده، «عِيدة» كذلك اتسعت عيناها دهشة وهي ترى «بحر» واقفًا في الديوان وحده.

لم يعرف «بحر» أن صنيع المعروف الذي فعله منذ قليل أمام المسجد، هو الذي حماه من مصارع السوء ونجَّاه من خديعة كادتْ أن تحُطَّ من قدره بين شُرفاء القبيلة، وتجبره على ما لا يرضاه.

ما كان ليخطر ببالها أنها حين عودتها إلى الشركة لاصطحاب «نرجس» وأختها إلى مطعم قريب، أنها ستُفجَع بهذا الخبر.

تم الاعتداء على «نرجس» بالضرب من قِبَل مجهول، عثر عليها «عبقرينو» في مكتبها فاقدة للوعي، وبقعة كبيرة من الدماء تتسع فوق السجادة الكريمية.

انطلقتْ «شفق» من فورها إلى المستشفى، قلبها يخفق في وَجَل، أخذت دواءها في حقيبها حتى إذا ما واجهتها نوبة هلع.

استقبلتها أم «نرجس» الباكية فهتفت «شفق» تسألها:

- هل «نرجس» بخير؟

أشارت الأم صوب الغرفة ثم ترفع كفَّيها للسماء وتقول:

- حماها ربي وحفظها، علِمَ أنني لا أقوَى على هذا الألم.

ثم أمسكتْ بيد «شفق» تقول:

- اطمئني؛ هي بخير، قام الطبيب بخياطة جرح في مؤخرة رأسها، وهي الآن نائمة، أنتظرُ هنا حتى تستفيق، رؤيتها فوق الفراش بلا حركة يحرق قلبي.

أحكمتْ «شفق» يديها فوق يدي المرأة وهي تتنهد بارتياح، تحمد الله أن لم يُفجعهم فيها.

فتح والد «نرجس» باب الغرفة ويقول ببشاشة:

- «نرجس» استيقظَتْ يا أم «نرجس».

سبقتهما الممرضة في استدعاء الطبيب، والذي دخل لمعاينتها، فرحتهم برؤيتها سالمة تحوَّلتْ إلى قلق كبير عندما اكتشفوا أنها لا تذكر كيف وصل بها الحال إلى المستشفى.

قالت بحيرة والألم يضرب برأسها، وضمادة كبيرة مُلتفة حوله:

- آخر شيء أذكره هو وجهكِ يا «شفق»، كنا نتحدث تقريبًا، لا أذكر.. لا أذكر.

- نعم يا «نرجس» كنا نتحدث ثم خرجتُ وتركتكِ، ماذا حدث بعد ذلك؟

سؤال بسيط لكن إجابته لم تكن بسيطة قط، وكأن الضربة بددتْ هذه الذكرى من عقلها كما تتلف ورقة وسط أرشيف ملفات. هزَّتْ رأسها تُنفي تذكرها لأي شيء بعدها.

طلب الطبيب منها الراحة، فوضعتْ رأسها على الوسادة وحاولت النوم بعدما حقنتها الممرضة بمُسكن قوي. وأمام الغرفة قابلتْ «شفق» المهندس «منعم»، والضابط الذي أتى لأخذ أقوال «نرجس» و«عبقرينو» ومعرفة مُلابسات الحادثة، عندما انضمتْ إليهم «شفق» كان المهندس «منعم» يقول وهو يتحسس جبيرة ذراعه:

- فوجئتُ منذ ساعتين باتصال من «عبقرينو» عامل البوفيه في الشركة يُخبرني أنه وجد «نرجس» فاقدة للوعي في مكتبها ورأسها ينزف، وأنه طلب لها الإسعاف ثم اتصل بي يُخبرني بما حدث.

قال الشرطي مُستفهمًا:

- هل كان أحد غيرهما في الشركة في هذا الوقت؟

تدخلت «شفق» بالجواب:

- «نرجس» كانت مستغرقة في العمل داخل مكتبها عندما تركتها وغادرتُ، لا أنا ولا هي نعرف من الذي كان في الشركة في هذا الوقت، لكن الشركة بدت لي وكأنها خالية من الموظفين.

قال الضابط مُستنتجًا:

- إذن كما فهمتُ، أنتِ آخر شخص تحدَّث إليها، وعامل البوفيه أول شخص عثر عليها.

لم تبدُ جملته جيدة على الإطلاق، فهمت «شفق» على الفور أن من المنطقي الآن أن تتقلَّص دائرة الشبهات حولها و«عبقرينو» فحسب. وبخاصة أن «نرجس» نفسها لا تذكر أي شيء، مشكلة!

طالبَ الضابط «عبقرينو» بالحضور إلى القسم لإتمام المحضر، ولأنهم اكتشفوا أن مشاهد الكاميرات المراقبة الداخلية في الشركة تالِفة؛ لم يكن بوسعهم معرفة أي شيء لا تتذكره «نرجس».

أدركَتْ «شفق» أنها في ورطة، وأن «عبقرينو» بإنقاذه لـ«نرجس» أصبح في ورطة أكبر. أقبلَتْ «دهب» تسأل عن حال «نرجس» بلهفة، فأخبرتها «شفق» مُطمئنة:

- الحمد لله بخير.

لاحظ الضابط الشبه الشديد بين الأختين، فتساءل بذكاء:

- أنتما توأم؟

ولما لم يكن ثمَّة داعٍ للجواب اكتفى الجميع بالصمت، فسألها:

- هل تعرفين شيئًا عن الحادثة؟

قالت «دهب» مؤكِّدة:

- لا أعرف شيئًا، عندما غادرتُ الشركة منذ ساعات كان كل شيء طبيعيًّا.

- ألم تُصادفي شخصًا غريبًا يدخل الشركة؟

- لم أرَ أحدًا يدخل الشركة على الإطلاق.

فازداد عقل «شفق» حيرة على حيرة.

دخل «غراب» المسجد، وما إن رأى الإمام حتى قال له:

- أريد أن أنظِّف المراحيض.

كانت طريقته الفريدة في عقاب نفسه! وهو الذي يأنَف من مَس آغراض الآخرين، وتُزعجه الروائح الكريهة. كانت طريقته لترويض نفسه إذا جَنَحتْ ومالت ميلًا عظيمًا.

جثا «غراب» على ركبتيه فوق الأرض يُنظفها بالفرشاة، بقوة وعنف؛ كادت معه الفرشاة أن تتفتتْ بين أصابعه القابضة عليها بإحكام. ومن عادته أن يمضي في مهمة التنظيف وهو يسترجع في ذهنه الذنب، مرة بعد مرة، كي يرتبط شرطيًّا بهذا الوضع الذي يُكرِه نفسه عليه، لكن هذه المرة لا يستطيع استحضار الذنب.

مال قلبه ميلًا خبيثًا، أقبح من أن يذكره بلسانه، أو يتردد صداه داخل نفسه، عجز عن صوغه في كلمات، ترك أفكاره مُشتتة، أشلاء تحت أنقاض الزلزال، حتى تختنق وتموت.

أثناء تنظيفه للجدران وقف أمام مرآة مكسورة مُعلَّقة، نظر إلى وجهه بإمعان، مرورًا بشعره الأسود الثائر، وتباطأ عند الجُرح الغائر في وجنته، رفع يده القابضة على الفرشاة وبعزم قوته ضرب صدره مرتين، وهو يأمر انعكاسه في المرآة:

- أدِّب هذا، أدِّب هذا!

عندما أتمَّ المهمة ذهب إلى بيته الصغير، أخذ دُشًّا وارتدى ملابسه ثم توجَّه تحت ظلمة الليل إلى مكان قريب؛ بيت صغير من طابق واحد ما يزال في طور البناء، بلا سقف، ولا جدران، يطل على مساحة يُعدُّها لتكون حديقة صغيرة.

منذ لقائه بـ «دهب» طفق يضع بيديه لبنات البيت لبنة لبنة، ويزرع نباتات الحديقة نبتة نبتة. أبَى أن يُحضر رجالًا لمساعدته، على هذا البيت أن يكون من صُنع يديه، ويختلط بلاطه بحبات عرقه.

أشعل مصباحًا يعمل بالحجارة، وأخذ يتأمل الطوب الأحمر بعين الرضا. في هذا البيت سيجتمع بـ «دهب»، سيُكوِّن معها أسرة صغيرة،
سيكون لها بيتًا، وتكون له وطنًا.

وللمرة الأولى هذه الليلة.. ابتسم.

---

(٤)

اقترب موعد ولادتها، تقلَّصتْ ساعات نومها إلى النصف، أخذ يرقَب اللهفة في عينيها بألم. دنا منها بينما تتمدَّد فوق الفراش مستغرقة في التفكير.

- أتلهَّف لحمله بين يدي.

استخدم صيغة مُذكَّرة، فنظرت إليه بدهشة، ابتسم يفصح عن مكنون صدره:

- ولدًا أو بنتًا أو حتى قردًا، فهو منَّا يا «عِيدة»، وسيظل رابطًا خفيًّا بيننا حتى وإن كنتُ في الشرق وأنتِ في الغرب.

مالت تقول بعناد لا يتزحزح:

- سأرحل يا «حَمَد»، لا تتعب أنفاسكَ عبثًا، سأنجب الولد وأرحل.

يا لكِ من غبية يا «عِيدة». هتف بها «حَمَد» في نفسه بألم، هل تظن أن الذي يجمع بينهما تحت سقف واحد هو حمل لم يكتمل؟ لو أرادتْ الفراق وطلبته منه صراحة لسرَّحها بإحسان.

انتفض واقفًا يقول:

- كل ما فعلته ولم أكفكِ يا «عِيدة»؟ ألستُ كافيًا لكِ أبدًا؟

احتدتْ:

- وما الذي فعلته يا «حَمَد»؟ تزوجتني كـ «غرة» حتى تتوقف الدماء بين القبيلتين، هذا ما فعلته.

انفعل عندما رأى في كلامها ظُلمًا بيِّنًا:

- أنا لم أتزوجكِ كـ «غرة» يا «عِيدة»، تعرفين هذا جيدًا.

صمتت، فأردف بالانفعال نفسه:

- لم أرضَ لي ولا لكِ بزواج باطل، الزواج المشروط باطل يا «عِيدة»، لا فارق بين الـ «غرة» وزواج المسيار! أنا لم أقبَل ليدي أن تمسَّكِ في الحرام.. وقلتُ لكِ قبل العقدِ أن هذا الزواج سارٍ إلى أن يشاء الله، سواء أنجبتِ بنتًا أو ولدًا أو حتى كنتِ عاقرًا لا تنجبين، لكنكِ لم تُصدقيني قط، بل وغششتني يا «عِيدة»، قلتُ لكِ انوي مثلي أن هذا الزواج سيدوم، كي لا تختل صحة الزواج ونقع في الحرام، لكنكِ لم تفعلي يا «عِيدة».

احتدَّتْ:

- فعلتُ يا «حَمَد»، لم أكن أعلم شيئًا عن صحة الزواج المشروط، وعلى الرغم من ذلك وثقتُ بكلامكِ ونويت الاستمرار

رأى بارقة أمل تلوح في الأفق، فعاد إلى جلسته بجوارها وسألها بحماس

- وما الذي تغير يا «عِيدة»؟ لماذا لا ترغبين في الاستمرار؟

فارقتْ هي الفراش هذه المرة وهي تشيح بكفيها وتقول:

- لا أطيق البقاء هنا، نظرات الجميع تخبرني كم أنا دخيلة على

«السوارفة» وغير مرغوب فيها، نظرات آمكَ وزوجات إخوتكِ كلها لوم وبُغض.

- لا يا «عِيدة» هذا صنعه خيالكِ فحسب، صحيح أن أمي حزينة على موت «مُسفر» لكنها لا تبغضكِ، لا تعرفين أمي يا «عِيدة»، أمي لا تكره، حتى أخوكِ «جبار» سامحَته لوجه الله، واحتسبَتْ ألمها عند الله لتكون رحمات تتنزَّل على قبر «مُسفر».

انفعلتْ «عِيدة»:

- أمكَ ملاك وأنا شيطان، أليس كذلك؟

- لا أقول ملاكًا ولا شيطانًا، أقول لكِ استعيذي بالله من الشيطان لأنه يوسوس لكِ ليُخرب علينا، لا أحد هنا يكرهكِ، يعرفون أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] ولولا أن أصر الشيخ الذي حكم بين القبيلتين على «الغرة» كي يضمن عدم إراقة الدماء لما تزوَّجتكِ بهذه الطريقة.

أكملت كلماته بانفعال:

- ولا غيرها، لما تزوجتني من الأساس يا «حَمَد»، لم ترَني قط، ولم تعرفني قط.

يعرف أن كلامها صحيح، لو لم يصدر الحكم بـ «الغرة» لما عرفها «حَمَد» ولما تزوجها، لكنه ما إن تزوجها (وهو الذي لم يعرف امرأة قط) حتى مال إليها، وسكنَ إليها مودة ورحمة؛ كانت امرأته الأولى، فأعدَّها كل النساء.

- لكن الله سبَّب الأسباب، وقدَّر لنا اللقاء بهذه الطريقة وبهذا الألم لحكمة يعلمها وحده، وأنا منذ اليوم الأول أردتُ أن أعاشركِ بالمعروف، ولم أبخسكِ حقًّا من حقوقكِ، وعلى الرغم من أن «الغرة» ليس لها مهر فقد منحتكِ مهرًا يا «عِيدة».

أشار بناظريه إلى ثلاث من الأساور الذهبية تُزيِّن معصمها، فخلعتهم وألقت بهم أرضًا وهي تقول:

- ها هو مهركَ يا «حَمَد»، لا أرغب به، وسأرحل عندما أنجب الولد، وإذا وقفتَ أمامي ورفضتَ رحيلي سيأتي «جبار» ومعه كل رجال «السخاوية» بالأسلحة والسيوف، ستكون مجزرة يا «حَمَد».

عندما أدركَ أنه استنفد كل المحاولات، قال باستسلام وهو يُنازع ألمًا حارقًا في جوفه:

- لا تحتاجين لكل ذلك، منذ اليوم الأول لو كنتِ طالبتني بالطلاق لكنتُ طلَّقتكِ يا «عيدة»، أنا لستُ رجلًا ظالمًا لأجبر امرأة على معاشرتي دون رغبتها.

قالت ساخرة:

- وهل تظنني سأصدق ذلك؟

نمَتْ فوق شفتيه ابتسامة حزن ممزوجة بالألم وقال:

- هذه هي المشكلة أساسًا يا «عِيدة»؛ أصررتِ على أن تكوني أسيرتي في حين أنني لم أقيِّدكِ بالأغلال قط، وعاملتكِ كما يُعامِل أفضل رجال

القبلية نساءهم، لم آقلل منكِ لحظة واحدة، ولم آبخسكِ حقوقكِ، آنتِ لم تفهميني قط، أنتِ لم تعرفيني قط.

بعض الأغلال لا تكون إلا في عقولنا فحسب، تُقيّدنا إلى أفكار خاطئة، وشكوك مُهلِكة وظنون مسمومة، نحن أسرى أفكارنا، تُسيِّرنا الطريقة التي ننظر بها إلى أنفسنا بالمرآة.

نُصدِّق العالم الذي تخترعه عقولنا، ولا نرى حولنا سواه. وفي عالم «عِيدة» كانت ترى نفسها مجرد أسيرة في بيت «حَمَد»، وغريبة في وطنه، ولن ترتاح إلا بكسر الأغلال.

أحيانًا يكون ابتلاء الله للعبد في طريقة تفكيره! غادر «حَمَد» البيت على الفور، جلستْ «عِيدة» فوق الفراش وقد سرَى مغص شديد في بطنها، أخذت تتنفس ببطء وهدوء، وعقلها مُنشغل بالتفكير، ثم أسفر التفكير عن قرار.

همست لنفسها وهي ترفع رأسها بإباء: لن أبقى هنا لحظة واحدة، سأنجب الولد ثم أعود لأخي.

طرقات خفيفة على الباب أجبرت «عِيدة» على مغادرة الفراش وفتحه، فوجئتْ بـ«عين» أمامها.

أدخلتها؛ كشفتْ عن وجهها لتجدها في أسوأ حال، قالت بجزع:

- ماذا حدث لكِ يا «عين»؟ لماذا تبكين؟ ولماذا لم تحضري إلى الديوان بعد صلاة المغرب؟ ألم نتفق على تنفيذ الخطة الليلة؟

جلستا متجاورتين فوق الأريكة، طال البكاء بـ«عين» حتى ظنَّتْ «عِيدة» أن مصيبة قد حدثتْ، كادتْ تُقبِّل كفَّيها لتتحدث.

أخيرًا مسحت عبراتها وقالت بصوت مبحوح:

- «بحر» يريد الزواج بي مع ثلاث فتيات أخريات.

ضربت «عِيدة» صدرها وهي تشهق بقوة، ثم طفقت تسُب «بحر» وسُلالته حتى سابع جَد. قالت وهي تحضر طبق عنب من الثلاجة وتضعه بينهما:

- جنس نمرود، قلتُ لكِ إنكِ لن تكفيه، لكن لم أتخيل أن عينه مفتوحة إلى هذا الحد.. أربعة؟!

وضعت ثمرات العنب في فمها وهي تقول بازدراء:

- والله «بحر» هذا كرهته من أول ما رأيته، رجل جِلف وأنفه في السماء.

ربما لهذا السبب فكَّرتْ في خطتها الماكرة، من جهة ستُساعد «عينًا» لأنها بالفعل تُشفق عليها، ومن جهة أخرى ستأتي بأنف «بحر» وتُمرّغه في الطين. لم تنسَ بعدُ ما فعله بأخيها بعد موت «مُسفر»، ضربه ضربة موت، وأنقذه الرجال من بين يديه بصعوبة، ورفض الزواج بها كغرة وكأنها لا ترقى

لتكون زوجة له، فحقدتْ عليه من وقتها.

هتفت بها «عين» وهي تمسح وجهها:

- أخوكِ أيضًا متزوج من اثنتين يا «عِيدة».

سارعت على الفور بقول:

- لم تري «بخيتة» زوجته الأولى، والله لو رأيتِها لعذرتِ «جبارًا»، بل ولأشفقتِ عليه أيضًا.

ثم أردفتْ وهي تضع العنب في كف «عين»:

- لا تحزني يا «عين»، سأفكر لكِ في خطة جديدة نُبعد بها فتيات القبيلة عن «بحر».

قالت «عين» ساخرة:

- وكيف سننجح في ذلك؟ هل سنلجأ هذه المرة إلى السحر؟

قالت «عِيدة» بحماس وكأنها عثرت على الحل المضمون:

- والله بنت حلال، في قبيلتنا رجل مبروك يقولون إنه...

أوقفتها «عين» قائلة:

- لن أفعل شيئًا، فليتزوج كل نساء القبيلة، لا شأن لي.

نظرت لها «عِيدة» بلؤم وقالت:

- تقولين هذا من وراء قلبكِ.

أجابتها «عين» وأمارات الألم على وجهها:

- كان قاسيًا جدًّا، لم تسمعي كيف تحدث إليَّ وكأنني أرى «بحر» آخر غير الذي أعرفه، كان يُعاملني بطيبة طوال الوقت، لكن الليلة كان فظيعًا.

- وماذا ستفعلين الآن؟

هزَّتْ كتفيها عجزًا تقول بمرارة غَزَتْ حلقها واستقرتْ به:

- لن أفعل شيئًا، إن أراد أبي تزويجي بـ «بحر» مع ثلاث فتيات أخريات لن أستطيع معارضته.

ثم أردفتْ بحزن من يشعر بمهانة شديدة:

- يراني رُبع زوجة يا «عِيدة»، وكأنني لا أكفي لأن أكون زوجة كاملة.

قالت لها «عِيدة» بصدق وهي تُربّت فوق يدها:

- أنتِ أفضل فتيات «السوارقة»، وتستحقين أفضل رجالهم.

وللمفارقة هذا نفس ما يقوله الجميع، لماذا يُلازمها سوء الحظ ولا تتزوج أفضل رجالهم إذن؟

سورة فاطر، الآية ١٨.

(٥)

اختار «منصور» أن يُحادث ابنته من خلال مكالمة فيديو. سألها بقلق:

- أخبريني بما حدث يا «شفق»؟

شرحت له الحادثة التي تعرَّضتْ لها «نرجس» وأن الفاعل لا يزال مجهولًا، وأنهم اكتشفوا أثناء محاولة تفريغ كاميرات المراقبة الداخلية أنها مُعطَّلة، لذلك لم يتم التوصُّل إلى الفاعِل.

زفر «منصور» بحُنق وهو يحل عقدة رباط عنقه ثم يقول:

- المشكلات لا تنتهي، لا أفهم أي نحس هذا الذي حلَّ فوق الشركة.

- لا تقلق يا أبي، أتابع الأمر وحالة «نرجس» جيدة، لم تتسبب لها الضربة في شروخ في الجمجمة والحمد لله، لكن الطبيب رأى أن يُبقيها الليلة تحت الملاحظة، وأنا سأبقى معها في المستشفى.

بدا وكأنه يهم بأن يقول شيئًا، ثم تردد، همَّ بأن يقوله، ثم تردد ثانية، لاحظتْ «شفق» ذلك فسألته إن كان يود أن يخبرها بشيء. حسم تردده ثم قرَّب شاشة المحمول من وجهه، وقال بصوت خفيض لكنه مُلغَّم بالقلق:

- انتبهي لنفسكِ يا «شفق»، عديني بذلكِ.

قرأت خوفًا حقيقيًّا في عيني أبيها، «منصور النمر» يخاف! بدا لها أمرًا غريبًا لم تعتده.

- ممَّ أنتَ خائف يا أبي؟

اكتسَتْ نبرته بالعصبية:

- عديني بذلك.

- أعدكَ.

انفرجت أساريره بعض الشيء، وعاد ليُريح ظهره إلى ظهر مقعد مكتبه الفخم، ويُنهي المُكالمة. ما كان عليه أن يُرسلها إلى «العريش»، ما كان عليه أن يفعل قط!

وبينما هو غارق في التفكير اقتحمت الدكتورة «ثريا» المكتب، أغلقت الباب خلفها، ثم وقفت في منتصف الغرفة تصيح:

- أنتَ أب لا نفع منكَ، عديم المسؤولية، متجرد من الشعور والإحساس.

مال صوب مكتبه يتكئ عليه ويقول ببرود:

- ماذا حدث يا «ثريا»؟ لماذا تعصفين مثل ريح أمشير؟

اقتربت خطوتين وهتفت بحدة:

- كيف تترك ابنتيكَ في العريش كل هذا الوقت بمفردهما؟ وكل منهما أعلنت خطبتها على رجل، لقد فُضِحنا أمام الناس وأنت جالس في مكتبك مثل أبي الهول لا تفعل شيئًا.

أزاح المقعد إلى الخلف بعنف لدرجة أنه اصطدم بالجدار، ثم دار حول

المكتب ووقف قبالتها يصيح:

- أنا آتي لكِ بالمال الذي تُنفقينه على ملابسكِ ومجوهراتكِ وسفرياتكِ يا دكتورة، أم أنكِ تظنين أن مرتبكِ الجامعي الهزيل هو ما يحقق لكِ الحياة المرفهة التي تعيشينها؟ لكي أخلق لكِ هذه الحياة كان عليَّ أن أبقى هنا في المكتب، فما الذي كنتِ تفعلينه في هذه الأثناء باستثناء مناقشاتك ومؤتمراتك وحفلاتك وسهراتك؟ لما لم تُربي ابنتكِ «دهب» التي فضحتنا بإعلان خطبتها على رجل حقير لا يساوي شيئًا في سوق الرجال؟

هدأت نبرة صوتها وإن كانت ما تزال تتحدث بنفس البرودة وهي تقول:

- لن أجيب عن كل هذه التفاهات التي لا تمل من ترديدها، أنت السبب في كل شيء، أنت الذي أوصلت بنتك إلى التمرد والعصيان، وأوصلتَ الأخرى إلى الخروج عن طوعي.

لم تزده كلماتها إلا غضبًا فصاح:

- ولماذا ترفضين زواجها بـ «أكمل» على الرغم من أنه رجل من عائلة كبيرة ويساوي ثقله ذهب؟ لماذا كنتِ ستفرحين لو طلب «دهب» بدلًا من «شفق»؟ لماذا يا «ثريا»؟ هل أخبركِ أنا؟ لأنكِ تكرهين «شفق»، طيلة حياتكِ كنتِ تخجلين من طباعها الخجولة المنطوية، وتخجلين من مرضها الذي وُلِدتْ به، من ضعف جسدها ومناعتها، من نوبات الهلع التي تُصيبها في الأماكن المزدحمة، فضَّلتِ «دهب» عليها طوال الوقت، تأخذينها في حفلاتك ورحلاتك وسهرات النادي، وتتركين «شفق» في البيت أو المستشفى بمفردها، تخجلين منها أمام الناس حتى صارتْ تخجل من مرضها وتتعامل معه كأنه وصمة عار.

خرج صوتها خافتًا لكن قاسيًا وهي تقول رافعة رأسها عاليًا:

- لن أجيب عن هذا أيضًا، أنتَ كنتَ بعيدًا جدًّا، بعيدًا إلى درجة ألا تفهم أي شيء مما يحدث لأسرتكَ.

- وأنتِ؟ أين كنتِ عندما كنتُ أنا بعيدًا؟ لمرة واحدة اعترفي بالخطأ، لمرة واحدة فقط يا «ثريا».

ألقت عليه نظرة ازدراء مُطوَّلة من أخمص قدميه إلى رأسه، ثم فارقت المكتب دون كلمة أخرى.

عاد «منصور» إلى مكتبه يتهالَك فوق المقعد الجلدي الوثير، يضم رأسه بكلتا كفَّيه للحظات، ثم يتصِل بمديرة مكتبه ويطلب منها تمديد إقامته في الفندق لشهر آخر.

انتهى شجارهما ككل مرة؛ يرفض كل منهما أن يدفع فاتورة نجاح الآخر!

الليل في المستشفى كان هادئًا، يتخلله استدعاء في مُكبِّر الصوت لطبيب إلى قسم الطوارئ، فيما عدا ذلك كان كل شيء باعثًا على

السكينة.

أما «شفق» فكانت في حالة اضطراب؛ السرير الأبيض، الأجهزة الطبية، الأدوية، الرائحة، كل شيء حولها هيَّج ذكريات أليمة، طفقتْ تنخز قلبها.

على الرغم من ذلك أصرَّتْ على المبيت بجوار «نرجس»، يدًا بيد جلست على مقعد بجوار فراشها، يُجافيها النوم، تُمرر عينيها بين حين وآخر فوق أم «نرجس» النائمة فوق أريكة لا تكاد تسعها، تستيقظ كل فترة بمنبه الأمومة الذي لا يتأخر، ثم تُلقي نظرة حانية على «نرجس» النائمة في فراشها، وتمنح «شفق» بسمة شُكر وامتنان، ثم تعود إلى نومتها ثانية.

تأملتها «شفق» بعين دامعة، كم هي أم رحيمة لا تهنأ في نومتها وفلذة كبدها على فراش الألم.

تمنَّتْ «شفق» أن يرزقها الله بنتًا وولدًا، يتوسَّدان قلبها، وتكون لهما كما الطيور لأفراخها، تلقمهما في أفواههما الطعام، وتشجعهما حتى يتعلما الطيران، تدفعهما صوب نجاح الدنيا وفلاح الآخرة، تكون لهما شمسًا يستدفئان بها، وسيفًا يُحاربان الدنيا بقوَّته، وجبينًا عريضًا يتفاخران بعِزَّته.

ترقرقت من عينيها عبرة، مسحتها سريعًا وهي تدفع عن عقلها خيبات عاشتها، لا مكان للخيبات بعد الآن، البلاء مُوكَّلٌ بالنُطق، والله عند حُسن ظن العبد، ستُحسِن الظن، وتنبذ الطيرة، وتستجلب بيقينها في الله قدرًا أجمل.

تذكَّرت كلمات سابقة حين سألت المعلمة «آمال»: إذا كنتُ قد أخطأتُ الاختيار كيف أغيِّر قدري إذن؟

أجابتها: بالدُعاء!

تحرَّكتْ «نرجس» في فراشها، فمالتْ صوبها تتطلع بلهفة إلى عينيها المفتوحتين وهي تبتسم قائلة:

- أهلًا بسيدة النوم الأولى، لا أعرف أحدًا ينام كل هذا الوقت باستثناء حيوان «الكسلان».

ابتسمتْ «نرجس» وهي تُمرر أناملها فوق ضمادة رأسها وتقول:

- أتسخرين مني وأنا في هذا الوضع؟ سامحكِ الله.

استندتْ «نرجس» إلى ذراع صديقتها التي وضعتْ خلف ظهرها الوسادة كي تتمكن من الجلوس، ثم ألقتْ نظرة مُشفِقة على أمها النائمة.

قالت «شفق» بحنو:

- رفضت العودة إلى البيت، أقنعتُ والدكِ بصعوبة لكن أمكِ لم أستطع إقناعها قط.

منحتها «نرجس» بسمة كبيرة، ثم سألت بفضول هامسة كي لا توقِظ أمها:

- ماذا حدث لي؟

آجابتها «شفق» بالخفوت نفسه:

- لا نعرف أبدًا، فوجئنا أن مشاهد كاميرا المراقبة الخاصة بالرواق من باب الشركة وحتى مكتبكِ تالفة تمامًا، وطبعًا في هذه الحالة فإن المشتبه به هو أول من عثر عليكِ؛ أي «عبقرينو»، أخذه الضابط إلى القسم للتحقيق معه.

قالت «نرجس» مؤكدة:

- مستحيل! ولماذا يفعل «عبقرينو» شيئًا بشعًا كهذا؟

هزَّتْ «شفق» رأسها مُطمئنة:

- اطمئني؛ أثبتنا براءته، تم تحديد وقت تقريبي لإصابتكِ استنادًا إلى كمية الدم التي نزفتِها، وتجلُّطها، وأيضًا الكريستالة التي تم ضربكِ بها كانت تحوي ساعة صغيرة في المنتصف كُسِرتْ أثناء الضربة فتم تحديد وقت دقيق للحادثة، و«عبقرينو» كان وقتها في غرفة الأرشيف يُنظِّفها، ويضع السماعات فوق أذنيه، مشاهد المراقبة الخاصة بغرفة الأرشيف كانت سليمة، وبذلك تم إطلاق سراحه. لكن أخبريني، ألا تتذكرين أي شيء على الإطلاق؟

فكَّرتْ «نرجس» فيما سمعته، ومع التفكير ازداد ألم رأسها حِدة، وضعت كفها فوق مؤخرة رأسها وهي تقول:

- أتذكر وجهكِ، وأنني.. كنتُ غاضبة منكِ بشدة!

اتسعت عينا «شفق» دهشة وهي تقول:

- لماذا؟ عندما تركتكِ كنا في أحسن حال، لم أقل أي شيء يُغضبكِ.

هزَّتْ «نرجس» كتفيها في حيرة، تقول مُتألمة:

- لا أعرف، هذا ما أشعر به.

- سأخبر الطبيب أنكِ استيقظتِ وأطلب منه حقنكِ بمُسكن ألم.

- أحضري لي شيئًا آكله، أكاد أموت جوعًا، «شفق»، أعلم كم من الصعب وجودكِ في هذا المكان، أشكركِ كثيرًا.

شيَّعتها «شفق» ببسمة رائقة، وذهبت لتلبية حاجتها. خارج الغرفة فوجئتْ بـ «عبقرينو» جالسًا يعبث بورقة وقلم، سألته عما يفعله في هذا الوقت من الليل فهبَّ واقفًا يقول:

- كيف حال الأستاذة «نرجس» الآن؟

- بخير لا تقلق.

ظهر الاطمئنان جليًّا على ملامحه ثم قال وهو يُدني الورقة منها:

- حاولتُ أن أرسم مخططًا للحادثة.

- مخطط للحادثة؟

قال بحماسة كبيرة:

- المشاهد التي تم إتلافها هي الوحيدة التي كان بإمكانها إظهار الجاني، المال الذي سرقه من حقيبة الأستاذة «نرجس»، وباقي الأغراض الأخرى، كل ذلك لم يتم تصويره من خلال باقي الكاميرات.

ثم أردف بحماس وهو يُعدِّل من وضع نظارته فوق قصبة أنفه:

- من المفهوم لماذا يسرق أحد المال، لكن أخبريني يا أستاذة «شفق»، لماذا يسرق أحدهم من مكتب أستاذة «نرجس» أشياء تافهة مثل لوحة لمبنى قيد الإنشاء ورسومات هندسية لأعمال انتهينا من تصميمها.. وأغراضًا ساذجة مثل ماكينة صنع القهوة، وأحبار الطابعة، وإطار صورة؟ من الذي يقتحم شركة ليسرق إطار صورة؟!

هزَّتْ «شفق» كتفيها في حيرة، وهي تتذكر صورتها مع «نرجس» المُختفية من فوق مكتبها. قال بحماس:

- الجاني لم يعرف ماذا عليه أن يسرق لأنه لم يقصد السرقة من الأساس، هدفه من البداية كان ضرب الأستاذة «نرجس».

بدتْ كلماته عقلانية للغاية، بقي السؤال الأهم الذي لم يجد أي منهما إجابة عليه: لماذا قد يُفكِّر أحد في إيذاء «نرجس»؟ إيذاء وليس قتل، لأن الضربة لم تكن قوية كفاية للقتل، بل كانت مثل رسالة تحذير!

- الجاني هو...

تعلَّقتْ آمال «شفق» بـ «عبقرينو»، أردف مؤكدًا وابتسامة فخر على شفتيه:

- شبح.

- شبح!

- نعم يا أستاذة «شفق» شبح، لا تنسي أن أستاذة «نرجس» تحب أن تأكل العملاء، أقصد تُعنِّف العملاء، لا بد أن عميلًا استفزه تصرفها، مات في ظروف غامضة، ثم عاد لينتقمممم.

قالها مُشددًا على حرف الميم بصوت فحيح وكأنه يؤدي دورًا في فيلم رعب.. عنَّفته «شفق»:

- يبدو أنكَ تُكثِر من مشاهدة الأفلام الأمريكية، الأرواح تصعد إلى السماء بعد الموت، لا تتجول في الأرض وتنتقم من هذا وذاك.

بدَتْ خيبة الأمل على وجهه وهو يقول:

- كنتُ سأخبر الشرطة باستنتاجي في الصباح.

رفعت كفَّها مُحذِّرة:

- إياكَ أن تتفوه بكلمة إلى الشرطة، نجوتَ منهم بأعجوبة اليوم.

استرعى انتباهها لُفافة أسطوانية على المقعد خلفه رمقتها بريبة وهي تقول باستنكار:

- إياكَ أن تُخبرني أن هذه مصيدة للأشباح اخترعتها بنفسك.

آمسكَ «عبقرينو» اللفافة وقلَبها بين يديه قائلًا:

- ما هذا الذي تقولينه يا أستاذة «شفق»؟ هذه هدية لأستاذة «نرجس»، لا يصح زيارة مريض دون هدية.

رمقت مُقدمة البرطمان الزجاجي وهي تقول باسمة:

- الناس تشتري الورد أو الشيكولاتة، لكن لأنكَ «عبقرينو» اشتريتَ برطمان عسل.

-لا يا أستاذة «شفق»، هذا ليس برطمان عسل.

منحها اللفافة، أمسكتها بريبة وهي تُبعدها عن جسدها، فتحتها لتجد برطمانًا زجاجيًّا كما توقَّعتْ، لكنه فارغ من العسل، وبه نحلة تتخبط بين جدرانه في محاولة للفرار. رمقته بريبة وهي تحك وجنتها قائلة:

- ألا ترى يا «عبقرينو» أن «نرجس» ستحتاج إلى وقت طويل في تربية هذه النحلة حتى يمتلئ البرطمان بالعسل؟ يعني كان من الأسهل أن تشتري برطمان عسل جاهزًا.

هزَّ رأسه، وقال مُستنكرًا سذاجتها:

- ما هذا الذي تقولينه يا أستاذة «شفق»؟ لم أحضر النحلة لتُربيها أستاذة «نرجس» وتحصل منها على العسل، بل لتقرصها!

اتسعت عينا «شفق» ذعرًا وهي تُبعد البرطمان عن جسدها أكثر، أردف «عبقرينو» بحماس وهو يُعدِّل من وضع نظارته:

- ألم تسمعي عن فوائد قَرص النحل؟ في الدول المتقدمة يتركون النحل يقرصهم من أجل الحصول على مناعة قوية، أعطي البرطمان لأستاذة «نرجس» وأخبريها أن تفتحه وتضع يديها فيه.

أعادت له البرطمان وهي تقول بعجالة وقد شعرت بعقلها يذوب:

- لا أظن يا «عبقرينو» أن «نرجس» ستوافق على فِعل شيء كهذا.

رفع إصبعه، ولا يرفع إصبعه إلا حينما تخطر بباله فكرة جديدة وقال بأداء مسرحي:

- إذن تفتحين فرجة صغيرة من باب غرفتها، ثم نفتح البرطمان ونُطلِق عليها النحلة ثم نغلق الباب ونترك الأمور تأخذ مجراها.

خطفتْ منه البرطمان وهي تقول:

- «عبقرينو»، لا تفعل شيئًا أرجوك، «نرجس» لن تتحمل ما تقوله، اشترِ لها وردًا مثل باقي الخلق.

تحرَّكتْ لإحضار ما تأكله «نرِجس»، أخذت معها النحلة مخافة أن تعود فتجد جسد صديقتها قد انتفخ قرصًا.

حاولت «نرجس» استجماع أفكارها على الرغم من الألم، جاهدت كي

تتذكر مشهدًا آخر غير الذي استقر في ذاكرتها، وجه «شفق»، وغضبها منها، لماذا كانت غاضبة من «شفق» إلى هذا الحد؟ ما الذي قالته أو فعلَته لتُثير مشاعر الاستياء بداخلها؟

وبينما تُفكر انتبهت إلى شخص ينظر إليها عبر باب الغرفة المُوارَب، دققتْ النظر من خلال الإضاءة الخافتة للغرفة، لم تقف أمامها بشكل كامل، فقط أمالت برأسها فلم يتبدَ منها سوى مقدمة حجابها الأسود، وجبينها، وعينيها. تعجَّبتْ، لماذا تقف «شفق» بهذا الشكل؟ نادتها:

- «شفق»!

لكنها لم تتحرك، العينان السوداوان مثبتتان عليها وكأنهما مُصباحان يشعَّان الظلام في المكان.

ارتجفت أوصال «نرجس»، وتملك الخوف منها. كررتْ:

- «شفق»!

ثابتة لم تتحرك قيد أنملة، عيناها لم تطرفا لحظة واحدة، وكأنهما بلا أجفان. ولأنها لا ترى الجسد وما فوقه من ملابس، تساءلتْ بصوت مُرتعش:

- «دهب»؟

لحظات مرَّتْ عليها بصعوبة، خفق فيها قلبها خوفًا. النظرات حادة، كأنها نصلا سكِّين. ثم بغتة اختفت من أمامها، حاولتْ «نرجس» أن تُسيطر على دبيب الخوف الذي تملَّك منها.

وفجأة ظهرت «شفق» ودخلت الغرفة. سارعتْ «نرجس» بقول:

- هل كنتِ هنا منذ قليل؟

هزَّتْ «شفق» رأسها نفيًا وهي تشير إلى الطبيب لدخول الغرفة، استيقظتْ أم «نرجس» من نومتها، رأتْ «شفق» تضم ذراعيها إلى صدرها بردًا فخلعَتْ شالها البُني الذي شغلته بنفسها ووضعته فوق كتفيها، رمقتها «شفق» بشكر كبير، ومنحتها بسمة رائقة.

لم تقص «نرجس» شيئًا ممَّا رأته، وفي تلك الليلة لم تغفل عيناها لحظة واحدة.

في الصباح سارعت «مدينة» بأخذ فطور بسيط من المطبخ، ثم دخلت غرفتها وغلَّقتْ الباب. منذ جلسة «البِشعة» تحاول أن تتحاشى لقاء أبيها، ولم يحاول هو أن يراها أو يُحادثها، أثار ذلك ريبتها بشدة.

ظنَّتْ عندما جرَّها بعد جلسة «البِشعة» أنه وما إن يصل إلى البيت حتى ينهال عليها ضربًا بنعاله، أو بعصاه، أو بأي شيء تطوله يداه، كعادته حين يريد تأديبها.

والأمور التي تفعلها «مدينة» وتستوجب عقاب «طحنون» كثيرة؛ الأكل الزائد عن الحد جريمة، الملح الزائد في الطعام جريمة، موت واحدة من أغنامه جريمة، وكأنها الملك المُوَّكل بقبض الأرواح!

اللبن القليل من ضرع البقرة جريمة، وكأن لها دخلًا في مقادير الرزَّاق!

حتى إن كثرة الأسئلة جريمة، وكانت «مدينة» ملعونة من صغرها بلعنة الاختلاف، لا تقبل ما يُقال حتى تُمرره على عقلها وتقتنع به، تقرأ الكُتب خِلسة من وراء أبيها، تُبصِّرها، تُعلِّمها، وتُربِّيها، تُقايضها من السُيَّاح الذين يمرون بالجنوب بما لديها من لبن أو أشغال يدوية. وعندما اكتشف «طحنون» أن الكتب هي القوة التي تُناطحه بها حرق كنز السنين أمام عينيها، لكن أسئلتها لم تتوقف.

لماذا نُقسم بالعود وربُّه أعلَى؟ لماذا نتوسَّل بقبور الصالحين ونطلب منهم المدد وهم أموات بينما الله حي لا يموت؟ لماذا يشرب أبوها وأصحابه النرجيلة والله أمرنا ألا نودي بأنفسنا إلى التهلكة؟ لماذا يُطعمون البحر من أقدام الذبيحة طلبًا للشفاء في حين أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؟

لماذا يُزوج البعض بناتهم دون علمهم في حين أن موافقة الفتاة على الزواج شرط لصحَّته؟

وغيرها من الأسئلة التي يعدَّها «طحنون» تمرُّدًا على أعراف القبيلة، إذا كان أجداده يفعلون كل ذلك فلماذا تُصر ابنته على أن تكون مختلفة؟

هي عاقة إذن، نبت سام يجب قصه باستمرار وإلا استطال عوده، وطرح ثمرًا خبيثًا مثلها.

فُتِح الباب بغتة، فوقفتْ اللُقمة في حلقها، تركت الخبز يسقط فوق الأرض وجلست تحمي رأسها بذراعيها؛ استعدادًا لضربة قادمة. طال انتظارها، ولما رأته واقفًا لا يتحرك فتحت بين ذراعيها فُرجة صغيرة تنظر منها إليه.

على أعتاب غرفتها وقف يرمقها بعين السَخَط، أمارات وجهه تنطق بالكُره والحقد والغضب.

دنا منها، جفلت. همس بفحيح أفعى تنفث السم:

- سأعاقبكِ على فعلتكِ عقابًا أسوأ من الموت.

انقبض صدرها، وطفق قلبها يخفق بجنون. قالها وأغلق الباب خلفه بهدوء، تعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. لم تدرِ شيئًا عن العقاب الذي يدور

في رأس أبيها، بعدما فضحتهُ أمام القبائل، ووُسِمَ بعار الكذب طيلة عمره.

في رأسه كان عقله يحوك عقابًا لاذعًا، سيُبكيها ندمًا حتى آخر أنفاسها. أقسَم وهو يخرج من بيته للمرة الأولى منذ الواقعة، أن يُزوِّجها لأكبر رجال القبيلة سنًّا، وأقبحهم شكلًا، وأفقرهم حالًا، وأدناهم نسبًا.

سيختار لها رجلًا في عُمر جدِّها، يُلقيها أسفل قدميه بلا مهر أو مؤخَّر صداق!

الوشم فوق ظهور الجمال كان ديدن القبائل كلها، للتفرقة بين نوق هذا وذاك. وكان «بحر» يحب أن يضع وشم «السوارفة» فوق أجساد الجمال بنفسه.

وخاتمه الفضي، المنقوش فوقه اسمه، يُحب أن يغرقه في الأصباغ ثم يطبع به أجساد جماله. تلمع عيناه غبطة حينما يرى اسمه فوق أعلى نقطة من سنام الجمل.

بينه والجمال قصة حب طويلة، نشأت في الصغر ونمَتْ معه حتى وصل إلى هذا العُمر. يراها حيوانات أصيلة، قوية، صبورة، عنيدة، وتستحق الفخر بنفسها. علتْ شفيته بغتة ابتسامة وهو يتأمل في صفات الجمال التي أحصاها، إنها ذاتها الصفات التي يريدها في امرأته، يُريدها جملًا في صحراء قاحلة، يريدها ألا تكون «عينًا» أخرى!

تنبذ الضعف والخنوع والظلم، ويشتد عودها دفاعًا عن الحق، يُريدها عاصفة رملية تطيح بكل ما سواها، فلا يرَى غيرها. على الرغم من ذلك تكون وردة برِّية وسط الصخور، رجلًا في غيابه، وأنثى حين يختلي بها.

سُكَّان سيناء «أسياد الرمال»، كما كان الفراعنة يُطلقون عليهم، يُريد «بحر» زوجة تليق بسيِّد الرمال.

وشم ثلاثة جمال قبل أن تقفز جلسة «البشعة» إلى رأسه، وابنة «طحنون» مسحوبة وراء أبيها بمهانة، وعلى الرغم من المذلَّة التي كانت عليها أثناء رحيلها، فإنها طُبعَت في ذاكرته تحت بند «القوة».

وكأن كل مهانات العالم وذُلّه ليست كافية لتأخذ من قوتها وعزِّة نفسها شيئًا. صوتها وهي تنطق بالصدق ما يزال يتردد داخل أذنيه كأنه يسمعه للتو.

ثلاثة جمال آخرون وكان قد بدأ في القلق على مصيرها تلك الليلة بين يدي «طحنون» عديم المروءة والشَرف. تركَ خاتمه المُلطَّخ بالأصباغ ووضع كفَّه فوق صدره؛ يتحسس قلبًا يتآكل فوق طاولة القلق، قضمة بقضمة.

---

(٧)

لا يعرف كيف قاد السيارة على طول الطريق من بيته إلى المستشفى، كم سُبَّة ألقاها سائق في وجهه، وكم لعنة شيَّعه بها المارة.

يعتذر إلى هذا ويهُز رأسه آسفًا إلى ذاك، وكل ما يتردد في رأسه كلمات «دهب» الباكية: هجم مُجرم على الشركة ليلة أمس، أنا في المستشفى، «نرجس» مُصابة، أنا خائفة جدًّا أن يلحق بي هنا.

أوقف «غراب» سيارته أمام المستشفى لتُصدر صريرًا أزعج الطيور في أعشاشها فوق الشجر. لو يعرفون القلب الواجِف الذي دفعه لإزعاجهم لأشفقوا عليه وعذروه.

علِمَ من الاستعلامات رقم الغرفة التي ترقد فيها «نرجس»، وجد المصعد مشغولًا فلم يتحمل أشواك الانتظار، صعد طوابق ثلاثة بأقصى ما يملك من لهفة.

حتى رآها، ساكنة بجوار باب الغرفة تجلس على مقعد أبيض، وحيدة مثله، حزينة مثله، تشعر بالبرد.. مثله.

تعقد ذراعيها وهي تشُد أطراف أكمامها الصوفية لتُغطي أصابعها المُتجمدة، في شوق لشمس تُلقي عليها بالدفء، ودَّ لو دنا منها وصار لها شمسًا، رقَّ قلبه، واضطربتْ أنفاسه، العين التي كانت ترمق بها الموجودات من حولها كانت تنطق بالألم، بالحسرة، بالقلق، وكأن الذكريات تطفح بعقلها ولا تدع لها فرصة للفكاك من براثنها.

أحسَّ بكُرهها للأرض، للسقف، للجدران، للمعاطِف البيضاء، لرائحة الدواء، وللمقعد الذي تجلس فيه كأنها تتقلب فوق الجمر.

ترمق المقعد الفارغ بجوارها بحزن، كم مرة رأته فارغًا من قبل؟ لا يد تُربِّت فوق كفها المتجمد وتقول إن كل شيء سيكون بخير، ولا صدر تُلقي فوقه برأسها وتسأل صاحبه «متى الشفاء؟»، فيُجيبها ولو كذبًا «إنه بات قريبًا».

سرتْ في شفتيها رعشة، سبَحتْ في الهواء حتى وصل أطراف موجها إلى قلبه، يهُزّهُ هزًّا. تمالكَ نفسه، وخطا دانيًا منها، ينصب في كل خطوة راية شوق. لن تبزغ الشمس الآن، لم يحن أوان الشروق بعدُ، لكنه سيحرص على أن يقول بصوته كلمات عادية جدًّا، بنبرة سِرِّية جدًّا، تَكشف الضجيج الصاخب في مجرى دمائه، تحمل الكثير من الوعود والأماني.

ستفهمها، وتحفظها في أبعد نقطة من قلبها، مثل لؤلؤة في قلب محَّارة، وحين يحين الأوان ستُطالبه بالوفاء. وسيُلبِّي بشوق.

- «غراب»!

انتفض كمن صعقته الكهرباء، من خلفه وقفت «دهب» التي خرجت من المصعد للتو تناديه باسمه! نظر إليها طويلًا، ذاهلًا، واجِمًا، ثم عاد لينظر إلى صاحبة الشال البُني، بفزع!

لم تفهم «دهب» الداعي الذي بعث بكل أمارات الصدمة على وجهه.

دنت منه تقول بدلال:

- كنتُ واثقة أنكَ لن تتركني وحدي.

الصدمة ما تزال تُطبق على أحشائه، وتُرسل نبضات ألم إلى جدار بطنه. هزَّ رأسه بقوة علَّه يستفيق. لمَّا أحسَّتْ «دهب» باضطرابه رمقتْ «شفق» بريبة كبيرة.

«شفق» التي جلست تتلقى أنواع غريبة من النظرات غير المفهومة نهضتْ ومرَّتْ بهما دون سلام، تطأ بأقدامها رايات شوق لم ترَها.

دخلت المصعد، ثم حملها إلى الأسفل، بينما عينا «غراب» تنظران إلى المقعد الذي فرغ محاولًا أن يستجمع شتات نفسه.

فلمَّا تكرر سؤال «دهب» عمَّا ألمَّ به، استعاد أخيرًا صوته الضائع وقال:

- لا شيء، كيف حالكِ؟ ماذا حدث بالضبط؟

أخبرته عن الحادثة، وما جَدَّ في أمر التحقيق، وعدم استطاعة الشرطة الوصول إلى الفاعل حتى الآن.

قال وقد استعاد بعضًا من رباطة جأشه:

- لا تقلقي، حتمًا سيصلون إليه، مثل هذه الحوادث لا تتكرر كثيرًا هنا، لا بد أن لديهم قائمة مُشتبه بهم لأصحاب مثل هذه السوابق.

ثم قال وهو يُشير صوب المصعد:

- هيا، لا داعي لبقائكِ هنا، سأظل قلقًا.

ضحكت وهي تقول مُتفكِّهة:

- يا لكَ من رجل عنيد! لن تبوح بمشاعركَ صراحة حتى إن وضعتُ سلاحًا فوق رأسك، أليس كذلك؟

لم يكن في مزاج رائق للمزاح، قال بهدوء:

- هيا يا «دهب».

ثم أضاف مُشفقًا:

- لا بد أنكِ تكرهين البقاء هنا.

قالت بالمرح نفسه:

- على العكس، البقاء هنا على الأقل سيعفيني من الذهاب إلى الشركة اليوم، البقاء هنا أفضل من السقوط في دوامة العمل.

جمَّدته كلماتها، دنا منها خطوة ينظر إليها متفحصًا، لم تره ينظر إليها بهذه الطريقة من قبل. فزعتْ إذ رأت عِرقًا نابضًا في رقبته التي تشنَّجتْ، برزَ الجرح في وجهه أكثر، بات باستطاعتها رؤية الخطوط التي يتكون منها. نفَرَت! فابتعدت خطوة إلى الخلف.

ما تزال عيناه الفاحصتان مُثبتتين عليها، تتسعان وتتحركان في دائرة عشوائية، وكأن مغناطيسًا قويًّا يجوب الكرة الأرضية بسرعة جنونية وعيناه

برادة حديد.

- أنتِ...

قالها بصوت غليظ، أفزعها كما أفزعها الجُرح.

ازدرد ريقه بصعوبة، فبرزت عروق رقبته أكثر. أردفَ:

- أنتِ لم تكذبي عليَّ، أليس كذلك؟

ازدردتْ ريقها بصعوبة هي الأخرى، عيناه تقبضان على عينيها بقوة ساحقة، لم تستطع أن تتفلّتْ من القيد. أردفَ بالغلظة نفسها:

- تلك الليلة، خلف الباب المُغلق...

لهثَ بعدها بأنفاس مسموعة، وكأنه بذل مجهودًا خرافيًّا لينطق بتلك الكلمات. بصوت مُتقطِّع يحمل كل وعيد الدُنيا قال:

- إذا كنتِ قد كذبتِ عليَّ ليلتها، سترين أمامكِ «غرابًا» آخر تمامًا.

استطاعتْ أن تعثر في نفسها على القوة الكافية لتقول هامسة بخوف:

- لم أكذب.

قلَّب وجهها بأنظاره باحثًا على أمارة للكذب، فلم يعثر على شيء سوى الفزع.

- أنتَ تُخيفني.

قالتها وانفجرت باكية. استفاق فجأة وكأن شخصًا آخر كان قد تلبَّسه، حاول الاعتذار منها واستسماحها.

خلعتْ خاتمها في حركة انفعالية وهي تهتف به:

- أنتَ لا تثق بي أبدًا، تتعمد أن تؤذيني، على الرغم من أنكَ وعدتَ أن تحميني من أذى الآخرين، لكن الأذى لا يأتيني إلا منكَ، سأنهي كل شيء بيننا وليذهب كل منا في طريقه.

تحرَّكتْ من أمامه صوب المصعد، لم تُفلح نداءاته في أن توقِفها عن الرحيل. بقيّ وحده واقفًا في الرواق يمسح وجهه ورأسه بكفَّيه بقوة، وكأنه يُزيل أثرًا التصق به ولا يزول. لم يطمئن لقلبه إلا لشيء واحد، أنه يعلم أنها لا تستطيع مفارقته، مثلما لا يستطيع مفارقتها، ستقبل اعتذاره وتعود، وفي المرة القادمة التي ترتدي فيها خاتمًا سيكون خاتمه، من حُر ماله، وبمباركة أهلها.

ربما قدَّر الله الأسباب لكي تخلع عنها خاتمًا زائفًا يضيق صدره كلما رآه في إصبعها، قدر الله كله خير، آمن بذلك، واطمأن به.

على باب المستشفى التقى بـ«عبقرينو»، استوقفه هذا الأخير يقول بفرحة طاغية:

- ريِّس «غراب»، كيف حالك؟ ألا تذكرني؟

ابتسم «غراب» يقول:

- كيف لا أذكركَ؟ «كيف حالكَ يا «عبقرينو»؟

أسعده كثيرًا تذكُره إياه، فمدَّ يده لتلتقي بيد «غراب» في سلامٍ حار وهو يقول فرحًا:

- لم نلتقِ سوى مرة واحدة لكنكَ حفظتَ اسمي.

اتسعت ابتسامة «غراب» وهو يُربِّت فوق كتفه ويقول بشكر كبير:

- كيف لا أذكر اسمكَ؟ بفضلكَ عثرتُ على «دهب»!

ثم حيَّاهُ وانصرف. انتفخ صدر «عبقرينو» زهوًا بصُنع يديه، وبقدراته العبقرية على جمع شتات المُحبين.

سار واضعًا يديه في جيبي بنطاله باسمًا، يُحرّك رأسه يُمنة ويُسرة في فخر عظيم، دون أن يكون لديه أدنى فكرة كيف فعل ما قاله «غراب»!

يدَّعون أنَّ ألْف وَجه للحقيقة
وعلى هذا جرَتْ الخَليقة
لا يعرفهم إنسٌ ولا جان
ولا داهية بالسَّليقة!
وأنَّ الحقَّ جسدٌ مقسوم
فوق ربوع الأرضِ منثور
لا يجمعه إنسٌ ولا جان
ولا ماهِر بالخريطة!
وأنَّ الظلم في النوع درجات
مهما أورَثَ الصدرَ من حسرات
أكثرها مغفور دون استتابة
لأن في البَشر طَبع الديابة!

لكنهم ما حاكوا إلا إثمًا
وما ادَّعوا إلا إفكًا
فالحقيقة نورُ شمسٍ لا تغيب
والحقُّ ميزانُ عدلٍ لا يحيد
والظلمُ شرٌّ وإنْ أقرَّتهُ النيابة!
الشمسُ لا بُدَّ وتَشرق
مِن مغربٍ أو مِن مَشرق
فإما فرصة لندم وتوبة
ورجوع للحق ولومة
أو حساب.. وصراط.. وقيامة!

المال رزق، الصحة رزق، البنون رزق، النجاح رزق، راحة البال رزق..
والحُب رزق!
فإذا كانت أرزاق البشر مقسومة في كتابٍ معلوم؛ لماذا يسعى
كل واحد منهم إلى نَهب ما في يد الآخر؟

(١)

لا يُقاس طول الليالي بوحدة الثواني والدقائق والساعات، بل يُقاس بوِحدة الهموم. كم من هم يحملُ المرء في صدره، وإلى أي عمق تصل أياديَ هذا الهم وتخمشه! كم قطرة حسرة ينزف! كم دقة قلب يرجف! كم آهة ألم يهمس!

كانت هذه الليلة طويلة جدًّا عليها، بطيئة وكأنها أخذت عند ربها عهدًا ألا تنتهي أبدًا، وألا تشرق شمس الصباح أمدًا.

جلست «دهب» في منتصف فراشها بغرفة الفندق، يهتز جسدها إلى الأمام في حركات رتيبة، أنظارها تائهة في عالم آخر تغيب إليه طويلًا، تصير فيه الظنون حقيقة.

نهضت فجأة وتوجهت صوب الدولاب، ومن بين طيَّات ملابسها أخرجت صورة، ومن أحد أدراجها أحضرت مقصًّا، ثم عادت إلى وضعيتها فوق الفراش، تثني رجليها وتتحرك بتؤدة إلى الأمام والخلف.

تتطلع إلى الصورة بعينين قويتين وكأنهما تنتميان إلى شخص آخر غير الشخص المرح الذي تُظهره دائمًا، جسدها المنكمش الذي تُحركه نفخات الريح بحرية هو وعاء لروح قلقة مختبئة بداخله.

أمسكت بالمقص وطفقت ببطء شديد تفصل الفتاتين في الصورة عن بعضهما بعضًا، وكأنها جرَّاح ماهر تم استدعاؤه لإجراء جراحة دقيقة لفصل ورم خبيث عن جسد مريض هو أحب إليه من نفسه.
يتحرك المقص مُنحنيًا صعودًا ونزولًا وكأنه إن أخطأ في رسم الحدود الفاصلة بين الورم والجسد سيصيح الجسد متألمًا بصرخة لا تُحتمل.
انتهت الجراحة بنجاح، فأمسكت الورم المتمثل في وجه نرجس بيد، ووجه أختها في أخرى. عاد بريق الراحة يجتاح عينيها، ومسحت عن جبينها عرق الجهد، ثم رفعت رأسها بفخر بعد الانتهاء من هذه المهمة الجليلة.

تركت أختها فوق الفراش ثم أمسكت بالورم الخبيث بأطراف أصابعها، تشمئز منه، قالت له: سأنقذها منكِ يا «نرجس»، لن أسمح لكِ أن تؤذيها.

ثم أمسكت بعود ثقاب وحرقت أطراف الورم الخبيث، تلذذت برؤيته يحترق أمام عينيها، وعندما طالت النيران أصابعها تركت الورم يسقط فوق الفراش. ألسنة اللهب المتصاعدة انعكست في بريق عينيها، بدت النار وكأنها تشتعل من مقلتيها لا من نصف الصورة.

تاهت نظراتها بين ألسنة النيران، ألوانها الباهرة، وتفاصيلها الجشعة، وقدرتها على أكل كل شيء في جوفها وكأنها لا تشبع أبدًا، لم تفق إلا عندما امتدت ألسنة النيران إلى أطراف منامتها وقضمت منها قضمة كبيرة.

بسرعة خاطفة أمسكت بوسادتها وطفقت تنهار بها على ألسنة النيران تجتزها جزًّا. تسارعت أنفاسها وهي تنظر إلى الفراش المحترق، والحرق الصغير الذي تركته النيران ذكرى فوق قدمها قبل أن تهرب منها وتعود إلى الجحيم الذي لا تنطفئ فيه النيران أبدًا.

لكل طريق مُفترق، وها هو قد وصل إليه دون رغبة، مدفوعًا بُعرف القبيلة وتقاليدها، بكلام الكبار الذي يقوم مقام السيف على الرقاب.

وقف «بحر» أمام البحر الهائج وكأنه يتطلَّع إلى نفسه في مرآة، وشمس الغروب تلُّوح له من أعالي الأُفُق. في غروبها حُزن لامس وجدانه، وفي لون الشفق الناري من حولها بشائر ثورة ألهبتْ حماسته، أم تُراه هو من أسبغ عليها من فيح قلبه ولهيب أركانه؟

أمسك بحجر، وبكل غضب ألقى به إلى أبعد نقطة ممكنة، غاص الحجر في البحر، وقبل الغوص أزعج طبقات السطح المتماسكة، فرَّقها وشتتها للحظات، قبل أن تعود لتتماسك مرة أخرى.

وهذا هو ما يفعله بثورته في وجه «عين»، وبما قاله لأبيها في مجلسه، وبما باح به لأمه في غرفته؛ يحاول أن يزعزع راحة الجميع قبل أن تعود ذرات الحياة لتستقيم مرة أخرى.

لو رفضته «عين» ستنتهي المعركة قبل أن تبدأ، رفضها سيحفظ عليها كرامتها، وسيصون سيرتها بين أهل القبيلة؛ لن يُعيِّرها أحد بأنها الفتاة التي لفظها ابن عمها ورفض الزواج بها، بل سيكون هو الشخص الملفوظ..

وعلى الرغم من أن كرامته كرجل لا تحتمل أمرًا كهذا، فإنه يرتضيه لنفسه كي يلقم الأفواه حجرًا يُخرسها، فلا يلوك أحدهم سيرتها، ولا يتندَّرون بضعفها وقلة حيلتها. ستحلو في أعين شباب القبيلة، وبخاصة من يتساوون معه أو يقلون عنه في السن والمكانة، سيتسارعون لنيل الفتاة التي رفضت «بحر» ابن شيخ قبيلتهم.

فقط لو امتلكتْ بعض الجسارة والإقدام، وقوة على تحمل عاصفة أبيها، وزوبعة إخوانها، بعد حين ستهدأ العاصفة وستكون وحدها هي الفائزة، وسينجو هو من التقاليد العتيدة. لكنها أضعف من ورقة خريف في مواجهة نفخة هواء.

انحنى أرضًا، هذه المرة لم يلتقط حجرًا، بل حفنة رمال، لطالما وطأها في جده ولعبه، حزنه وفرحه، قلقه وسَكينته، كيف يتخلى سيد الرمال عن موطن أجداده، وأصول نسبه، وأقرباء الدم، وأصدقاء الوِد؟

كيف يتخلى عن تجارته التي كبَّرها بالعرق، وعن جِماله التي رعاها بالحب، وعن رجال القبيلة الذين يتطلعون إليه كخليفة لأبيه؟

إنه ألم كانتزاع الروح من الجسد وقت احتضاره، شعور مُميت غير محتمل.

انحنى بجسده، يمسك ركبته بكفيه، وبصوت جهوري يخترق الحُجُب أطلق صيحة آهٍ عالية، حسِبَ أنها أفزعت السمك في بطن البحر، واقتلعتْ الأعشاب المرجانية من مغرسها، ورجَّتْ البحر رجًّا.

سيتزوج «عينًا»!

سيضع أحلامه تحت نصل العُرف والتقاليد وهو الذي يبغض الخضوع

للآخرين، سيرضخ لأن الخيار الآخر يعني جفاف رحيق الحياة من جسده، الخيار الآخر يعني الموت نفيًا، أما الزواج بـ «عين» فمُحتمل، قابل للتعايش معه مثل تشوُّه يُصيب الجسد، أو بتر يحدث لأحد أطرافه، أو مرض شرس يجتث جزءًا من أحشائه، أو قولون عصبي يُقلق راحته.

الزواج بـ «عين» أخف وطأة من الموت، ويستطيع العيش معه، تمامًا كالمرض!

أمسك بحجر آخر، وألقاه في قلب البحر بقوة أكبر من الأولى، ثم التفتَ عائدًا إلى جماله، يتخير أكبرها حجمًا، وأسمنها لحمًا، ويأمر بتجهيز العُدة لذبحها، وصنع وليمة كبيرة من مرقها ولحمها، يُطعم بها كل رجال القبيلة ونسائها، شيوخها وأطفالها، أبنائها وعابري سبيلها؛ صدقة يتقرَّب بها إلى الله.

عساه يرفع عنه البلاء، ويصرف عنه بواعِث المرض!

في الصباح ارتدى «بحر» أبهى ثيابه، وتعطَّر بـ «دهن العود»، ثم قاد سيارته ومن خلفه تبعته ثلاث سيارات مُحملة بالرجال إلى أرض «السخاوية»، يُعيد حقه المسلوب على مرأى من شيخهم وكبراء رجالهم.

كما توقع، وجد الجميع في انتظاره، وجوههم كالحة من الضيق. ترجَّل هو من سيارته منتفخ الصدر، يتقدم بُخطى حثيثة إلى حيث يقف شيخ «السخاوية» ومن حوله بعض رجال.

نظر عن يساره فرأى «جبارًا» يتطلَّع إليه بحقد دفين، باحت به عيناه الحمراوان من أثر الأرق، وهل بإمكانه النوم بعدما انتصر عليه «بحر» وألزمه برد الجمال؟ وفوق كل ذلك غضب شيخ «السخاوية» منه إلى الحد الذي منعه من التدخل في أي شأن من شؤون القبيلة، ثم أرغمه على حضور لحظة تسليم العشرة جمال إلى «بحر».

وقف وكأن قدميه تطآن جمرًا مُلتهبًا لا سبيل لإطفائه، بصوت رخيم ويد ممدودة إلى شيخهم قال «بحر» وهو يتطلع إلى جماله الواقفة جنبًا إلى جنب في انتظار ردَّها إليه:

- سلام الله عليكم، بوركتَ لأنك لم تخلف الموعد يا شيخ.

أمسك الشيخ بيده الممدودة، رفع رأسه يقول بإباء:

- «السخاوية» لا تنحني لهم كلمة يا «بحر».

هزَّ «بحر» رأسهُ بتهذيب ألزمه به كِبَر سِن الشيخ ومقامه، لكنه لم يستطع أن يمنع بسمة صغيرة تجمعت وتكونت على طرف شفتيه وهو يتطلع إلى «جبار» ويقول:

- لم أتصور أن تُسلمني حقي بنفسكَ يا «جبار»، هل أنت بخير؟

وقبل أن يفتح «جبار» فمه مغتاظًا، مُلقيه صوبه بردٍّ غاضب، أردف «بحر» بسرعة وهو يعود بعينه إلى الشيخ:

- لكن بالطبع هذا تصرف آصيل يليق بمقام شيخ «السخاوية».

تقدم «جبار» صوبه بخطوة، إلا أن نظرة واحدة من شيخ «السخاوية» جعلته يتذكر تهديده إياه بالطرد من القبيلة إن أتى اليوم بشيء من شأنه أن يُزعج «بحرًا» أو يندي بجبين اسم «السخاوية» بأكثر مما فعل. فرجع خائب الخطة التي وطأها، وصدره يغلي من الغيظ.

تقدم «بحر» صوب جماله يتحسس شعرها الذهبي الذي يضوي تحت ضوء الشمس، ويداعب رأسها، ثم أخرج خاتمه الذي يحوي اسمه، وأدنى منه أحد رجاله الأصباغ. يغمس الخاتم في الصبغة ثم يختم بها أعلى نقطة من سنم الجمال، واحدًا تلو آخر، ومع كل مرة يتبدَّى اسم «بحر» فوق السنم كان يتطلع إلى عيني «جبار» بقوة.

كادت يداه تتفلَّتان من جسده وتُطبق على عنق «بحر» تخنقانه حتى شهقة الموت الأخيرة.

ذكَّرته الأصباغ الحمراء بدماء «مُسفر» التي تحنَّتْ بها يداه يوم أن حمله ميتًا، بقلبٍ مفطور وعاد به إلى القبيلة، ثم خرج للبحث عن «جبار» من أجل القصاص.

الصلح ودفع الديَّة وأخذ «عِيدة» غرة منعوه من أخذ حق الدم، لكن قلبه لم يبرد قط. لم يتوقف عن الحقد على «جبار» يومًا واحدًا. ليس بسماحة أمه ليغفر لهذا القاتل فِعلته، وليس بحكمة أبيه ليتظاهر بالنسيان من أجل مصالح القبيلة.

سيظل البغض في قلبه حتى قيام الساعة تجاه هذا القاتل الأثيم الذي سرق منه روح أخيه الذي يحبه.

لذلك فرؤيته ذليلًا أمام قبيلته الآن أبهج نفسه، وأذهب بعض غيظه.

قاد الرجال الجمال، فيما ركب هو سيارته، وانطلق بها إلى بيت «طحنون».. ليسترد ما تبقَّى له من حقوق.

عاد «جبار» إلى بيته يكسر ويُهشم ويُمزق كل ما تطأه يداه من الأغراض. تنامى بداخله غضب عظيم أجج حقده على «السوارفة».

أولًا أخته التي أُخِذت منه عنوة وصارت زوجة لأحد رجالهم، ثم «بحر» الذي أذهَب بكل قوته وهيبته وجعله صغيرًا في قبيلته، ذليلًا بين أعزَّتها، كل كلمة ونظرة وحركة وسكنة لـ «بحر» كانت تحفر عميقًا بئر الغضب في صدره، حتى تبدَّى ماؤها وتكشَّف.

جلس على الفراش يخور مثل ثور أهاجه اللون الأحمر للأصباغ التي حنَّى بها «بحر» سنام جماله، يحثو من بئر الغضب ملء كفيه، ويشرب ماءً كالمُهل يشوي البطون، ويحرق الأكباد، ينخَر نخاع العقول، فأصابته لوثَة الغضب.

أخرج من جيبه سكينًا صغيرًا، كشف عن ذراع غليظة، ثم أحدَث بها جرحًا طوليًّا داميًا. وقف أمام المرآة وحنَّى جبينه بدمائه، ثم أقسم لنفسه بصوتٍ كالفحيح:

- وحياة حلابات الحيب، لن يلتئم هذا الجرح حتى آكون قد استرددتُ «عِيدة»، وفضحت سِر «مُسفر» ونجَّستُ سيرته أمام القبائل كلها كما فضحني أخوه اليوم على رؤوس الأشهاد.

ثم لعق ما ينِز من جُرحه وهو يقول بلسان دامٍ:

- ثم أحنِّي يديَّ بدماء «بحر» كما حنَّيتهما بدماء أخيه.

دنا «بحر» من بيت «طحنون» الذي وصفه له أحد الرجال، طرق الباب مرة، ثم مرة، وفي الثالثة فتحت الباب امرأة كبيرة توجَّستْ منه خيفة.

أطرق برأسه ووقف مُبتعدًا عن باب البيت كي لا تجرح نظراته أغراض البيت وأصحابه، ثم سألها:

- هل «طحنون» بالبيت؟

أعملَتْ المرأة أنظارها في وجهه، والسيارة التي ترجَّل منها ولم تجبه بشيء، فأعاد سؤاله بحزم أكبر، أجابت المرأة سؤاله بسؤال فخرج صوتها يهتز من الخوف:

- ومن تكون؟

- أنا «بحر» بن «السوارفة».

ولم يكن بحاجة لأن يُفصح عن اسمه، عرفت المرأة هويته منذ أن وقعت عيناها عليه، ومن غيره بوجاهته سيأتي إلى بيتها طلبًا لزوجها «طحنون» بعدما نبذه كل رجال القبيلة؟

حتى إن النساء يُقابلنها في السوق فيرمقنها بنظرات تهدر كرامتها على الطرقات طوال الطريق إلى البيت؛ لا كرامة لرجل كاذب ولا لزوجته وابنته.

الآن ستحل برأسها مصيبة العمر، ستُطرد من بيتها وتُشرَّد وابنتها بسبب رعونة زوجها وما أتاه من فعل منكر. لمَّا قابل «بحر» منها صمتًا لم يستطع فهمه أعاد سؤاله، فأجابت وهي تطرق برأسها وتخفي وجهها بغطاء رأسها:

- ليس بالبيت.

كاد أن يتهمها بالكذب، وأنها تتستر على زوجها كي لا يرد إليه حق الكذب الذي أقرَّ به «المُبشِّع»، لكنه لا يملك دليلًا على كذبها، سوى حدس حاكهُ صدره.

هز رأسه ثم قال بحزم وهو يدور على أعاقبه:

- أخبريه أنني سآتي غدًا في نفس الموعد.

غلقت المرأة الباب، وكشفت عن وجه غسلته عبرات الحسرة، وقفت أمام إحدى الغرف تُغالب غصة وقفت في منتصف حلقها وهي تقول:

- رحل.

خرج «طحنون» من الغرفة بحذر، يسترق النظر صوب الباب المغلق وكأنه

لا يثق في كلمة امرآته التي كذبت للتو، حتى وإن كان من آجل إنقاذه، فالكاذب لا يؤتمن أبدًا!

جلست في الأرض تبكي وتنوح، فأقبل عليها «طحنون» بغضب يضرب رأسها ويقول:

- كفاكِ يا امرأة، لم ينقطع نواحكِ منذ أن عدنا من تلك الجلسة المشؤومة.

- ماذا سنفعل يا «طحنون»؟

جلس متباعدًا عنها وهو يُخرج من علبة سجائره سيجارًا أخيرًا يُشعله وينفث دخانه، فيتشكل من الدخان دوامات تتصاعد إلى سقف البيت، تمامًا كالدوامات الضبابية التي تتصاعد بداخله.

الدين الذي في رقبته لـ «بحر» سيجهز على كل ما يملك، ولن يستطيع من بعدها التجارة في الإبل والأغنام، ولن يقبل أحد أن يبيعه شيئًا أو يشتري منه، لا يكفي أنه صار منبوذًا بين قومه، سيصبح مُفلسًا كذلك.

عليه أن يجد حلًّا لهذه الورطة قبل أن يعود «بحر» في الغد مُطالبًا بحقه.

---

(٣)

وقف «غراب» في شرفة بيته يتأمل النجمات في سكون الليل، لأشد ما كان يبهجه شكلها وهي منثورة فوق ثوب السماء الأسود، لكن شيئًا ما بداخله الليلة أطفأ حماسته بمرأى النجمات فعزف عنها، ومال برأسه صوب الأرض والتراب.

الشارع الساكن في هذا الوقت من الليل يدفع العقل إلى خوض سباقات الفكر بحُرية، وفي عقله تتسابق الأفكار وتتلاحق حتى تجاوزت مضمارها وخرجت عن طور حساباته الدقيقة. الخطأ الرهيب الذي وقع فيه هذا الصباح في المستشفى كان من النوع الذي لا يُغتفر، أما كان عليه أن يدرك أن الجالسة أمامه على المقعد كانت أختها؟ كيف أخطأ إلى هذا الحد؟

بل كيف تمادى في الخطأ وتهجَّم على «دهب» وشكك فيها بهذا الشكل؟ أخافها وروَّع أمنها.

وجنبًا إلى جنب هذه الفكرة سابقتها فكرة أخرى أكثر رعونة، كادت تهزم كل أفكاره فوق أرض المضمار، فكرة خبيثة لا يعرف منبتها، شرسة لا تعرف الرحمة، تصطدم بكل ما يعرفه من حقائق وتُحولها إلى أكاذيب صغيرة، تتجمع لتشكل كذبة كبيرة قبيحة مثل قنبلة تُدمر كل ما حولها، فكرة بدأت بشك صغير، هل يصح التسليم لشكوك النفس ووساوسها؟

حرَّك رأسه بقوة كي يطرد الفكرة الشرسة من رأسه، ما يتحدث عنه هنا أختان، فتاتان بينهما رابطة دم، وهو خير من يعرف معنى رابطة الدم، ليس هذا فحسب، بل توأم، بينهما رابطة قلب أقوى من أي رابطة في العالم.

مهما بلغ بإحداهما الحقد لتؤذي الأخرى، فلن يزيد ذلك عن إحداث جروح صغيرة يُمكن تداركها وتلافيها، لكن ما تقوده إليه هذه الفكرة الخبيثة بشع للغاية، يعجز عقله عن استيعابه، ثم لديه من الدلائل والقرائن ما ينسف منطق هذه الفكرة من جذورها.

«دهب» هي التي أوصله إليها «عبقرينو»، «دهب» هي التي بمجرد أن قابلها ثانية وقال لها «عثرتُ عليكِ يا حافية القدمين» فهمت مُراده في الحال.

والأهم، «دهب» هي التي كانت موجودة في العريش وقتها، وليس أختها!

لم يرَ أختها في العريش قط إلا عندما اصطدم بسيارتها على الطريق.

ثم إن أختها مخطوبة، والفتاة التي التقى بها تلك الليلة وراء الباب المغلق لم يكن في حياتها أحد.

لو رأى الفتاة تلك الليلة لما نبت هذا الشك الخبيث في رأسه وتحول إلى فكرة قبيحة تُعكر صفو أفكاره، لكنه لم يرَ طرفها؛ حجبها عنه الباب المغلق، فلم يرَ أي منهما الآخر.

حتى صوتها لا يستطيع أن يُعوِّل عليه كثيرًا، ما مرَّتْ به من أزمة تنفسية، ونوبة بكاء وهلع جعلها تُجاهد بصعوبة للتحدث، حتى إنه في بعض الأحيان كان يلصق أذنه بالباب بقوة ليتمكن من سماعها.

حرَّك رأسه بقوة ثانية، وهذه المرة استطاع آن يطرد الفكرة خارج المضمار، هشمها كما تتهشم السيارات التي تحيد عن الطريق وترتطم بالجدار.

انتفض بغتة عندما وقعت أنظاره على سيارة «دهب» وهي تتوقف أسفل بيته، همس بحدة: ماذا تفعل هنا؟

ارتدى معطفه سريعًا، وهجم على درجات السلم في قفزات واسعة، وعندما ترجّلتْ من سيارتها كان هو أمام البوابة ينظر إليها مستنكرًا. تقدمت وعلى شفتيها ابتسامة وهي تقول:

- لم أستطع النوم بينما نحن متخاصمان.

ثم أضافت وهي ترفع يُمناها أمام ناظريه:

- ارتديتُ الخاتم مرة أخرى.

هذه الحركات غير المحسوبة، والقفزات غير المدروسة هي بذور الشك في نفسه، هل أخطأ إلى هذا الحد عندما قيَّم شخصية الفتاة التي التقاها وراء الباب المغلق؟

هل أخطأ في فهمها؟ أيكون هو أساس المشكلة؟

كان دومًا يثق بقدرته في الحكم على الآخرين، في فهم دوافعهم، ورؤية دواخلهم، هل صار أعمى إلى هذه الدرجة؟ هل نزع الله عنه نعمة البصيرة؟

الانزعاج الذي طغى على قسمات وجهه بدد ابتسامتها وشتت بهجتها. تحرَّكتْ خطوة إلى الأمام وسألته بلهفة:

- ألم تعد تريدني؟

وقف وكأنه تمثال قُدَّ من شمع، ظاهره جامد، قاسٍ، وفي باطنه عاصفة تدور ولا تهدأ، أعجزته عن الإتيان بكلمة، استجمع شتات نفسه، ونبرات صوته بشق الأنفس ثم قال:

- اذهبي الآن؛ لا يصح قدومكِ إلى هنا.

بغتة، تركت حقيبتها تسقط أرضًا، ووضعت كفَّيها فوق صدرها، تعالَى صوت تنفسها، شهيقه وزفيره، بدا وكأنها تختنق.

ارتعدت أوصاله وأقبل عليها لا يدري ماذا يصنع. تنفسها يضطرب، تجاهد دون جدوى لحث المزيد من الأكسجين على الدخول إلى صدرها.

بسرعة فتح باب سيارتها وقادها إلى المقعد، ثم أمسك بحقيبتها التي سقطت، أفرغ محتوياتها أرضًا، باحثًا بين أغراضها ثم سألها بلوعة:

- أين دواؤك يا «دهب»؟

أسندت رأسها إلى ظهر المقعد ولم تجبه، هجم على درجات السلم قفزًا، أحضر مفتاح سيارته ثم عاد ليفتح صندوقها الخلفي، يبحث فيه بلهفة المفزوع وهو يدعو الله أن يعثر على ضالته. وأخيرًا أمسك ببخاخ النَفس وعاد إليها يقربه من فمها، ما إن أحست به حتى فتحت عينيها ولفظته سريعًا فطمأنها:

- هذا لكِ.

نظرت إليه بشك، وبدا وكأن الأزمة قد هدأت بغتة، لحظات ثم عاد صوت حشرجة نفسها مسموعًا، أخذت منه البخاخ بتردد، نظرت إليه فوجدت أطراف المُلصق مُلطخة بطلاء أظافر أحمر اللون، فذبل وجهها في الحال.

نظر إليها فشعر وكأنها ستفقد الوعي. سألها بلهفة:

- هل أنتِ بخير؟ هل نذهب إلى المستشفى؟

قبضت على البخاخ بقوة وهي تسأله بكلمات مُبعثرة:

- مِن أين.. أتيتَ به؟

فاجأه سؤالها، كرر توضيحه وهو ينحني أرضًا ليجمع أغراضها في حقيبتها:

- هو لكِ.

لم تضعه في فمها، سارعت بقول:

- ربما فسد، لن آخذه، ثم إنني أصبحتُ بخير الآن.

التقط مفتاح سيارتها وجلس أمام المقود وانطلق بها إلى المستشفى على الرغم من اعتراضها. أصر على أن تفحصها الطبيبة المناوبة ليطمئن روعه.

وعندما دخلت غرفة الفحص أغلقت الباب وبقي هو في الخارج ينهشه القلق، ماذا لو مرَّتْ بأزمة أخرى ولم يكن الدواء في حوزته؟

أو كانت بمفردها في مكان ما يبعد عن العمران مثل أختها، حينما مرَّتْ بالأزمة نفسها على الطريق؟ وعندما حاول أن يحضر لها البخاخ من حقيبة سيارته؛ ضربه خاطبها فوق رأسه وأفقده الوعي.

دون أن يعبأ باعتراض «دهب» الذي سيلاقيه منها حال معرفتها بما فعل، أمسك بهاتفه وطلب رقم أبيها في الحال، ما إن أتاه الرد حتى سارع «غراب» بقول:

- أعرف أنه ليس من حقي بعدُ التدخل في شؤونكم، لكن ابنتكَ مريضة جدًّا، تعرضتْ لأزمة تنفسية منذ قليل.

أتاه صوت أبيها وقد اكتست نبراته بالقلق وهو يقول دون أن يعرف هوية المتصل:

- وهل هي بخير الآن؟

جاهد «غراب» كي يمسك عليه لسانه فلا يُعنِّف الرجل على إهماله وسوء رعايته لرعيته. قال:

- هي في المستشفى الآن، حتى وإن مرَّتْ الأزمة على خير فلا يصح بقاؤها في هذا البلد بمفردها، تعال وخذ «دهب» وأعدها إلى بيتك، وتحت رعايتك.

فراقها وإن كان صعبًا عليه، لكنه محتمل أمام مخاطر تعرضها لأزمة أخرى وهي بمفردها، يُمكنه تحمُّل الفراق حتى يوم التلاقي، يوم يكون قد أثبتَ

براءته، ووقف أمام أبيها مرة أخرى مرفوع الرأس، مطالبًا بها رفيقة درب، وقَرة عين، نصف يُكمل نصفه المنقوص.

- من أنت؟!

هتف بها «منصور النمر» مستنكرًا، تردد «غراب» قليلًا في الإفصاح عن هويته مخافة أن يصُب الرجل جام غضبه على «دهب»، لكنه رجل يرى أن أقصر طريق بين نقطتين هو طريق الاستقامة، لذلك قال:

- أنا «غراب السيناوي».

طال صمت الرجل حتى ظن «غراب» أنه أنهى المكالمة، ثم قال قبل أن يقطع الطريق عليه للرد:

- لا شأن لكَ بـ«دهب».

هكذا قال ولم يزد، نظر «غراب» إلى هاتفه بغيظ، أي نوع من الآباء هذا الرجل؟ هل يتصل بأختها؟ كيف وهو لا يعرف رقمها؟ لا يحق له العبث في هاتف «دهب» الذي يقبع في حقيبتها بالمقعد الخلفي للسيارة. هل يطلبه منها إذَن؟

انفتح باب غرفة الفحص ليقطع عليه أفكاره، خرجت «دهب» مبتسمة تُطمئنه على صحتها، وعندما اقترح أن تتصل بأختها لتأخذها من المستشفى اندفعتْ قائلة بانزعاج:

- لا أحب أن أقلقها.

- لكنها يجب أن تقلق، أنتما تعانيان المرض نفسه، كيف لا تطمئن عليكِ باتصال هاتفي على الأقل كل فترة كما تفعلين معها؟

هدأت نبرتها وهي تطرق برأسها أرضًا وتقول بحزن:

- لا أحب أن أكون ثقيلة على أحد.

لم يشأ أن يثقل عليها بحوار يزعجها، فبتره دون تتمة. قاد سيارتها ليعيدها إلى الفندق، وفي الطريق طالبها أن تُعيد له البخاخ فقالت بغنج:

- لم أعرف أنكَ احتفظتَ به سرًّا.

ثم هزَّتْ كتفيها وقالت مشاكسة:

- لن أعطيه لكَ، أضعته يوم التقينا أول مرة والآن عاد إليَّ.

ظنَّتْ أنه تقبل التخلي عن البخاخ، وحين أوقف السيارة ونزلت منها وفتحت المقعد الخلفي لتأخذ حقيبة يدها كان هو أسرع منها إليها، فتحها وأخذ البخاخ.

وقف أمامها يعطيها مفتاح السيارة والحقيبة فهتفت مستنكرة وهي تبسط كفها:

- أعد العلبة إليَّ.

بنبرة لا تقل عن المجادلة قال وهو يقبض عليه بقوة:

- أبدًا.

حاولت الاحتفاظ بنبرتها الممازِحة:

- إنها لي.

- صارتْ لي.

احتضن العلبة بكفه وكأنه يعانق ذكرى لقائهما الأول، هناك عندما فتَّش عنها خلف الباب المغلق لم يعثر لها على أثر، سوى علبة الدواء التي كانت مُلقاة بعيدة عن مرمى يديها؛ أخذها واحتفظ بها حتى اللحظة.

ودَّعها وانصرف.

وقفت تراقبه قليلًا بغيظ، وما إن دخلت رواق الفندق حتى خلعت حجابها، تُفكر في الطريقة التي ستستعيد بها البخاخ المُلطَّخ بطلاء الأظافر الأحمر، دليل الإدانة الذي لم تحسَب حسابه قط.

لو رأته «شفق» ستفهم كل شيء، كل شيء!

---

(٤)

ليلة غد سيأتي «بحر» إلى بيتها ليطلبها من أبيها. وقفت نساء العائلة بفرحة طاغية يُعْدِدن الطعام وتُصنَع الحلوى احتفالًا بمناسبة لطالما انتظرنها طويلًا. انزوت في غرفتها بعدما غلّقتْ الباب بإحكام، تسكب فوق وسادتها عبرات القهر، وتلفحها بآهات الحسرة.

لو علمن أنه يراها رُبع امرأة لتبددت ضحكاتهن ولتوقفن عن المزاح الذي يعبر من المطبخ إلى مخدعها، يقلق راحتها، ويُذكرها بحديثه القاسي، ووعيده السافر بالزواج بثلاث بعدها.

ودَّتْ لو خرجت على أهلها وتعلن أنها لا ترغب به كما قال بصفاقة أنه لا يرغب بها، ودَّتْ لو امتلكت رُبع جسارته، فقط رُبعها، لكنها فتاة تربَّتْ وسط بركة راكدة من الأحداث، فلم تعتَد السباحة ضد التيار، ولا تعرف كيف تُواجَه الأعاصير.

كل هذه الضغوطات أكبر من مقاسها، وكأنها تحاول قسرًا ارتداء فستانٍ يصغرها، كلما حاولت أكثر؛ تمزَّق قماشه، وتبعثرتْ زينته، حتى لم يبق لها في النهاية سوى قطع بالية.

هل يُمكن حياكة زواج ناجح من بقايا أحلام ممزقة؟

لكن البديل أصعب، حياة وحيدة، قاسية، بلا زوج، ولا أطفال، كيف تُبدل فطرتها التي جُبِلَتْ عليها لسنوات طوال؟ كيف تستطيع أن تكون شيئًا آخر غير زوجة «بحر»؟

ثم ألم تقل أمها دومًا إن الحياة مليئة بالمعجزات؟

لماذا لا يكون زواجها بـ «بحر» واحدة من تلك المعجزات؟

فينسى وعيده ويكتفي بها، تصير في عينيه نصفًا، ثم ثلاثة أرباع، ثم امرأة كاملة. أليس الله بقادر على أن يجعلها قرة عينه فلا يرى غيرها؟

لماذا لا تجلس مكانها وتمسح عبراتها وتنتظر حدوث معجزة؟

لكن أي معجزة وهي قد عصيت الله بأكثر ما يبغضه من المعاصي، ألا وهو الذبح لغيره؟ وافقت «عِيدة» في فكرة ذبح الجدي للبحر، كي ينعم عليها بتحقيق رغبتها وهي التي تعلم أن المانع والمعطي هو الله، وما عند الله لا يُنال بمعصيته أبدًا.

أي ذنب هذا الذي أوقعها طموحها في شباكه؟

بكت، لكن هذه المرة ندمًا، طلبت من الله عفوه ومغفرته. وقفتْ بين يدي الله تسأله أن يفرج ما حاق بها من كرب، ويغفر ما ألمَّ بها من ذنب.

نزل الغيث. سمعت قطرات الماء وهي تطرق النافذة، مدَّت كفيها وأخذت تغسلهما بالماء المُنهمر. ودَّتْ لو تساقط الماء على قلبها فيغسله من الحُزن، وعلى عقلها فيغسله من وساوس الفِكر.

ضمَّتْ كفَّيها بخشوع، وابتهلت إلى الله برجاء:

- يا رب، إنكَ لا يُعجزكَ شيء في الأرض ولا في السماء، أفِض عليَّ من

خزائن رحمتكَ، وارزق عبدتكَ الضعيفة «عين» بمُعجزة.

دعته بيقين العابد، وبإذلال التائب، وبخشوع العائد إلى ربه. غلبَ يقينها حسابات المنطق، وغلبت براءَتها تفاصيل مُرهقة للعقل، فأخرجتْ من خزانة ملابسها خيطًا صوفيًّا بلون وردي، وأمسكت إبرتها بأنامل مرتجفة حساسة، تحوك العقدة الأولى من ثوب صغير سترتديه عمًّا قريب طفلتها الأولى!

انفتح باب غرفتها بغتة، وبشَّرتها أمها بوجه رائق:

- وجهكِ حلو على بيت عمكِ؛ سلفتكِ «عِيدة» ستلد الآن.

هتفت «عين»بحماسة:

- صبي أم فتاة؟

هزَّتْ أمها كتفيها وهي تقول:

- وما أدراني؟ لم تلد بعد.

التفتتْ «عين» إلى السماء المُمطرة توشك على أن تدعو لـ «عِيدة» بالصبي كما أرادت؛ ترددتْ. وكادت أن تدعو لها بالبنت كي لا تُغادر أرض «السوارفة» فيحزنها فراقها، ثم توقفت عن هذا وذاك.

ابتهلتْ إلى الله بدعاء آخر:

- اللهم أنتَ تعلم ولا نعلم.. إن كان الولد خيرًا فارزقها به، وإن كانت البنت خيرًا فارزقها بها، لا يعلم دروب الخير إلَّاكَ.

جاءها المخاض ظهرًا بينما تعجن الخبز وتحمي الفرن، طرقت صياحها أبواب الجيران فتجمع النساء في بيتها، وبحث الرجال عن زوجها حتى أبلغوه بأن «عِيدة» أوشكَتْ أن تضع حملها.

طفلته قادمة إلى الحياة، سيصير أبًا، سيضم قطعة منه إلى قلبه، يبثها حبًّا لم يبثه أب لابنته، ستكون سيدة قلب أبيها وتاج رأسه.

أمر الشيخ بتجهيز السيارة ورافق ابنه وزوجة ابنه إلى المستشفى، ومن خلف السيارة أخرى تقل أم «ذيل» وثلاثة من أبنائها، تدعو الله طوال الطريق أن يُقدِّر الخير، ويُرضي به قلب ولدها.

ظلَّ «حَمَد» قابضًا على كف «عِيدة»، يهمس في أذنها بكلمات المواساة، فتهتف في نفسها باللعنات، عليه، وعلى حملها، وعلى حظها، وعلى الألم القاتل الذي تُعانيه الآن.

تتجعَّد قسماته ألمًا كلما صرخت، يستغفر همسًا كلما عضَّت كفه بأسنانها تاركة آثارًا دامية. أصر على ألا يفحصها إلا طبيبة.

أتت الطبيبة وعاينتها، ثم أمرت بحجزها في إحدى الغرف.

الجنين قد ضاق ذرعًا بمحبسه، يركل ويتخبط كي يخرج من ظلمة الرحم إلى نور الدنيا، يحسَب أنه سيخرج من ضِيقٍ إلى براح واسع، ولا يدري أن ضيق الرحم أوسع من براح الدنيا ولو عارَض ذلك كل قوانين المساحات.

---

(٥)

ما زالتْ تذكر النظرات الغريبة التي رمقها بها «غراب» بالأمس، نظرات فزعة وكأنه رأى أمامه عفريتًا من الجن. وما زاد الأمر غرابة الطريقة التي تطلع بها إلى «دهب»، وكأن بينهما سِرًّا يخافان من أن يتكشَّف أمامها.

كلما حاولت صرف تفكيرها عن الأمر؛ زادت قبضته على عقلها. أي سِر يخفيان عنها يا تُرى؟

صلَّتْ الظهر ثم عادتْ إلى غرفة «نرجس» في المستشفى، فبادرتها:

- «شفق»، أنتِ تعبتِ كثيرًا، أمضيتِ ليلتين معي، أرجوكِ اذهبي إلى الفندق لترتاحي قليلًا.

- أي راحة يا «نرجس»؟ يجب أن أذهب إلى العمل.

- كلفي به أحدًا غيركِ.

- هذا العمل بالذات لن يستطيع سواي القيام به.

رمقتها «نرجس» متسائلة، فربتت «شفق» كتفها وقالت:

- لن أصدع رأسكِ بتفاصيل العمل الآن، سأقص عليكِ كل شيء عندما أزوركِ في المساء.

لم تتركها «شفق» إلا عندما حضرت أم «نرجس» للعناية بها. لم تخبر «نرجس» أحدًا عما رأته تلك الليلة، وعن التصرف الغريب الذي قامت به «دهب»، والذي ما زالت فرائصها ترتعد منه، لن تُزعج صديقتها بهموم تضيفها إلى ما تحمله فوق ظهرها من أعباء، ستبحث هي في هذا الأمر، ستعرف لماذا تصرفتْ «دهب» بهذه الغرابة، وماذا تريد منها، وهل هي بالفعل الوجه الأخير الذي رأته قبل أن تفقد الوعي، ولماذا كانت غاضبة عليها.

جعلَ اللهَ أهون الناظرين إليه؛ فتركه الله يسقط في وحل الذل دون أن يمد له يد العون. ليس ثمة ذل أكبر من أن يجثو رجل في عمره على ركبتيه، ويُمرّغ ثيابه في التراب كي يُقبل قدم عبد من عباد الله يُقال له «جبار»، وما هو إلَا ذرة في كون القاهِر الجبار.

ولأن الذل هوان؛ رفسه «جبار» بقدمه، فأصاب حذاؤه وجه «طحنون» وأدماه، مسح «طحنون» الدماء بطرف ردائه، وأمسك بقدم «جبار» ثانية يتعلق بها تعلق الغريق بقشة ويقول:

- أحلِّفكَ بكل ما تملك، وبأغلى من لديكَ أن تُساعدني يا «جبار»، ليس معي المال الكافي لأرد دين «بحر» ابن «السوارفة»، سيطردني الشيخ من القبيلة يا «جبار»، أنا مخاصمكَ النبي وفي مشدك وفي ممدك وفيما تطلب من ربك إن لم تساعدني.

رفسه الثانية، بغضب أعظم وهو يصيح به:

- ارحل عني يا مهدور الكرامة، وما ذنبي كي أتحمل عنكَ حصَّتكَ من الدين؟ كيف تجرؤ على طلب هذا مني بعد ما فعلته ابنتكَ الخسيسة؟

وقف «طحنون» أمامه تسوقه قلة حيلته ويقول:

- كما قلتَ، ابنة خسيسة أرضعتها أمها نُكران الجميل، والله وددتُ لو أقتلها بعدما تسببتْ فيه من فضيحة.

بصق «جبار» قائلًا:

- عار عليكَ أن تكون أبًا لفتاة وضيعة مثلها.

سارع «طحنون» بالتصديق على كلامه واستطرد بلهفة:

- لا أريدكَ أن تعطيني من جمالك يا «جبار»، أريدك فحسب أن تتوسط لي عند أي رجل من القبيلة، يأخذ «مدينة» مقابل أن يعطيني ما عليَّ من دين.

انفجر «جبار» ضاحكًا حتى كادت أنفاسه أن تتقطع، و«طحنون» يقف أمامه بائسًا مُتهدل الكتفين، انتهتْ نوبة الضحك فتجعدت قسماته وهو يهتف به:

- هل جننتَ يا «طحنون»؟ أتظن أن ابنتكَ تساوي ثمن جمل أصيل في سوق النساء؟ والله لا تساوي عندي ثمن هذا.

قالها وهو يُشير إلى حذائه المُعفَّر بالتراب. قال «طحنون» بهوانٍ:

- اطلب مني أي شيء يا «جبار»، أي شيء وسأفعله لكَ، ارحمني يا «جبار» فما كذبتُ إلا لأجلكَ.

دفعه «جبار» في صدره وهو يصيح:

- وقبضتَ ثمن ذلك مالًا أكلته في بطنكَ، ارحل عني يا خسيس، رجل وضيع مثلكَ تنبذه القبيلة بأسرها لا يحق له أن يتحدث مع أحد كبرائها، أنتَ احترقتَ يا «طحنون» وصرتَ رمادًا لا نفع منكَ.

غادر «طحنون» واليآس يُعشش في صدره، ويتخذ منه مُستقرًا ومقامًا.

سقط أرضًا يحث التراب فوق رأسه كما تفعل النساء. صدق «جبار»؛ لقد احترق تمامًا ولا بواكي عليه. لن يدفع الثمن وحده، ابنته التي أوقعته في هذا المأزق ستتحمل حصتها من الألم.

---

(٧)

سيبدو للرائي أنها ساحة عادية للعمل، البنَّاؤون يقومون بأشغالهم، بهمة ونشاط على الرغم من قيظ الظهيرة الحارق للرؤوس، ورئيسهم «غراب» يُشير إليهم بفعل هذا وينهاهم عن فعل ذاك، بينما يُراقبهم على مقعد خشبي من مظلة صغيرة مدفونة ساقها في الرمال «أكمل»، وفي المقعد المجاور له تجلس «شفق» تصبب عرقًا، تُجاهد كي تُحافظ على نشاط دورتها الدموية التي أخذت في الهبوط في غياهب الإجهاد.

لكن الخبير بأحوالهم، والمُطلع على ما في صدورهم سيراها أرض معركة خصبة لاندلاع حرب في أي لحظة، وعلى أتفه سبب.

وقف «غراب» يراقب العمال واضعًا كفيه على خاصرتيه، تبتعد أنظاره عن العمال أحيانًا للتطلع إلى الجالسين أسفل المظلة، ثم يُهذّب نظراتها بصرفها عنها، لكن أفكاره ظلت تدور في فلكهما.

نما إلى علمه أن «أكمل» كان في القاهرة منذ أيام، وأنه لم يعد للعريش إلا اليوم، ومن النظرات النافرة التي سددها له علم أن عودته رئيسًا للعمال هو آخر ما يرغب فيه «أكمل».

ومن الواضح له كذلك، وما استطاع أن يستشفه من لغة الجسد، والإيماءات، ونبرات الأصوات، أن لـ «شفق» سطوة إعادته إلى العمل رغمًا عن أنف خاطبها.

وفَّتْ بوعدها له ولم تجعله يعمل تحت إمرة «دهب»، وبدلًا من ذلك جعلته يعمل تحت إمرة خطيبها نفسه، على الرغم من أن «غرابًا» لا يرتاح له ولا يُحب العمل معه بعدما أوسعه ضربًا في الليلة التي التقاهما على الطريق، دون أن يتبيَّن حقيقة الأمر، وأنه كان يمد له يد المساعدة لا يد الأذى.

منذ ذلك الوقت وهو يشعر نحوه بالنفور، وما زاد الطين بِلَّة إدعاؤه في المحضر أنه لم يقم بضربه، وأن «شفق» هي الفاعلة، أي نوع من الرجال يفعل هذا.

هكذا فكَّر وهو يضبط عينيه وهما تلتفتان صوب الرجل وترمقانه بنظرات حادة، ثم يعود مرة أخرى ليركز على عمله، لكن دون جدوى؛ هربت أفكار مرة أخرى وحطَّتْ فوق رأس «شفق»، لماذا تبذل كل هذا الجهد وحدها؟

يعلم جيدًا أنها ما قدِمت اليوم إلى الموقع إلا لتحول دون حدوث مشكلة، ألم تعده ألا يتعرض أحد إلى العمال بسوء؟ أما كان ينبغي لها أن تأخذ الوعد من خطيبها أن يُحسن معاملة العمال، ويحل ما يطرأ بينهم من مشكلات دون أن تضطر إلى المجيء بنفسها والجلوس تحت الشمس الحارقة لساعات حتى بلغ منها الإجهاد مبلغه؟

ألا تثق بحِكمة خاطبها في إدارة مشروع صغير؟ كيف بإدارة حياتهما إذن؟

هزَّ رأسه محاولًا نفض ما بها من أفكار وهو يهمس لنفسه: «وما شأنكَ أنتَ؟ ركز على عملكَ».

وكانت هي تقول لنفسها الشيء ذاته: وما شأنكِ أنتِ؟

إذ راقبته أثناء عمله وقد ساقتها أفكارها إلى محاولة اكتشاف السر الذي يجمعه بأختها. ما زالت تستبعد فكرة الحب ولا تجد لها مكانًا منطقيًّا بينهما؛ يبدوان لها مثل ثمرة فاكهة وقطعة من الحجر، حتى وإن كان لهما الاستدارة نفسها والحجم ذاته، فكل منهما خُلق من مادة مختلفة، والآن يحاولان إقناعها أن بإمكانهما أن يمتزجا معًا لصُنع عصير طازج!

أهي وحدها من ترى هذه الاختلافات الصارخة بينهما؟

هل الحب أعمى إلى هذا الحد فلا يكاد يُميز الاختلافات؟

صرفت ذهنها عن الأمر وصبَّته على ما يخصها، حرَّكتْ خاتم خطبتها في إصبعها وهي ترمق الرجل الجالس بجوارها والذي يبعد عنها سنتيمترات فحسب، لكنه بعيد عن نفسها بُعد السماء على الأرض.

نظرت إليه كعقاب في وقت من الأوقات، والآن لا تستطيع العفو عن نفسها بتحريرها من هذا العقاب فقط لأنها قررتْ ذلك، الأمر ليس بهذه البساطة.

ثمة رجل وثق بها، وبنى آماله عليها، وشاركها حلمه. ثمة وعد وميثاق. الطرق التي نسير فيها لا نستطيع فجأة التوقف فيها وتغيير وجهتنا، لأن في الطريق اتجاهات ومتاريس وكباري وجسورًا وعوائق قد تحول دون الدوران للخلف أو اتخاذ طريق فرعي.

لذلك كان عليها التفكير ألف مرة قبل الإمساك بيد رفيقها وقطع هذه المسافة من البداية. تنهدتْ بضيق وقد شعرت بالاختناق لا تعرف إن كانت الشمس مبعثه أم أفكارها.

لم تكن الوحيدة التي أحسَّتْ بالاختناق، الرجل الجالس بجوارها كذلك كان أبعد ما يكون عن الراحة والاسترخاء؛ أخفى عليها الشجار الكبير الذي نشبَ بينه وبين أمه حينما كان في القاهرة الأيام الماضية.

تُصر أمه على أن يتزوج بفتاة لم يكن لها تجارب سابقة، حاول إفهامها أن ثمة فرقًا كبيرًا بين أن تكون الفتاة مخطوبة أو في علاقة عابثة، وما حدث لـ «شفق» أمر تتعرض له فتيات كثيرات.

فالخطبة ليست ميثاقًا غليظًا، ويُمكن نقضه في أي لحظة، لكن أمه التي تُفكر بعقلية مختلفة عنه لم تجد أي فارق بين الخطبة والعلاقة العابثة، كانت «شفق» ملكًا لرجل قبل ابنها.

حاول وقتها أن يُفهمها الفارق بين «ملك لرجل» و«مخطوبة لرجل»، لكنها لم تقنع بأي فارق بين الأمرين، ربما لأنها ترى الناس من خلال طباع ابنها وأخلاقه، تعلم ما لا يتورَّع عن فعله سواء إن كان خاطبًا أم في علاقة عابثة.

تعرف الفتيات اللاتي مررن في حياته من قبل، وإلى أي حد تجاوزنَ الخطوط الحمراء، ووهبنَ له الغالي والنفيس، فصار كل الرجال كابنها، وكل النساء كرفيقات ابنها!

وعندما أحسَّ «أكمل» أنه لن ينجح في الوصول إلى لغة حوار مشتركة يتفاهمان بها ترك الأمر برمته، سايرها وأبدى اقتناعًا زائفًا بأفكارها، حتى اطمأنَّتْ وسكَنَت وظنَّت أنه حين يعود إلى العريش سينهي أمر هذه الخطبة

فورًا.

وهو الآن جالس يتجرَّع لهيب الحيرة لا يدري السبيل إلى المضي في الطريق الذي اختاره دون عقبات وضعتها أمه وستضعها على طول الطريق، لا يستطيع أن يُجابه العقبات، لا يملك الطاقة ليفعل، فقط يصنع المناورات، علَّ العقبات تختفي فجأة من تلقاء نفسها، لكن لو لم تختفِ ماذا سيفعل عندئذ؟ هذا ما ملك عليه تفكيره، وأنبَتَ تقطيبة كبيرة فوق جبينه.

الصياح العالي هو ما أفلتَ الجميع من براثن الشرود؛ تحفَّزت «شفق» في جلستها، وازداد جبين «أكمل» تجعدًا وهما يرمقان الرِيِّس «مستور» يتشاجر بغضب مع أحد العمال.

سارع «غراب» بالوقوف بين الرجلين فهدأ الصراخ للحظات، فقط ليعود أشد وطأة، وقد أمسكَ الرِيِّس «مستور» بتلابيب «غراب» وقَدَّه من قُبل، فما كان من «غراب» إلا أن أمسكَ بكفي «مستور» ودفعهما عنه دفعة قوية أخلَّتْ بتوازنه وكادت تُسقطه أرضًا.

تدخل «أكمل» و«شفق» للحيلولة دون تفاقم المشكلة، هتف مستور والغيظ يُعشِّش فوق رأسه:

- يرضيك يا باشمهندس «أكمل»؟ عامل لا يساوي ثلاثة قروش يتجرأ ويتبجح في وجهي ويرد كلمتي في موقعي.

ثم أطلق سُبة بذيئة على العامل، طالت عِرض أمه، وقبل أن يفتح «أكمل» فمه بالرد سارع «غراب» يقول غضبًا وقد أراح كفَّيه على خاصرتيه:

- ليس موقعكَ، أنا رئيس الموقع الآن، وهؤلاء العمال ليسوا مطالبين بسماع كلمة أحد غيري، ولا أسمح لكَ بإهانة أحدهم بهذا الشكل.

انزعجتْ «شفق» نفسها التي رأت الحدث ما هو إلا صراع سلطات بين الرجلين، نزع السُلطة من «مستور» ومنحها لـ «غراب» أثار الأول وجعله يدور حول الموقع مثل الكلب الذي يتحين الفرصة ليطبع آثارًا فوق أرض الموقع، ليُحدد منطقة نفوذه.

وعندما أتى العامل بما يُزعجه تشبث بفِعلة العامل، وبالَ وسط الحديث بكلمات بذيئة كما تتبوَّل الكلاب حول مناطق نفوذها.

هتف «مستور» بحنق وهو يُشير صوب «غراب» بشكل مُهين:

- هذا الرجل يُعوِّد العمال على التبجح في وجوهنا، العامل لم يكن يعمل بجد وعندما أمرته بحمل الطوب على ظهره والعمل كما يعمل الخلق رفض وتحجج بأن «غرابًا» لم يطلب منه ذلك.

عقد «أكمل» كفَّيه خلف ظهره ورفع رأسه ليقول لـ «غراب» بضجر:

-اسمع، لا أحب طريقة تعاملكَ مع العمال، يجب أن تشد عليهم أكثر.

عقد «غراب» ذراعيه أمام صدره وهو يواجه «أكمل» قائلًا:

- هذا العامل يُعاني انزلاقًا غضروفيًّا، لا يستطيع حمل الأشياء فوق ظهره، لذلك أوكِل إليه أعمالًا أخرى لا تتعارض مع وضعه الصحي.

صاح «آكمل» بغيظ:

- وهل نحن هنا مصحة نفسية مرة فتطلب علاج أحد عمالك، ثم مستشفى خاص مرة أخرى فتطلب معاملة خاصة لأحد عمالك؟! هذا ليس عملًا خيريًّا، ولا أدري كيف كنت تدير هذا العمل من قبل، العامل الذي لا يستطيع أن يؤدي العمل المطلوب منه يرحل ويأتي عشرة غيره، الأمر بهذه البساطة.

لا تذكر «شفق» منذ متى لم تُقابِل صاحب سُلطة لا يتجبر على من يأتمرون بأمره، لعلها لم تُقابل قط رجلًا من هذا النوع، فهو نادر نُدرة الزئبق الأحمر، أو معدن نفيس لم تعد الطبيعة تُنتِج مثله. هذا ما فكرتْ فيه وهي ترنو إلى «غراب» وكأنها كل مرة تُعيد استكشافه من جديد، مثل أثر فرعوني لا يبُوح بأسراره مرة واحدة.

قال «مستور» بصفاقة:

- الله ينوَّر يا باشمهندس «أكمل»، هذا هو الكلام.

«أكمل» الذي ضاق ذرعًا بالعمال ومشكلاتهم والموقع والعريش وسيناء بأسرها زفر قائلًا:

- يكفي، فليعُد كلاكما إلى العمل.

رأت «شفق» أن الأمر يجب أن يُحسَم هنا والآن، وإلا ستظل معركة الصراع على النفوذ دائرة وسط الجميع، حتى تهدمه فوق رؤوسهم. تقدمت خطوة وقالت لـ «مستور»:

- أدركُ جهدك طيلة الفترة الماضية في الإشراف على العمال يا ريّس «مستور»، لكن الظروف الحالية تطلَّبت عودة الريِّس القديم ليستلم مهامه مرة أخرى، ولا تنسَ أنكَ كنت تعمل تحت إمرة الريّس «غراب» قبل أن تُرقِّيَكَ «دهب» لتكون رئيس العمال، أي أن الوضع ليس جديدًا عليكَ، وكل ما أرجوه منكَ أن تتعاون معه ومع باقي العمال حتى ننتهي من هذا المشروع في أقرب وقت.

بدا حديثها منطقيًّا، لكن من هنا يبحث عن المنطق؟

انزعج «أكمل» لتدخلها في صميم عمله، فبينما كانت تحل مشكلة نفوذ بين الرجلين، وقعت مع «أكمل» في مشكلة نفوذ أخرى!

أما «مستور» فلم تعجبه كلماتها ولم يستسِغ منطقها في عودة المياه إلى مجاريها السابقة. «غراب» هو من أطرق بوجهه للحظات وعندما رفع رأسه تلاقت نظراتهما، فهزَّ رأسه شاكرًا، لا لدفاعها عن منطقة نفوذه، فهو قادر على حمايتها بنفسه، بل لتحديد موقفها من الأمر كله، والتزامها باتفاقها معه.

كانت صادقة، ظاهرها مثل باطنها، أقوالها كأفعالها، ولم يكن ذلك مُريحًا ولا مُحببًا إلى نفسه، لأنه يثير في نفسه فكرة قضى عليها بالأمس، وفتتها إلى أشلاء. اليوم عادت لتتجمع مرة أخرى، وكأن كل يوم جديد هو بعثٌ جديد لها.

لم يُدرك أحد حجم الصراع الذي يعانيه «مستور»، نزع سُلطاته وعودته للعمل تحت إمرَة «غراب» هو أكثر ما تعافه نفسه. كان من أولئك الذين يمضون حياتهم اشتهاء لمقدار شعرة من سلطة تُمكنهم من التجبر على غيرهم، من النوع الطفيلي الذي يقتات على معاناة الآخرين وإذلالهم، وعندما لا يجد الطفيلي مصدرًا لمعيشته يُصاب بالجنون ويحرق ما حوله، وهذا ما فعله عندما طلب من «شفق» أن يتحدث إليها بعيدًا عن الأسماع، وعندما أصاخت له السمع بخَّ في أذنيها ما كان يواريه من سموم:

- أعلم أنني أقول ذلك في وقت متأخر يا أستاذة، لكن قوله متأخرًا أفضل من عدم قوله على الإطلاق.

قالت بضجر والشمس تقضم قطعة أخرى من صبرها:

- قل ما عندك مباشرة يا ريِّس «مستور».

جمع كل ما بداخل الطفيلي من رغبة في البقاء وباح بما كتمه في صدره:

- «غراب» هذا يخفي عنكم الكثير يا أستاذة، هذا الرجل أسوأ مما تظنين، هذا الـ «غراب» مشكلة قد تنفجر في وجه الشركة في أي لحظة.

هزَّتْ رأسها تقول بحدة:

- قلتَ لكَ قل ما عندَك بشكل مباشر يا ريِّس «مستور».

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- هناك من يبحث عنه، هناك من يرغب في قتله.

نجح أخيرًا في أن يُبدد نظرة الضجر من فوق وجهها، وأن يُحفَّز أعصابها. همست بجزع:

- قتله؟!

أكَّد بثقة:

- يتخفَّى «غراب» من رجل يسعى لقتله.

ألقت نظراتها صوب «غراب» الذي يعمل بهمة، قبل أن تُسددها صوب «مستور» وتسأله:

- لماذا؟

همس بالجواب على الرغم من أن أصواتهما بعيدة عن مرمى الأسماع، بنبرة تحمل من الخطورة الكثير:

- بسبب جريمة شرف!

أعادتْ «شفق» نظراتها صوب «غراب» وقد أفزعها جواب «مستور»، وأصابها بداء القلق.

ابتعدت عن «مستور» دون أن تزيد بكلمة واحدة، أما الطفيلي فلم يكتفِ بما فعل، عليه أن يحرق أكبر مساحة ممكنة، عليه أن يثبت للجميع أنه

موجود ومرئي، لا يهتم العالم إلا بالذين يستطيعون إثبات وجودهم، بالنجاح، بالعمل، بالغِنَى، بالحصول على جوائز، بالحرق!

لا فارق، المهم هو إثبات الوجود للحصول على قطعة من كعكة الدنيا، لن يكون من المحرومين، لن يموت موتة طفيلي لا وزن له.

إذا كان قد قرر أن يفضح الحقائق المُتسترة وراء الحُجُب، فعليه أن يفضح كل شيء، ويلعب بكل أوراقه التي يخفيها في جعبته.

أمسك بهاتفه المحمول وضغط أحرفه ليكتب رسالة قصيرة وحازمة، مثل رصاصة مصقولة تعرف وجهتها جيدًا.

«يجب أن نلتقي، لقد بدأت اللعبة». ثم ضغط زر الإرسال.

بدا «غراب» شارد الذهن عندما أمر العمال بالتوقف لأخذ راحة، مما جعل «أكمل» يهب من مكانه ويستدعيه قائلًا:

- ماذا تفعل؟ ألم تسمع أي كلمة مما قلته لكَ؟ هذه ثالث مرة تُعطيهم استراحة اليوم، ما رأيك أن نرسلهم إلى بيوتهم ولا نثقل عليهم بالعمل على الإطلاق؟

بدا وكأن «غرابًا» قد استنفد آخر قطرات صبره، عقد ذراعيه قائلًا:

- الشمس التي تشوي رأسكَ الآن فتهرب منها لظل مظلتكَ هي نفسها الشمس التي تحرق رؤوسهم، الجو هنا مختلف عن القاهرة وبخاصة في النهار، إذا تركتهم للعمل المستمر دون استراحة سيُصابون بالجفاف أو بضربة شمس.

لم يستطع «أكمل» أن يُفسد عليه منطقه، إلا أن «غرابًا» لم يكتفِ بذلك، بل زاد:

- ثم إنني لا تعجبني طريقة حديثكَ معي.

أطلق «أكمل» ضحكة جوفاء خالية من أي مرح. قال لـ «شفق» وهو يُشير إلى «غراب»:

- أسمعتِ ما قال؟ لا يعجبه أسلوبي!

انتهت الضحكة فجأة كما بدأت فجأة، قرَّب وجهه من وجه «غراب» فبدا فرق الطول بين الرجلين ظاهرًا، مما أزعج «أكمل» لشعوره بتفوق غريمه عليه في البُنيان. قال بحدة:

- ومن تكون أنتَ؟

دون أن يتزعزع ثباته بمقدار شعرة، أجابه:

- أنا «غراب السيناوي»، رجل لا يستمد قوته من ماله ولا سلطته ولا من حسبه ونسبه، فإن جرَّدتكَ من كل هذه المميزات، من تكون أنتَ؟

أمسك «أكمل» بتلابيب قميصه، وكانت تلك غلطته الثانية بعد خطئه الأول في اختيار غريمه في المعركة. فعل «غراب» نفس ما فعله عندما أمسك

«مستور» بياقته، آمسك بكفيَّه ونزعهما ثم دفعهما بقوة بعيدًا عنه.

وقف «مستور» من بعيد يتأمل المشهد باستمتاع مَن يُشاهد عرضًا أوليًّا لفيلم الموسم. تدخَّلتْ «شفق» لتحول بين تفاقم الأمر بين الرجلين وهي تقول:

- يكفي يا «أكمل»، أرجوكَ توقف ودعه يؤدي عمله، ألا ترى أن «مستورًا» يُحاول أن يشحنكَ ضده.

ثارت ثائرته وهو يواجهها:

- أنا أتوقف؟ أنا؟! هل فقدتِ بصركِ يا «شفق»؟ هو من يتهجَّم علي، هو من يخالف الأوامر، هو من يقلل الأدب.

كانت تعلم أن هذه غلطته الثالثة، وأن «غرابًا» لن يترك حقه يُهدر سُدى، فسارعتْ برفع كفها أمام وجه «غراب» وكأنها تمنعه من أخذ ردة فعل وهي ترجوه:

- أنا آسفة، آسفة جدًّا، لن يتكرر ذلك مرة أخرى، لن يزعجكَ أحد لا أنتَ ولا عمالكَ، ولكَ مطلق الحرية في اختيار طريقة تعاملكَ مع العمال ما دام العمل يسير على ما يرام.

«أكمل» الذي طار عقله وطاش صوابه، أشار صوب «غراب» بسبابته وهو يُصيح في «شفق» غير مبالٍ بأنهم أصبحوا مشهدًا فوق مسرح الأحداث يُراقبه العمال كلهم:

- لماذا تعتذرين له؟ لماذا تقفين في ظهره؟ لماذا تُدافعين عنه؟ لماذا تهتمين لأمره؟ أنا خطيبكِ لا هو.

التفتت صوبه ترمقه بحدة كي يسكت، إلا أن غضبه وغيظه قد خرجا تمامًا عن السيطرة فاستطرد هاتفًا:

- ما الذي بينكِ وبينه حتى تعطي له هذه القيمة؟

نزل سؤاله على رأسها كالصاعقة، ليس وحدها، بل على رأس «غراب» كذلك. تهامس بعض العمال فيما بينهم، يتأكدون من رفقائهم أنهم قد سمعوا الكلمات نفسها، حتى «أكمل» نفسه لحظة أن نطق بكلماته أدركَ أنه تمادى كثيرًا، كثيرًا جدًّا، وأنه منح غضبه حق قيادة لسانه كما شاء دون ضابط أو لجام، فخرجت كلمات لم يقصدها على حقيقتها، ولم يُدرك معناها إلا بعدما أفلتت من عقالها. كل ذلك دار برأسه هو ولم يبُح به..

«شفق» التي تمنَّتْ أن تنشق الأرض وتبتلعها عادت إلى المظلة لتأخذ حقيبتها وتجمع أغراضها، فيما وقف «غراب» في مكانه وكأنه أحد الآثار الفرعونية التي خلَّفها أجدادنا في الصحراء، بينما عاصفة هادرة تدور بداخله.

سارع «أكمل» بالاقتراب منها في محاولة لقول «آسف»، لكنها كانت ثقيلة على لسانه، غريبة على مُعجم كلماته، دخيلة على مبادئ أفكاره.

حاول نطقها؛ فشل فشلًا ذريعًا وكأنه نسي كيف تتكون الكلمات.

وفي اللحظة التالية تنامى إلى آذان الجميع صوت سيارة شرطة بسرينتها

المُجلجلة، تقترب من الموقع حتى توقفت آمامهم.

نزل منها ضابط وعسكري، أعمَل الضابط عينيه في الموقع فأدركَ أن الفتاة الواقفة أمامه هي المرأة الوحيدة هنا، فدنا منها متسائلًا:

- هل أنتِ «شفق منصور النمر»؟

ازدردتْ ريقها بصعوبة، ثم ردَّت بالإيجاب. نزلت كلماته التالية قنبلة فجَّرتْ حصون ثباتها، وأخرجتْ مخاوفها من رقادها:

- أنا هنا للقبض عليكِ في تهمة الشروع في قتل!

استلزم الأمر عدة ثوانٍ كي تدرك معنى عبارته، كان «أكمل» أسرع منها في الخروج من صدمته فقال للضابط:

- ماذا تقول؟! أرني أمر الضبط والإحضار؟

أراه الضابط الورقة الرسمية التي تُطالب بوضع القيد في معصميها، وعندما تحرَّكتْ يد العسكري لتُدني الأساور الحديدية من كفَّيها، أوقفته يد حازمة!

تطلع الجميع بدهشة إلى «غراب» الذي تجرأ بفِعلته، وكأن ذلك لم يكفِه، فقال للضابط:

- لا داعي للقيد.

ولأن الضابط يعلم جيدًا كيف تغلي الدماء في عروق رجال الصحراء عند مَس نسائهم ظنَّ أن «غرابًا» خطيبها أو أحد محارمها، ولأنه لم يرغب في إحداث مشكلة من لا شيء، ولأن الفتاة التي تقف أمامه ترتجف أوصالها لا يُخشَى من أن تقفز من سيارة الشرطة هاربة في منتصف الطريق، أومأ برأسه إلى العسكري كي يُعيد القيد الحديدي إلى جيبه.

أشار الضابط لها كي تتقدم صوب السيارة، «أكمل» الذي لم يدرِ ماذا يصنع في موقف كهذا لم يقل لها كلمة واحدة، كانت تبكي خوفًا وفزعًا وحيرة، ولأنها اعتادتْ أن تكون الطرف الأقوى، نظرت هي إلى «أكمل» وقالت بتلقائية وكأنها مُبرمجة عليها لسنوات:

- لا تقلق!

ركبت السيارة بقلب وجِل، وقبل أن تنطلق بها ساحت نظراتها فيما حولها،
غمامة العبرات التي أسدِلت فوق عينيها جعلت الرؤية مشوشة،
لم ترَ وجهًا لإنسان، وكأنها وحدها تمامًا في هذا الكون الأصفر الفسيح،
لا أحد حولها..

لا أحد على الإطلاق.

رُبَّ ضرَّة نافعة
ورُبَّ دعوة شافِعة
ورُبَّ خبيئة مانِعة!
مِن سقطةٍ وعثرةٍ
ومكيدة مُحكَمة
وحيلة مدبرة!
فللمعروفِ صنائعه
تقي من السوء مصارعه!
قالوا زمان اعمل خيرًا
وألقِه بحرًا
لكن الخير أبدًا لا يموت
وحيدًا بئيسًا في تابوت
الخير يمتد في الأركان
مِثل خيوط العنكبوت!

يصل الشرق بالغرب
السماء بالأرض
والشمال بالجنوب!

الطريقة الوحيدة كي يلتقي الشمال بالجنوب؛
أن يُشَقَّ العالَم بسلاحٍ فريد،
ثم يُطوَى من جديد!

(١)

في شمال سيناء، وداخل قِسم الشرطة بالعريش، رجف القلب، وتلجلج اللسان، وساحت الأفكار في ملكوت الخوف.

متهمة بالشروع في جريمة قتل!

هكذا قال الضابط الذي دعاها للجلوس على المقعد المواجه لمكتبه، وقدَّم لها كوبًا من العصير بعدما لاحَظ اصفرار وجهها، وهشاشة أعصابها، ثم أضاف وهو يتفحَّص أوراق الملف:

- «نرجس عبد الحميد»، ما العلاقة التي تربطكِ بها؟

ازدردتْ ريقها بعدما ارتشفت مرتين من العصير وقالت بوجل:

- صديقتي. ما الذي حدث لها؟ هل هي بخير؟ تركتها في المستشفى منذ ساعات وكانت بخير.

تطلَّع إليها الضابط وكأنه يُحاول قراءة أفكارها، ثم شبَّك كفَّيه فوق المكتب قائلًا:

- هناك رجل تقدَّم للشهادة، بواب يعمل في العمارة التي تقع فيها شركتكم، الشاهد يقول إنه رآكِ تهرولين نزولًا من الشركة في نفس الوقت المُقدَّر للهجوم على «نرجس» بالمكتب.

تخبَّط منطقها وهي تُحاول استيعاب كلماته، تعرف بواب العمارة، رجل طيب تُلقي عليه السلام في صعودها ونزولها. همهمتْ:

- مستحيل! لماذا يكذب؟

استدعى الضابط أمين الشرطة الذي يقف على الباب وطالبه بإدخال الشاهد، دخل البواب يُلصق عينيه بالأرض لا يقوَى على رفعهما، وعندما أشار له الضابط بالجلوس في المقعد المواجه لـ «شفق» أبى إلا والوقوف بعيدًا عن مواجهتها وجهًا لوجه.

سأله الضابط:

- أعد علينا الشهادة التي شهدتَ بها ضد الأستاذة «شفق».

كادت العبرات أن تتفلَّتْ من عيني الرجل وهو يقول:

- والله لي يومان لم أذق فيهما طعم النوم، ترددتْ كثيرًا في المجيء إلى هنا والشهادة، الأستاذة «شفق» أعرفها منذ فترة صغيرة لم أرَ منها أي سوء، والأستاذة «نرجس» تعمل في الشركة منذ شهور طويلة وتُعاملني كما لو كنتُ واحدًا من أهلها، لها في رقبتي حق حُسن المعاملة، لذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من شهادة الحق.

وقفتْ «شفق» كي تكون وجهًا لوجه مع الرجل وسألته مُستنكرة:

- أنتَ رأيتني لحظة الحادثة؟

رفع رأسه وقال بخفوت وكأن الاعتراف بذلك حجر يثقل صدره:

- الكذب خيبة يا أستاذة، نعم رأيتكِ، أو على الأصح رأيتُ ظهركِ، كنتِ

ترتدين الأسود، ولا آحد في الشركة يرتدي حجابًا آسود وملابس سوداء غيركِ.

هتفت مستنكرة بقوة:

- مستحيل! لم أكن وقتها في الشركة، خرجت قبلها بنصف ساعة أو يزيد، ألم ترَني؟

هزَّ رأسه نفيًا كأنما يعتذر، وعندما أمره الضابط بالتوقيع على المحضر والانصراف التفتَ صوب «شفق» يقول:

- سامحيني يا أستاذة، أنتِ لكِ ظهر يحميكِ، لكن أستاذة «نرجس» من الناس الغلابة، مثلنا، وعندما تأتي الدنيا على الغلابة لا يجدون من يقف بجوارهم، فليلعنني الله إن كتمت الحق ولم أشهد به.

دارت بخلدها تفاصيل صغيرة، مثل إصرار «نرجس» على أن وجهها آخر وجه تتذكر رؤيته قبل أن تفقد وعيها، وأنهما كانتا في وضعية شجار، ثم شهادة البواب، الرجل لا يكذب، بل يتعذَّب لأنه يقول الحقيقة!

ما يخطر على عقلها الآن بشع للغاية، ولأنه غير محتمل لن تُفكر فيه، ستطويه طيًّا وتقذفه لأبعد نقطة مظلمة من عقلها، ستنساه، ستُنكره.

عندما تكون الحقيقة مُرة قاسية، هي أكثر من يُتقن فن الإنكار، والدليل على إجادتها الإنكار، الصندوق المغلق في خزانة ملابسها، صندوق «باندورا»، لم تجرؤ على فتحه كي تظل الحقيقة القبيحة مدفونة بداخله إلى الأبد، وهذا ما ستفعله الآن.

استكمل الضابط التحقيق معها حتى وصل إلى سؤال:

- أين كنتِ في لحظة الجريمة؟

فأجابته:

- كنتُ عند بيت «بشير».

- مَن «بشير»؟

- عامل في شركتنا.

- أعطني عنوانه كي أستدعيه للشهادة.

قالت بعد لحظة تردد:

- «بشير» لم يرَني.

- كيف؟ قلتِ إنكِ كنتِ عند بيته!

- نعم كنتُ عند بيته لكنني قابلتُ شخصًا آخر.

- من يكون؟

- عاملًا في شركتنا.

عند هذه اللحظة فقد الضابط قدرته على تصديقها، هذه الفتاة تُخفي أمرًا. وفقدتْ هي قدرتها على الاستمرار تحت وطأة هذا الضغط.

أخرجت بخاخ الفم من حقيبتها واستخدمته على مرآى من الضابط الذي سألها عمَّ تفعل فوضَّحتْ له مرضها.

تم استدعاء الضابط لمكتب آخر يعلوه رُتبة، فسارع بالخروج، وأمر أمين الشرطة بمراقبتها، حمدتْ الله على لحظات الخلوة، علَّها تستعيد توازنها وتستطيع التحلِّي بصفاء التفكير. هل تخبر الضابط أنها كانت برفقة «غراب» كي تنفي عن نفسها التهمة البغيضة؟

لكن لحظة، عليها التفكير في تبعات هذا الاعتراف. هي الوحيدة التي تعرف ببراءة «غراب»، وهي على ثقة من أنها قد تُستبعَد في أي وقت عن القضية، وإذا ما قرر أبوها ذلك فسيعمل المحامي الجديد على طمس هذا الدليل ليس من ملف القضية الذي يملكه فحسب، بل من ملف النيابة كذلك، يد أبيها تطول الزوايا والأركان التي لا يستطيع إلا الخواص الولوج إليها.

وعندها ستكون شهادتها على ما رأته في الفيديو هي الأمل الوحيد لـ «غراب» في النجاة من حبل المشنقة.

الآن إذا اعترفتْ بأنها كانت برفقته، وأتى هو للشهادة لصالحها وأيَّد أقوالها، وفعلتْ هي الشيء نفسه في قضيته، فستكون تلك ثغرة كبيرة سيستغلها أي محامٍ تخرَّج بالأمس في كلية الحقوق في إقناع القاضي بعدم الأخذ بأقوالها.

ستصبح شهادتها لصالحه بلا أي قيمة تُذكر، ستكون مثل شهادة مصالح ورد الجميل فحسب.

عاد الضابط بأسرع مما تمنَّتْ وأعاد على مسامعها السؤال نفسه:

- مع من كنتِ في تلك اللحظة؟

بإمكانها أن تذكر «غرابًا» فتنجو بنفسها، لكنها ستحرق فرصته في النجاة، ستحرقه.

لم ترضَ أن تكون مثل طائر العنقاء الخُرافي الذي يُولَد من رماد مُحترَق لطائر آخر. وعندما لا تسعنا الكلمات نصمت، نمتنع عن البوح، فاستخدمتْ حق الصمت.

كان الثمن غاليًا، فقد الضابط قدرته على تصديق براءتها بالكُلية، وأمر بإيداعها في الحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق.

---

(٢)

في جنوب سيناء، وفوق الرمال الحارقة، تهادَى أحد الجمال بصاحبه، فرحًا لعودته إلى أرض القبيلة من جديد.

جمل أصيل، لا ينسى من أطعمه وسقاه، ورعاه وآواه. ربَّتْ «بحر» فوق عنق الجمل يُبدد شوقه الذي طال لأيام، ثم يهمس له:

- لا أحد يجسر على أن يحرم «بحرًا» من جِماله.

ثم يتأمل الكون الأصفر ويضيف:

- ولا من أرضه وأهله وعزوته.

انطلق بالجمل حتى أتى مجلس عمه، فدخل عليه مُلقيًا للسلام، مُتجاهلًا التجهم الذي علا مُحيّاه ثم قال:

- يا عماه، أمي بلغتْ أم «عين»، ولا بد أن الشيخ بلَّغكَ، لكنني أحببتُ أن أقولها بنفسي؛ غدًا سآتي لطلب «عين» على سنة الله ورسوله.

وعلى الرغم من الفرحة الطاغية التي تراقصت بداخله، أخفاها بوجه متجهم لا يكاد يستر ما تحته من الفرح، قال وهو يتكئ فوق مجلس عربي:

- وما الذي غيَّر رأيكَ يا بن الشيخ؟ ألم تقل إنكَ لا تريد «عينًا».

يعلم «بحر» أن عمه يقتص منه لما صرَّح به تلك الليلة، لكن نفسه لم ترضَ بأن تُسايره في إذلالها فهبَّ واقفًا وهو يقول:

- نتحدث في كل شيء ليلة غد، بإذنك يا عماه؛ زوجة «حَمَد» في المستشفى ويجب أن أكون بجوار أخي الآن.

لم يُرضِ ذلك غرور العم، لكنه كان كافيًا لإطلاق ابتسامته الكبيرة من عقالها لحظة أن غادر «بحر» مجلسه. الآن بإمكانه أن يستريح، ويطمئن على مستقبل ابنته الوحيدة، والتي بعد أيام ستصير زوجة ابن شيخ القبيلة. ربما يحسب الرائي أن به مسحة من أنانية، أو شيئًا من طمع، لكنه يرى نفسه رجلًا يتخيَّر لابنته أشرَف الأنساب، ولأولادها مقامًا كريمًا. أي رجل لا يتمنى لابنته مثل هذا؟ والله لا يريد الرجل لابنته إلا هذا!

هكذا هتف بها في نفسه، وهو يتكئ بظهره إلى وسادة مريحة، تزيل عنه وعثاء ليالي قلقٍ طويلة.

---

(٣)

- علمتُ أن هذا سيحدث، «نرجس» مثل البومة تُنذر بالشؤم!

هتفت بها «دهب» ما إن علمتْ بما أصاب أختها، اللوم على «نرجس» وحدها؛ كلما حاولت «دهب» إنقاذ أختها من بين براثنها تُجرَح أكثر.

توجهتْ إلى بيت بواب العمارة كي تُلقي له بتهديداتها، أو تبتزه، أو ترشيه، أو تُلفق له إحدى التُهم تُساومه بها، كي يعود إلى القسم ويُغيِّر شهادته، أي شيء كي تنقذ أختها.

تحرَّكتْ بسيارتها سريعًا تخترق شوارع العريش حتى وصلت إلى البناية. وقفتْ أمام غرفة البواب تستعد لطرق بابها، ثم توقفتْ لحظات للتفكير. بعدما هدأت غضبتها، واستعادت سطوتها، هل من صالح «شفق» الخروج من السجن أم البقاء فيه؟

لم تستطع أن تحميها خارجه، لا من «نرجس»، ولا من «غراب» الذي بات يشُك في أقوالها، وحركاتها، وسكناتها. عمَّا قريب قد يكتشف أصل الحكاية، ويعرف أن الفتاة التي حادثها من خلف الباب المغلق كانت «شفق»!

وأن «دهب» احتالت عليه بتلبُّس روح شقيقتها، وأفكارها، وذِكرياتها، وخيبتها، وآمالها، وحتى مرضها! عندها لن يتورَّع عن إفساد أوثق عُرى الحب بين الأختين.

لن تفهم «شفق» أنها ما فعلتْ كل ذلك إلا لكي تحميها من «غراب»، وما آذتْ «نرجس» إلا لتحميها منها، ومن كل من يحاول سرقة قلبها!

قلب التوأم نصفان لقلب واحد صحيح، كيف يعيش نصف قلب بغير نصف يُتممه؟ هكذا حاول خاطب «شفق» السابق أن يفعل، سرق قلبها، وشغفها، وبريق عينيها، واهتمامها، فما كان لـ «شفق» حديث إلا عنه، ولا فرحة إلا منه، ولا حلم إلا معه.

فأنقذتها من هذا الشيطان الرجيم الذي حاول سرقة نصف القلب لنفسه، وعندما انتهت علاقتهما كانت هناك تحت قدمي «شفق»، وبين يديها تواسيها، وتُقوِّيها، وتمر معها من النفق الطويل المظلم لمرارة الفقد.

تمسح عنها الدماء التي تسيل من أثر خنجر الخيانة في ظهرها، حتى استعادت عافيتها، وعاد نصف القلب يلتصق بنصفه الآخر.

والآن، حاول «غراب» أن يفعل الشيء ذاته، حاول فصل النصفين فوقفتْ له بالمرصاد. سرقته لنفسها قبل أن يسرق منها أختها.

لن تنظر له «شفق» ما دام أنه صار خطيبًا لأختها، لن تمنحه لفتة اهتمام، ولا مقدار ذرة من أحاسيس ومشاعر. مهندسة بارعة هي؛ شيَّدَتْ بخطبتها منه سدًّا منيعًا بينه وبين شقيقتها، لكن «غرابًا» صار كثير الشك، غزير الأسئلة، عميق التفكير.

لو استمر لقاؤه بـ «شفق» قد يكتشف الحقيقة دون دليل، على الرغم من أنه بالفعل يمتلك الدليل! البخاخ المُلطَّخ بطلاء الأظافر الأحمر، لو رأته «شفق» ستعرف أنه البخاخ نفسه الذي فقدته وهي تتحدث إلى «غراب»

من خلف الباب المغلق تلك الليلة.

الشخص الوحيد الذي بإمكانه العثور على هذا البخاخ هو الصوت الذي سمعته تلك الليلة. إذا رأته معه ستفهم كل شيء. لذلك يجب أن تتحرك سريعًا، يجب أن تنقذ «شفق» مما يحيق بها من أخطار، وحتى تفعل ذلك يجب أن تظل «شفق» بين جدران السجن، محمية في قلعة حصينة، حولها أسلحة وعساكر ومتاريس.

هناك داخل الجدران الأربعة لن تجسر قوى الشر على الوصول إليها، لن يجسر أحد على أن يؤذيها. عند هذه النقطة ابتعدتْ عن غرفة البواب في خطوات سريعة، ثم ركبت سيارتها وانطلقت بها إلى القسم؛ عليها أن تمنع وصول الخبر إلى أبيها، وعليها كذلك أن تمنع «أكمل» من مساعدة أختها.

لم يُشكِّل «أكمل» لها أي تهديد، حتى إنها كانت تدفع كلًّا منهما صوب الآخر، «أكمل» لا يمكنه أن يسرق «قلب» أختها، لن يقدر مهما حاول؛
ستُعجزه بلادته، وقلة صبره، وضعف بصيرته، لن تراه «شفق» رجلًا كاملًا، لن تمنحه كامل قلبها.

لا خوف من «أكمل»، لا يُشكِّل تهديدًا على قلب أختها!

---

(٤)

صرخاتها كانت تعبر رواق المستشفى وتزور كل غرف الطابق دون استحياء، ثم ترتطم بالجدران فيرتد إليها صداها. انزعج الشيخ الذي قال بحدة:

- لماذا تصرخ زوجتكَ يا «حَمَد»؟ ألم تلد امرأة قبلها؟!

مصمصتْ «أم ذيل» شفتيها قائلة:

- عبَر بطني سبعة رجال ما أطلقتُ صرخة واحدة من صرخات زوجتكَ يا «حَمَد».

لم يكن «حَمَد» في حال يسمح بأن يدخل على زوجته غرفة الفحص ويطلب منها خفض صوتها كي تُراعي الآداب العامة، كان في هَم ألمها، وابنته القادمة إلى الحياة، يأمل أن تكون صحيحة وسالمة.

خرجت الطبيبة فبادرتهم قائلة بانزعاج:

- ترفض الولادة القيصرية، وتصر على الولادة الطبيعية، والرحم ليس مُتأهبًا بعدُ، سننتظر عدة ساعات أُخَر.

جاورها «حَمَد» في رقدتها وأمسك بكفها قائلًا وهو يمسح عرقًا غزيرًا تفصَّد به جبينها:

- لماذا ترفضين الولادة القيصرية يا «عِيدة»؟

أطلقت سبة ثم صاحت:

- لن أشق بطني من أجلكَ يا «حَمَد».

- ليس من أجلي، بل من أجلكِ، أنتِ تتألمين كثيرًا يا «عِيدة».

هتفت وهي تجز على أسنانها:

- إحدى النساء في قبيلتنا ماتت بعدما شقَّتْ الطبيبة بطنها بتلك السكاكين الصغيرة الحادة، تريدني أن أموت يا «حَمَد» لتتخلص مني؟ قبيلتك كلها تريدني أن أموت، أمك وأبوكَ بالخارج يُحرِّضان الطبيبة الملعونة على شق بطني وأخذ روحي.

أنهت حديثها وأطلقت إحدى صيحاتها التي تُزعج الطيور في أعشاشها. فقدَ «حَمَد» طاقته على الجدال، فما بينهما «أزمة ثقة»!

والثقة التي لم تُبنَ خلال أشهر لا فائدة من محاولة بنائها في ساعة.

التزم الصمت داعيًا إلى الله مُبتهلًا أن يحفظ الأم وجنينها، قضم أصابعه ندمًا على ما بدرَ منه سابقًا من أمنية خبيثة حاكها صدره من أن يموت ولده في بطن أمه، أي جرم نطق به لسانه؟ وأي حمق أبلغه مرَامه؟

كيف يرفض عطية الله، بل ويختار بنتًا أم صبيًّا وكأنه دخل متجرًا للأماني والأحلام؟

أليس الله بقادر على أن يقبض روح طفلِهِ ولا يرزقه بعدها أبدًا؟

أيُسأل المُعطي لماذا أعطيت هذا ولم تُعطِ ذاك؟ أيقال للوهَّاب لا أريد هذا

خذه ورُدَّه إليكَ؟ آي سوء آدب مع الله آوقع لسانه في هذا الدعاء؟

عندما عرف بقدوم «بحر» خرج له، وفي إحدى زوايا المستشفى أسند جبينه إلى كتفه كما كان يفعل وهو طفل صغير، بكى دون خجل؛ «بحر» لا يسخر أبدًا من عبراته، ويُدرك معنى أن يبكي الرجال.

وصلتْ «دهب» في الوقت المناسب، عندما كان «أكمل» متوجهًا إلى داخل القسم وبرفقته رجل يحمل حقيبة سوداء، من مظهره بدا أنه محامٍ.

أوقفته «دهب» وتنحَّتْ به جانبًا للحديث. بادرته:

- «أكمل»، ماذا تفعل؟

هزَّ كتفيه وهو يقول بحدة:

- وماذا في ظنك أنني أفعل يا «دهب»؟ أحاول إخراج «شفق» من المشكلة الجديدة التي ورَّطتْ نفسها فيها.

قالت تستحثه على الإفضاء إليها بكل ما يعرفه:

- هل رأيتها؟ ماذا قالت لكَ؟

تنهد متبرمًا وهو يقول بحدة:

- لم أرَها، لكنني تحدثت إلى الضابط، لم تُجبه بوضوح عن مكانها في اللحظة التي هُوجِمَتْ فيها «نرجس»، لذلك أمر الضابط بحبسها على ذمة التحقيق.. فأتيتُ لها بهذا المحامي ليحاول إخراجها قبل أن تشم الصحافة الخبر ونرى اسم الشركة مرة أخرى يُزين الجرائد الصفراء ومواقع التواصل.

- وهل تظن أن من العقل إخراجها الآن؟ ألا تشعر بالخطر الذي يلتف حولنا جميعًا؟ يجب أن نفهم أولًا قبل أن نأتي بأي رد فعل.

قال بضيق وقد بدأ الحنق يتصاعد ليملأ صدره ويخنق أنفاسه:

- وماذا تقترحين يا «دهب»؟ هل أدعها بالداخل حتى نفهم الأمر؟

صاحت بحماسة:

- بالضبط.

نظر إليها نظرته إلى مجذوب فقد عقله، فلم تعبأ بنظراته وأردفتْ:

- هي في أمان بالداخل، محمية بقوة الشرطة، لو أخرجناها الآن ما أدراكَ أن من هاجم «نرجس» لن يعود إلى المكتب مرة أخرى لمهاجمة ضحية جديدة؟ وهذه المرة إما أنا أو «شفق»، يجب أن نعرف من الذي يسعى وراء شركتنا، ربما أحد أهالي العمال الذين ماتوا ويسعى للانتقام مِن أبناء الشريكين، أبي وأبيك.

انعقد جبينه وهو يسأل بخفوت كأنما يتحدث إلى نفسه:

- تقصدين أننا جميعًا في خطر؟

- بالضبط، لذلك على الأقل تبقى «شفق» بالداخل في حماية الشرطة حتى نعثر على هذا المجرم.

قال بحنق:

- وكيف سنفعل ذلك؟ هل ظننتني «شارلوك هولمز» سأقود سيارتي وسط شوارع العريش أجمع الأدلة وأشمشم مثل كلاب البوليس حتى

آعثر على المجرم؟

قالت بحنق وقد بدأ يستثير حفيظتها:

- لن تفعل شيئًا يا «أكمل»، الشرطة ستفعل، امنحهم الوقت فحسب، ولتبقَ «شفق» في أمان خلال هذا الوقت.

قال في شك وهو يستدير برأسه ليتطلع إلى المحامي:

- لماذا لا نترك الأمر للمحامي هو من يقرر ذلك؟

- المحامي يسعى وراء لقمة عيشه، بالطبع لن ينصحك بإبقائها في الداخل ويُفلت من بين يديه أموال أتعابه.

قال وما يزال الشك يساوره عن مدى جودة هذه الفكرة:

- و«شفق»؟ ألن تنزعج؟

- ألا تعرف كم أن «شفق» فتاة ذكية؟ أكاد أجزم أنها هي أيضًا تُفضِّل البقاء بأمان في الداخل حتى العثور على هذا المجرم.

قلَّب الفكرة في رأسه فلم تبدُ له بهذا السوء، ربما لعدة أيام فحسب، وإن لم تنجح الشرطة في إيجاد الفاعل الحقيقي سيعود بالمحامي ليُخرجها.

- حسنًا، سأراها على الأقل و....

- إياكَ.

صاحت به «دهب»، ولما رأت دهشته عادت لتقول بصوت رصين:

- ألا تعرف أن «شفق» تكره لحظات الفراق؟ ستُصعِّب عليها الأمر أكثر، أرجوكَ لا تؤذها يا «أكمل»، يكفي ما تُعانيه الآن بفراقها لي ولكَ.

نجحت «دهب»، راهنت على جهله بـ «شفق»، مخاوفها وبواعِث ألمها، رهبتها من الأماكن المظلمة والجدران الضيقة، ليلتها السوداء التي أمضتها بين جدران الحجز منذ سنوات بدلًا عن «دهب» عندما اعترفت بقيادة متهورة لسيارة أبيها. لم تخبره بها «شفق»، ولم يسأل هو عن ماضٍ قد يسوؤه إن عرفه، وعن مخاوف قد تزعجه، وعن ألم مدفون تحت التراب حيًّا يُرزق.

كان يكره السؤال عن الماضي بكل ما فيه، وكانت «شفق» أسيرة للماضي بكل ما فيه، فلم يلتقِ زماناهما قط!

هذا هو الثقب الأسود الذي يلتهم جهودهما من أجل إنجاح علاقتهما، أن كل منهما يعيش في زمن مختلف.

الشمس التي حرقت رأسه في الموقع أذابت ما تبقى له من القدرة على التفكير، فرفع أمام فكرة «دهب» الراية البيضاء.

وعلى مقربة من القِسم كان رجل آخر يرفع راية القلق، صفَّ سيارته ودخل القسم في غفلة عن عيني «دهب» و«أكمل». وقف «غراب» أمام أمين الشرطة يسأله عن الفتاة التي أحضروها إلى القسم، فأخبره أن الضابط ذهب في مأمورية، وأنه أمر بحبسها لأربعة أيام.

اهتزَّتْ راية القلق واقتلعتها الرياح من مغرسها، لحظات وآنبتتْ آرضه الخصبة راية جديدة..

راية جزَع!

---

(٦)

الطفل يأتي إلى الدنيا وقد أخذ حقًّا واحدًا من حقوقه داخل الرحم، ويسعى لما له على والديه من بقية حقوق. فحق الرحم بيئة نظيفة خالية من أسقام العلاقات المحرمة، لا يُزرع فيها إلا بميثاق غليظ بين رجل وامرأة، يحفظ للطفل نسبه الأصيل، ويُنبته من طيبات ما رزق الله؛ طعام حلال، وماء زلال.

ثم يأتي إلى الدنيا بصرخته مُطالبًا بسداد ما تبقى له من الحقوق، حق الرضاع مما أودعه الله من خير في صدر أمه، وحق التنشئة في بيئة سوية تحفظ عليه فطرته، وحق اللهو المباح، واللعب والمزاح، وحق المساواة والعدل بين البنت والولد.

وعابَ الدين على الجاهلية كُره البنات، ووأدهن، وظلمهن، وقهرهن.

عظَّم شأن البنت وأكرمها، وجعلها حجابًا لأبيها من النار. والرسول الكريم لشدة حُب ابنته «فاطمة» له ورفقها به كان يدعوها بـ «أم أبيها».

ولأن الله بصير بخلقه، عليم بما في نفوس عباده، اطلعَ بحكمته على ما في صدر «حَمَد»، وكان أقرب إليه من حبل الوريد، فرَزقه بما فيه الخير، والصلاح والفلاح.

عندما تلقَّف «حَمَد» من الممرضة شيئًا صغيرًا ملفوفًا في دثار منتفخ لم يسأل إن كان فتاة أم صبيًّا، خرَّ إلى الأرض ساجدًا، مُعفِّرًا جبينه بالتراب، داعيًا لما بين يديه بحُسن الإنبات، وأن يُصنع على عين الله.

وقف ووجهه مُبلل بالعبرات، بشرته الممرضة بما أغرقه في نوبة بكاء.

- مبارك، رزقكَ الله بنتًا مثل البدر.

نظر بفرحة طاغية إلى وجهها الصغير المُتغِّضن، مست شفتاه جبينها النضر بحنو، نبتتْ بسمة رائقة في عينيه. قال هامسًا وقلبه يخفق بلحن الفرح:

- هي «بدر» إذن.

رفع رأسه ينظر إلى «أم ذيل» والشيخ بعين دامعة ويقول:

- حفيدتكِ «بدر» يا «أم ذيل»، حفيدتكَ «بدر» يا شيخ.

ثم قرَّبها من «بحر» وهو يُخاطب الصغيرة وكأنها تتقن لغة السعادة في صوت أبيها:

- عمكِ «بحر» يا «بدر».

لم يسمح لأحد غيره بحملها، انزوى بها في ركن قصي، يضمها إلى قلبه ويُمطرها بماء العين.

---

(٧)

أي ليلة هي الأكثر سوادًا، تلك التي أمضتها في الحبس في عُمر المراهقة، أم وهي امرأة ناضجة بالغة الرُشد؟

حتمًا ثمة فارق بين الليلتين، فالثانية كانت أكثر قهرًا، لأنها في الأولى ظنت أنها لن تعيش مثلها أبدًا، لكن الآن باتت تعرف أن المستقبل قد يكون أسوأ من الحاضر أحيانًا، وأنها لا تملك تغييره، ولا العبث في أحكامه وقوانينه.

كذلك الليلة هي الأكثر ألمًا، جوعًا، وبردًا؛ لا غطاء تتدثر به، ولا طعام تتقوَّى به، ولا مال تعطيه للعسكري ليُحضر لها ما تحتاج.

بإمكانها إنهاء كل ذلك بكلمة واحدة، لكنها ستحرق بها غيرها.

جلست على الأرض الباردة تمعن التفكير في أمرها. كيف تخرج من هذه الورطة؟ مرَّ طيف «الصوت» بعقلها، ففي ليلة بادرة، وظروف ماحقة، كانت تجلس إلى الأرض العارية كما تفعل الآن، تستمع إلى كلماته، مواساته، حكاياته، عن نجمتين في صدر السماء تُشبهان عيني إنسان، كلما نظر إليهما رجل الصحراء تمكَّن من معرفة مكان حبيبته!

لاحت بسمة فوق شفتيها لتلك الحكاية التي اختارت هذه اللحظة بالذات لتقفز فوق ذاكرتها. أسندتْ رأسها إلى الباب الثقيل، تتذكر كل ما كان يخبرها به الصوت تلك الليلة.

على نفس الأرض وعلى بُعد أمتار فحسب، يفصل بينهما باب متين، افترش «غراب» الأرض ينتظر عودة الضابط من مأموريته. وخلال انتظاره الطويل حاول الاتصال بـ «دهب» مرات ومرات، لم تُجِب، حاول الاتصال بأبيها، فلم يُجِب، حتى إنه بحث عن «أكمل» حول القسم وفي زواياه فلم يجده.

كيف تركها وحيدة ورحل؟ كيف لم يصل الخبر إلى «دهب» فتهرع لنجدة أختها؟ لكن نفسه ألقتْ عليه بالسؤال الأصعب «لماذا يهتم»؟

فأجابها عابسًا بعد بُرهة تفكير: لو وجدتُ من يهتم لابتعدتُ في الظل ولتواريتُ في الزاوية، لكن لا أحد غيري هنا، لا أحد غيري يهتم، ألا يستلزم الواجب الإنساني أن أهتم؟ على الرغم من علمي أنها ما قدمَت إلى العريش إلا لتُفرّق بيني وبين «دهب» انتشلتُ سيارتها من وسط الرمال بعدما تركتني للكلاب تنهشني، أفلا أساعدها الآن وهي التي فهمتْ دليل براءتي دون أن تستخدمه ضدي أو حتى تُلوِّح به كبطاقة تهديد؟

أخرَسَ نفسه بالجواب، فلم تطرح عليه سؤالها ثانية.

سمعَتْ صوت المزلاج فهبَّتْ واقفة، مدَّ العسكري يده بلفافة كبيرة، أخذتها منه وسألته ألم يطلب أحد زيارتها. هبَّ فيها:

- أتحسبين نفسك في فندق خمس نجوم؟

ثم أغلق الباب بقوة. فتحت اللفافة فوجدتْ بخاخًا جديدًا من النوع الذي

تستعمله، وماءً وطعامًا وغطاءً.

الإنسان الذي اعتاد العطاء بغير حساب تسرق قلبه عَطية اهتمام صغيرة، وفِعل صادق. ابتسمتْ دامعة العينين وهي تهمس لنفسها:

«دهب».

شربت حتى ارتوت، وأكلت حتى شبعتْ، ولم تحتَج بعدُ إلى الدواء، وهذا أمر أيقظ شعورًا عجيبًا من مرقده، كيف لم تأتِها الأزمة وهي واقعة تحت هذه الظروف القاسية؟ ممَّ تستمد قوتها؟ أو ممن؟ لفَّتْ الغطاء حول كتفيها تقيهما من البرد الذي نخر عظامها لساعاتٍ.

ومن خلف الباب المغلق كانت نفسه تُحاول إزعاجه بسؤال جديد: هل كنتَ مضطرًا إلى إحضار هذه الأغراض من أجلها؟ لها خطيب، وأخت، أتظن أن أحدهما قد ينساها؟

فألقمها حجرًا ليُخرسها من جديد: أنا هنا منذ ساعات ولم أرَ أحدًا منهما، لا تحاولي البحث عن نية خبيثة أو خُلق وضيع، فلا أنا بالذي أفعل، ولا هي بالتي يُفعَلُ بها.

دنا منه أمين شرطة قائلًا:

- لا فائدة من بقائكَ هنا، الضابط لن يعود الليلة.

اكفهر وجهه واغتمَّ، ابتعد عن القِسم بخُطى بطيئة، عاود الاتصال بأبيها، وبأختها، وعندما لم يتلقَّ جوابًا، وعلى الرغم من أنه يعرف أن النفس التي بين جنباته ستُرهقه بكثرة الأسئلة، وستفحمه بالحُجج والبراهين؛ جلس أمام مقود سيارته، أعاد ظهر مقعده إلى الخلفِ، ثم تجهَّز ليمضي ليلة مليئة بالصراع، واللوم، والغضب.

---

(٨)

أشرقتْ شمسُ صباحٍ جديد، تطلُّ على الأرض بشوق إلى معرفة ما حاكه الليل من أحداث، فأنبأها وجه «حَمَد» أنه أمضى ليلة مُضنية، إذ أخبره الطبيب:

- حياة زوجتكَ في خطر، نُحاول أن نبذل ما في وسعنا من أجلها.

تعكَّرتْ بهجته بهذا الخبر، وأمضى الليلة في المستشفى قريبًا من غرفة العناية المركزة التي نُقِلَتْ إليها. يطلُّ على «عِيدة» حينًا ويمضي برفقة «بدر» أحايين أُخَر.

عرفتْ الشمس أيضًا أن تلك الليلة كانت آثارها غريبة على «بحر»، إذ أمضى بعضها بجوار قبر أخيه «مُسفر»، يُذكِّره الميلاد الجديد بالموت!

كل مولود يُطلق شهقة الحياة الأولى في مكان ما، يطلق أحدهم شهقة موت في مكان آخر، وهكذا لا تخلو الحياة من حولنا من ميلاد وموت.

مسح بيده فوق الحجارة وعفَّر كفه بالتراب وهو يُودِّع أخاه الراقد تحت التراب قائلًا:

- أتيتُ لأخبركَ أن «حَمَد» أنجب بنتًا، وأنكَ صرتَ عمًّا لابنة ما كانت لتولد لو كنتَ ما زلتَ على قيد الحياة، كم الحياة غريبة! أليس كذلك يا «مُسفر»؟ ننسى الألم وكأنه لم يكن، النسيان هو الخدعة الأكبر التي يلعبها علينا الزمن، وفي كل مرة نستسلم لخدعته.

ثم قال باسمًا بإرهاق كشف عنه اسمرار تحت عينيه:

- بالمناسبة، سأتزوج «عينًا»، اتخذتُ قراري، سأستسلم أنا أيضًا لألاعيب الزمن.

ثم مسح فوق التراب مسحة أخيرة وهو يقول آسفًا:

- هناك ما يزعجني يا «مُسفر»، كل فترة أتذكر وصيتكَ الأخيرة، وأغضب لأنني لم أستطع سماعكَ بشكل واضح وأنت تهمس بها في أذني بينما أنت غارق في دمائك فوق الأرض، ليتكَ تحدَّثتْ وقتها بشكل أوضح، وبقوة أكبر، قلتَ لي إنك ارتكبتَ جريمة شرف! وإنك تخاف ألا يُسامحك الله وأنت مُقبل عليه بعد لحظات، ثم قلتَ: وصيتي هي أن.. ثم لا شيء يا «مُسفر»، بدت همهماتك غير مفهومة.

أخذ «بحر» نفسًا عميقًا وهو يتذكر كلمتين وحيدتين تمكَّن من سماعهما من فم «مُسفر» بوضوح تلك الليلة: «فيروز».. «النمر»!

حلَّ الصباح حاملًا معه هموم الليل وأتراحه، أمسك «غراب» بهاتفه وأرسل لـ «دهب» رسالة قصيرة احتار ما يقول فيها، ثم استقر على أن يكتب: «أختكِ في قسم الشرطة، أنا هناكَ، لا بد أنها ستحتاج إلى محامٍ».

بعد أقل من نصف ساعة رأى «عبقرينو» يقترب من القسم، فترجَّل من سيارته وأقبل عليه قائلًا بلهفة:

- هل تعرف شيئًا يا «عبقرينو»؟

أجابه «عبقرينو» بتأثر كبير:

- سمعتُ أن الأستاذة «شفق» في القسم فأتيتُ لأطمئن عليها، لماذا قبضوا عليها يا ريِّس «غراب»؟

هزَّ «غراب» كتفيه حيرة وهو يقول:

- لا أعرف يا «عبقرينو».

لم يسمح لهما العسكري برؤية «شفق» قبل حضور الضابط والسماح لهما بذلك.

فتمتم «عبقرينو» بشجن وهو يبتعد:

- سأذهب إلى العمل ثم آخذ إذنًا وأعود إلى هنا مرة أخرى، لا تستحق الأستاذة «شفق» ذلك، لن أنسى أبدًا فَضلها عليَّ، وأنها هي التي أخذتني للعمل في الشركة، لا تتركها وحدها يا ريِّس «غراب»، سأعود بعد قليل.

قال «عبقرينو» كلماته ثم رحل، لا بد أن برودة الصباح، أو قسوة الليل هما ما جعلا كلماته تحتاج إلى وقت أبطأ من المعتاد كي يستوعبها عقل «غراب».. «هي التي أخذته للعمل في الشركة» كيف؟ «دهب» من فعلت وليس «شفق»!

هل أخطأ «عبقرينو»؟ هل اختلط عليه الأمر؟

وكانت الترتيبات القدرية لصالح هواجسه، إذ إن «دهب» قدمت بسيارتها في تلك اللحظة تحديدًا.

ترجَّلتْ من سيارتها وما زال قلبها يخفق في وجل، رسالته التي أفزعتها وجعلتها تقفز من فراشها وتتجهَّز للحضور إلى القسم كادت أن تطيش بثباتها. ماذا يفعل في القسم؟

ولماذا؟ هل رأى «شفق»؟ هل حادثها؟ هل عرف الحقيقة؟

كل هذه الشكوك طفقتْ تقضم روعها طوال الطريق إلى القسم. وما إن رأته حتى أقبلَتْ صوبه تسأله بانزعاج بالغ:

- ماذا تفعل هنا يا «غراب»؟ لم يكن هناك داعٍ لحضورك.

تجاهل حنقها وسألها مُباغتًا وقد لعبتْ الظنون بعقله وشتته:

- هل أتت أختكِ إلى العريش من قبل؟

بوغتت بالسؤال، خفق قلبها، وآلجِم لسانها! لن تهدآ شكوكه، لن تفنَى وساوسه. انطلق لسانها يجيب مؤكدًا:

- كلا، تلك هي زيارتها الأولى للعريش.

سأل نفسه: الفتاة التي أخذَتْ «عبقرينو» للعمل هي الفتاة نفسها التي التقيتُها من خلف الباب المغلق! لماذا قال «عبقرينو» إن «شفق» هي التي أخذته للعمل؟ هل هي زلة لسان؟

وفي تلك اللحظة حمدت ربها، إذ حضر «أكمل» كما طالبته في اتصالها منذ قليل، فعلت ذلك كي تقطع الطريق على «غراب» فلا يبقَى لوجوده أي مُبرر مقبول. اقترب «أكمل» منهما فسارعتْ بسؤاله تحت مرأى ومسمع من «غراب»:

- «أكمل»، هل أتت «شفق» إلى العريش من قبل؟

أجابها حائر الفِكر من مغزى سؤالها:

- كلا، تلك هي المرة الأولى، لماذا؟

حققتْ انتصارًا كبيرًا، يا لسعادتها اليوم! الآن ستنتهي الشكوك من صدر «غراب»، ستتبدد كأن لم تكن، سيُغلق هذا الباب إلى الأبد.

هكذا ظنَّتْ، ولم تعرف وقتها أن ثمة بابًا آخر للشك سينفتح اليوم!

راقبت قسمات «غراب» وهي تتبدل بين الحيرة والضيق. باغته «أكمل»:

- ماذا تفعل هنا؟

كيف يشرح له ما لا يُشرح؟ وهل سيُصدق أن الأمر كله لا يتجاوز اهتمامًا إنسانيًّا لا غرض من ورائه على الإطلاق؟ وأنه يهتم لأنه لم يجد مَن يهتم؟

بدا الجواب عصيًّا على اللسان، وعلى العقل.

- ارحل من هنا.

هكذا أمره «أكمل»، قالت له نفسه مُتشفيَّة: الآن يوجد من يهتم.

ابتعد «غراب» بضيق وهو لا يجسر على معاندته والإصرار على البقاء؛ البقاء يحمل فوق عنقه ألف معنى ومعنى!

---

(١٠)

هذه المرة فضَّل الذهاب إلى «السخاوية» فوق صهوة حصانه المُرقَّط بالأسود. ربما لأنه أراد أن يُجرب شعور الطيران والحرية لمرة أخيرة قبل أن ينحر إرادته ورغباته الليلة على عتبة «عين».

وكأن الجواد شعر بفوران الدماء في عروق صاحبه، ففارتْ دماؤه، وانطلق كالسهم الفار من القوس المشدود. وما إن أتى بيت «طحنون» حتى رتَّب هندامه، وطرق الباب ثلاث مرات. كما حدث بالأمس، تباطأت زوجة «طحنون» في فتح الباب، وما إن رأت «بحر» أمامها حتى سارعتْ بالإنكار:

- «طحنون» ليس بالبيت.

ثمَّ تنحَّتْ جانبًا وقالت:

- إذا لم تصدقني فها هي الدار أمامك.

والمرأة بحركتها التي ظاهرها البراءة كانت تُبطن من الخبث الكثير؛ تعلم علم اليقين أن «بحر» به من المروءة ما يمنعه من دخول دار صاحبها غائب عنها.

هذه المرة عاملها «بحر» بحزم وهو يقول:

- ألم تخبريه أنني سآتي اليوم؟

هزَّتْ المرأة كتفيها دلالة حيرة، التقط «بحر» نظرة انكسار في عينيها، فغلبتْ رحمته غيظه. قال بلين:

- لا تخافي وأخبريني بمكانه.

تقافزت العبرات من عينيها وهي تخفي وجهها بغطاء رأسها وتقول في رجاء:

- والله يا ولدي لا نملك جملًا لندفعه إليكَ، لا نملك سوى غنمات هزيلات.

ثم قالت بأمل كبير وقد تعلَّقتْ نظراته المتوسلة بوجهه:

- لو تصبر علينا، أو نرد لكَ الدين على فترات، ها يا ولدي؟

أعاد «بحر» كلامه على مسامعها:

- أخبريني بمكان زوجك و...

في تلك اللحظة أقبل «طحنون» من داخل البيت هاتفًا بحدة وقد أذهَبَتْ قلة الحيلة بما تبقَّى في رأسه من ذرة تعقُّل:

- لا أملك دفع دينكَ الآن، هل أقتل نفسي أمامك حتى تستريح؟

أطرقتْ المرأة برأسها أرضًا، تكاد تذوب بخجل، إذ بظهوره أمام «بحر» فضح كذبتها عليه.

قال «بحر» بحزم وفي كلمات قليلة قاطعة:

- اسمع يا «طحنون»، أنتَ في ذمتي لا تساوي شيئًا، وزوجتكَ التي كذبت عليَّ مرتين دون خجل لو ترجَّتني ألف مرة لن أرضخ لدموعها.

غاب رحيق الحياة من وجه المرآة فبدت وكآنها ستفقد وعيها، واغتم وجه «طحنون» وتعلَّقت أنظاره بشفتي «بحر» كالذي ينتظر حكمًا بإعدامه، لكن ما قاله «بحر» دفع بطيور الدهشة لتحط فوق رأسيهما أسرابًا:

- جئتُ بالأمس، واليوم، لأقول لكَ إنكَ في حِل من الدين يا «طحنون».

احتاج «طحنون» وزوجته إلى بضع ثوانٍ كي يستوعبا معنى كلمات «بحر». هتف أخيرًا غير مصدق:

- ماذا تقول؟ هل هذا مزاح يا بن «السوارفة»؟

أجابه «بحر» بحدة:

- وهل قطعتُ كل هذا الطريق مرتين كي أمزح معكَ يا «طحنون»؟

بعدما تأكد من نبرته ونظراته أنه بالفعل قد عتق رقبته من رِق الدين، أقبل على يديه يريد أن يُقبِّلهما، إلا أن «بحر» أبعدهما عنه وهو يقول بازدراء:

- ليس من أجلكَ.

ثم سارع بركوب جواده، فصهل بقوة، ودار حول نفسه دورة كاملة.

التفت «بحر» صوب الرجل وزوجته ليلقي لهما بكلماته الأخيرة:

- إكرامًا لابنتكما التي شهدتْ بالحق.

ثم انطلق مُبتعدًا عن أنظارهما، يُراقبانه بأعين غير مصدقة أنهما نجيا من الدين بهذه البساطة، دوق قيد، أو شرط.

سدَّتْ «دهب» كل منفذ للقلق، طمأنته أن «شفق» ستخرج خلال أيام، وأنها محجوزة بسبب سوء تفاهم.

هكذا دون تفاصيل، وحين سأل عن التفاصيل راوغَتْ، فلم يثقل عليها بالأسئلة، مخافة أن ترميه بالاتهام الذي يرمي به نفسه وتسأله السؤال الأصعب: لماذا يهتم؟

لكنه قُرب انتهاء المكالمة سألها بعدما لاحظ ضوضاء من حولها:

- أين أنتِ؟

- أتناول الطعام في مطعم الفندق.

توقف كثيرًا عند أفعالها تلك. الفتاة التي استمع إلى حكاياتها من خلف الباب المغلق كانت تذوب حبًّا في أختها، تُدافع عنها، تحميها، لا تذُق غمضًا بينما هي تتألم أو مهمومة الفؤاد.

بينما تخبره «دهب» بهذه البساطة أنها «تتناول طعامها في مطعم الفندق»! أي وليمة تلك التي تشتهيها نفسها بينما أختها بين جدران أربعة لا تعرف إن كانت تتألم أو تبكي؟

وبينما «غراب» واقف أمام البحر يتطلع له في شرود غارق في بحور التفكير، اتصلت به «نرجس» لتُعلمه بالقصة الحقيقية!

«شفق» محجوزة لأنها لا تستطيع نفي شهادة البواب بإثبات بُعدها عن الشركة في لحظة الحادثة، وعلى الرغم من أن «نرجس» أتت بنفسها ووقفت أمام الضابط تستنكر أن تكون «شفق» هي الفاعلة، لم يُحرك استنكارها القضية بمقدار شعرة، إذ إنها حسب أقوالها لم ترَ من ضربها، وفقدتْ الوعي بعدها، حتى إن ذاكرتها بخصوص اللحظات الأخيرة قبل الضربة ما زالت مشوشة، لذلك كله لا تُعد شهادتها ذات فائدة على الإطلاق.

وعندما أخبرت الضابط أنها ستتنازل عن القضية صدمها بقوله:

- تستطيعين التنازل عن حقكِ، لكن للدولة حق معاقبة المجرم على جريمة قد تودي بحياة آخرين.

هكذا أخبرها الضابط لتخرج من القسم وتُسارع بالاتصال بـ «غراب» وتقول له:

- أعلم أنكَ رأيتها عند بيت «بشير» في تلك الليلة، هكذا أخبرتني «شفق» في المستشفى، لا أعرف لماذا لم تخبر الضابط بذلك! عليكَ أن تأتي إلى هنا وتشهد لصالحها يا رِيّس «غراب»، حتى وإن كنتَ تكرهها لأنها ابنة الرجل الذي...

لم تستطع «نرجس» أن تستكمل عبارتها، إذ قال قبل أن يُسارع بإنهاء المكالمة:

- حالًا.

قالها ولم يزد! هكذا تبدَّل الموقف في لحظة، وبينما كانت «دهب» تشرب

الشيكولاتة الساخنة في شرفة الفندق، لم تعرف آن «غرابًا» قد اقترب من «شفق» خطوة أخرى، على الرغم من كل جهودها كيلا يفعل.

تذكَّره الضابط فور أن دخل مكتبه، الرجل الذي منعه من وضع القيد في معصميها. فعاجله:

- ومن تكون أنتَ؟

أجابه «غراب»:

- عامل في الشركة.

ارتفع حاجبا الضابط وهو يُكرر من خلفه:

- عامل في الشركة! عظيم، إذن أخبرني ماذا تعرف عن الحادثة؟

عندما ساقها العسكري صوب مكتب الضابط كان آخر شخص توقعت رؤيته في تلك الغرفة الخالية هو «غراب»! أمرها العسكري أن تجلس ريثما يعود الضابط إلى المكتب، فاحتلَّت المقعد المواجه لـ «غراب».

يقول الحُكماء إن الشيء الذي تبحث عنه طويلًا قد يكون بمنتهى البساطة ماثلًا طوال الوقت أمام عينيكَ! لا يعرف أي منهما أن الصوت الذي سمعه كل منهما في الظلام تلك الليلة يجلس صاحبه الآن أمام عينيه!

وأن هناك جسرًا طويلًا من حكايات النجمات، واعترافات الماضي، وآلام الحاضر، ومخاوف المستقبل قد جمع بين عالميهما عندما أفضَى كل منهما للآخر من خلف الباب المغلق بكلمات هي أشبه بأحاديث النفس للنفس.

يسهل علينا الحديث إلى الغرباء بينما نُفضِّل التحلِّي برداء القوة أمام الأقربين، نخشى أن تهتز صورتنا في أعين تعرفنا، ونشعر براحة أكبر في التعرِّي أمام أعين لن نلتقيها مرة أخرى.

سألته بدهشة:

- ماذا تفعل هنا؟

- بل ماذا تفعلين أنتِ هنا؟

نطقت قسماتها بالإرهاق والتعب، كذلك كانت قسماته تبوح مع كل إماءة.

- لماذا لم تخبري الضابط؟

سألها بخفوت. تقاعست عن الجواب للحظات. دفعته ليقول:

- أعرف الجواب، لكنني أريد أن أتأكد.

شعرت بتوتر غريب وكأنها مُذنبة، وكأن جوابها تُهمة في حد ذاته. بحثت عن الصياغة الأفضل له، ثم قالت:

- اسمع، أنا أعرف أساليب المحامين، إنهم يبحثون بشَرَهٍ عن ثغرات

القانون، وإن عثروا على واحدة يُقحمون فيها كل شيء، الحقائق والأكاذيب، فيختلط الأمر على القاضي، ويعجز عن الرؤية بوضوح.

بالهدوء ذاته قال:

- ما زلتِ لم تجيبي عن سؤالي.

زفرت بقوة ثم قالت:

- لم أرغب في أن يربط محامٍ ما بين القضيتين، يعني.. ظننتُ.. ربما يحدث أنني قد أضطرُ إلى الشهادة في قضيتكَ.. وعندئذ.

هربت منها الكلمات، لكن هزَّة رأسه أعلمَتها أنه حصل على بغيته، هل كان هذا هو الجواب الذي ينتظر سماعه؟ كيف خمَّنه؟

هل نظر من زاويته ورأى أن صمتها يصب في صالحه فجاء يرجوها ألا تتحدث؟ هي في الحقيقة ليست بتلك القوة، ولا تعرف كم بإمكانها أن تصمد حبيسة داخل جدران أربعة، وهل ستجد طريقة للتخلص من تلك الورطة أم ستضطر إلى أن تطلب منه المساعدة.

دار كل ذلك بخلدها ثم قالت له:

- لا تقلق، لن أقحم اسمك في القضية، لكن لأكون صريحة معكَ، إن لم أجد حلًّا آخر.. سأكون مضطرة إلى أن...

انفتح الباب فلم تتمكن من إتمام عبارتها، بدت أمارات وجهه غامضة لا تشي بما يُفكر فيه أو يشعر به. كانت ما تزال تُحاول سبر أغوار أفكاره عندما جلس الضابط في مقعده وفاجأها بقوله:

- كان عليكِ أن توفري على نفسكِ ليلة طويلة في الحبس يا أستاذة «شفق»، وتخبرينا بأن هذا الرجل يملك حُجة غيابك عن موقع الجريمة.

شهد لصالحها دون أن يعبأ بمصلحته الخاصة! عادت لتتطلع إليه، كان غارقًا في التفكير، وكأنه يجلس أمامها بجسده، لكن عقله غائب في مكان آخر، وزمان آخر!

بينما حصانه منطلق متجاوزًا حدود أرض «السخاوية» قابل في المرعى المفتوح راعية غنم شنَّفتْ سمعه بصوتها الندي، تُدندن بأغنية بدوية قديمة اعتادت راعيات الغنم التغنِّي بها لتجلية الوقت، وأحيانًا كانت تُدندن بها أم «ذيل» من بقايا الزمن الجميل.

وجَّه خطم حصانه صوب راعية الغنم، فلمَّا دنا منها واقترب من غنماتها أضحى صوتها أكثر وضوحًا؛ عرفها، ميَّز صوتها، إنها تلك الفتاة التي نطقت بالحق ولم تخشَ في الله لومة لائم.

ذكَّرته براعية الغنم البدوية التي كانت تجوب صحراء سيناء مُتظاهرة برعي غنماتها بينما تدُس الألغام في مواطئ قدم اليهود. شعر بخسَّة من يتمتع بشيء لا يخصه، لماذا يقف مُتسمرًا على صهوة جواده يسترق السمع إليها؟

لام نفسه وكاد ينصرف، لكن الفتاة التفتتْ في هذه اللحظة وأطلقت شهقة عالية.

نزل من فوق جواده وقال رافعًا كفه:

- لا تخافي؛ لم آتيكِ في شر.

عيناها المُكتحلتان وكفَّاها النضرتان هو كل ما كان يتبدَّى منها، وعلى الرغم من ذلك شعر أنه رآها من قبل، أو يعرفها منذ زمن طويل. ولكي يُزيل خوف الفتاة، قال بصوت رخيم وكأنما يُلقي بسحرٍ على أرض جدباء فتزدهر في الحال:

- أنا «بحر» ابن «السوارفة».

فلم يخفف إفصاحه عن هويته من نظراتها المتحدية، ولم يُلين وقفتها المتخذة وضعية دفاعية.

فتنحنح قائلًا:

- لا تخافي؛ أنا أسقطتُ عن أبيكِ الدين.

ما بال هذه الفتاة التي تخشَّبتْ في مكانها وكأنها صنم؟ لماذا لم يند عنها كلمة أو حركة أو حتى نظرة شكر؟ يقول لها أنا «بحر» فلا يرف لها جفن، أسقطتُ الدين فلا يتحرك لها طرف.

عدَّل من ياقة جلبابه الأبيض وهو يقول:

- لا حاجة لشُكري، بل في الواقع أنا من أشكركِ.

هنا أتت الفتاة بأغرب ردة فعل قابلها في حياته، رفعت عصاها التي تهش بها على غنماتها وقالت:

- هششش!

ظهرت البلاهة على وجهه! هل ما سمعه صحيح؟ هل قالت «هششش»؟

حاول آن يدنو منها خطوة آخرى فكررت فعلتها، حركتْ عصاها و:

- هششش!

وكأنه ذبابة وقفت على طبق حسائها! أو غنمة شردتْ من وسط قطيعها!

«بحر» ابن «السوارفة» يُقال له «هششش»، هل فقدت عقلها؟

أبوها كاد يُقبِّل يديه منذ قليل، وابنته تقول له «هششش»!

هتف بها:

- أقول لكِ تنازلتُ عن حقي، فتقولين لي «هششش»؟!

تحدَّثتْ بصوتها القوي تقول:

- إن كنتَ تنازلت عن حقكَ لتشتري مني كرامتي فليستْ كرامتي بغرضٍ يُباع، وإن كنتَ تنازلت عن حقكَ لتُسلسل رقبتي بدينكَ فقد خُلقتُ روحًا حُرة تَنفر من القيد، وإن كنتَ تنازلت عن حقكَ لتدنو مِني متى يحلو لكَ فسماحي بهذا غير مُستطاع، أما إن كنتَ فعلتها لله، فالله من فوق سبع سماوات يُكافئكَ بأجر ما صنعتَ.

ساقت غنماتها بعصاها ومضت في طريقها، وقف «بحر» مكانه يتلمَّظ من الغيظ!

---

(١٣)

أخذتْ «نرجس» تروح وتغدو في قلق، وما إن رأت «شفق» تخرج من القِسم مع «غراب» حتى أقبلت عليها تُعانقها بلهفة، تنظر من خلف ظهرها إلى «غراب» وتسأله بشوق:

- هل أطلقوا سراحها؟

أومأ برأسه إيجابًا، فانفجرت باكية وهي تهمس لها:

- آسفة أن عانيتِ هذا بسببي.

أبعدت «شفق» رأسها تستنكر قولها:

- وما ذنبكِ يا «نرجس»؟ الحمد لله انتهى الأمر.

تطلَّعتْ «نرجس» إلى «غراب» بعرفانٍ وهي تقول شاكرة:

- شكرًا لكَ يا ريِّس «غراب».

أشار صوب سيارته ونطق بكلمة واحدة باقتضاب:

- سأوصلكما.

انطلق بالسيارة بينما الفتاتان في المقعد الخلفي تتشبَّث كل منهما بكف الأخرى. يحاول أن يمنع نفسه من استراق النظر إليها عبر المرآة الأمامية، وما أصعب ذلك! كأنه يُجاهد في حرب غير مُتكافئة.

وجهها مغناطيس، وعيناه بُرادة حديد، ألهذا السبب تعدُّ مقاومة الشهوات في مَقام الجهاد؟

تلاقت أنظارهما عبر المرآة فصُعِق كأن كهرباء سرَت على طول عروقه، للأختين الوجه نفسه، التقاسيم نفسها، لكن العين نافذة الروح، وتلك الروح الجالسة خلف ظهره تُذكِّره بروح التقاها في ليلة ظلماء من خلف بابٍ مغلق.

لكن هذا مستحيل، هذا يعني أن «دهب» خدعته، وخدعتْ أختها، وخدعت نفسها كذلك! نفَّض تلك الفكرة عن رأسه وهو يهمس بصوت لم يشعر بأنه قابل للسماع:

- مستحيل، هي لم تأتِ إلى العريش من قبل.

انتبهت الفتاتان إلى كونه يتحدث، فسارعتْ «نرجس» بسؤاله:

- هل تقول شيئًا يا ريِّس «غراب»؟

تغضَّن جبينه بشدة ولم يُجِبها، فمالتْ صوب «شفق» تهمس في أذنها:

- هذا الرجل غريب جدًّا.

همست لها «شفق» بخفوت مماثل:

- لماذا؟

لم تدرِ «نرجس» كيف تُعبر عن إحساسها في كلمات، فاكتفَتْ بأن هزَّتْ كتفيها في حيرة وهي تهمس:

- هل تعرفين آنه آمضى ساعات طويلة جالسًا على الأرض في القِسم في انتظار عودة الضابط، وعندما طالبه أمين الشرطة بالرحيل أمضى الليلة نائمًا في سيارته؟

هتفت «شفق» مضطربة وهي تهز رأسها بقوة:

- لماذا يفعل ذلك؟

عادت «نرجس» تميل عليها لتهمس بحيرة:

- أمين الشرطة أخبرني.

الشعور الذي خلَّفته كلمات «نرجس» أزعجها بشدة، قطبتْ جبينها، ولوتْ عنقها تنظر من نافذة السيارة بينما تعض شفتها السُفلَى بقوة.

تنازع شعورًا آخذًا في شن حرب ضَروس على مشارف حصنها الآمِن، يُسقِط دفاعاتها ببطء، لكن بقوة وثبات!

يحسبه الآخرون كاتِم أسرار، وساترًا للعوَار، ومُتسترًا على الفضائح، لكن كاتم الأسرار حامل الأمانة يموت السر في صدره كأن لم يكن، ولا يُبعثه من مرقده أبدًا.

أما «مستور» فيحلو له الستر حينما يشاء، والكشف حينما يشاء، وفقًا لمصالحه الخاصة. ومِثله لا يحب أن يتوارى في الزاوية، وأن ينسى الناس أفضاله. من يجرؤ على النسيان يُذكِّره بهتك الستر عن سره.

سيتعاون مع الرجل القادم إليه بعد القليل، ومثلما تعاونا في السابق على كتم السر والتستر على جريمة شنعاء، سيتعاونان مرة أخرى على فضح السر لنيل ما يستحقه من الهيبة والتقدير.

سمع خطوات من خلفه، فاستدار في الحال، تطلَّع إلى وجه الرجل الذي سكتَ من أجل المال، وسيعرف كيف يجعله يتكلم أيضًا من أجل المال.

هشَّ وجه «مستور» وهو يُحييه قائلًا:

- أهلًا أهلًا، كيف أحوالكَ يا «بشير»؟!

دُنيازاد

الشكُ في الناسِ طبعٌ خبيث
يصطاد فلتاتِ الحديث
يقتات على الزلَّات والعثرات

مثل جِفنة من البراغيث!
أما الحذَرُ فطبعٌ كريم
يحمي مِن الغدر امرَأً أصيلًا
من طعنةٍ في ظهرهِ
أو هَجمة من فُسَّاقٍ أبابيل!
لا يغني حذَر من قدَر
فالحياة سكة سَفَر
فيها سهول وجبال
وخُضرة وماء ورمال
بلاد تحدوها السباع
وبلاد تُطوِّقها القِلاع
وأناسٌ متباينة الأشكال
الطبائع والأخلاق والألوان!
فمن يصبر على مخالطتهم
يفوز بأجر مجاهدتهم!
خُلِق الإنسان في كَبَد
في مشقة وتعب وكَمَد
فالإقبال على الدنيا هَدَر
والإعراض عن الجنة بَطَر!

الليلة الحادية عشرة

حياتنا لا تحتاج إلى معجزة لتستقيم،
بل لفتة حُبٍّ
من قلبٍ يَعرف كيف يُحب.

(١)

الشمس التي مالت تتدحرج ظنَّتْ أن بلمسها الأرض ستقفز عاليًا مرة أخرى إلى كبد السماء، لكنها ما إن لامسَتْ الأرض حتى ذابت في تُرابها.

تلفَّت «بشير» حوله يتأكد من أن أحدًا لا يُراقبهما، فضحك «مستور» ملء فمه وهو يقول:

- مَن يخاف مِن العفريت يظهر له يا «بشير»، جمِّد قلبك يا رجل.

حافَظَ «بشير» على المسافة بينهما وهو يسأله بصبر نافد:

- أيُّ لعبة تلك التي تريدني مِن أجلها، ماذا تريد يا «مستور»؟

- «مستور»، دون «ريِّس»! عجبتُ لكَ يا زمن.

تظاهر «بشير» بالجَلَد، بينما أطرافه ترتجف وتكاد تلتف على بعضها:

- زوجتي وأولادي ينتظرونني في البيت، قل ما عندك كي أنصرف.

انقلبت سِحنة «مستور»، نفد صبره، هجم على «بشير» وأمسك بتلابيبه يهتف به:

- تحدَّث معي جيدًا وإلا سأكشف المستور يا «بشير»، بمَن تثق؟ بأصدقائك العمال الذين قد يُطرَدون في أي لحظة، أم في «غراب» الذي لو عرف حقيقتكَ لن ينظر إلى وجهكَ مرة أخرى؟ أم في المال الذي أخذته وأخفيته تحت البلاطة؟ بالمناسبة أين هذا المال؟ لماذا لا يبدو عليكَ النعمة يا رجل يا فقر؟

خلَّص «بشير» قميصه من قبضة «مستور» وهو يصيح:

- اللعنة عليكَ وعلى اليوم الذي جئتكَ فيه، واللعنة عليَّ لأنني قبلتُ المال، لا أنام، مِن يومها وأنا لا أنام، لا أستطيع أن أزيل عن يدي الدماء الملتصقة بها كالعَلَقَات.

تفلَّتتْ أعصاب «بشير» من عِقالها؛ أردف يهذي دامع العينين:

- كيف بِعتُ دم إخوتي لواحد نجس مثلكَ، كيف استطعتُ أن أفعل!

ثم قال وهو ينظر إلى «مستور» مُشمئزًا:

- كان عليَّ أن أسلِّم هذا الفيديو إلى الشرطة، وليس لكَ، ما كان عليَّ أن أقبل المال مقابل سكوتي عما رأيت، الساكت عن الحق شيطان أخرس، ما كان عليَّ أن أتحول إلى هذا الشيطان.

شَعَر «مستور» بالخطر، وبأنه على وشك أن يُفقِد «بشير» ثباته. خفف من حدته وهو يقول مُتظاهرًا بمحبته:

- يا «بشير» أنتَ رجل عاقل وفي عنقك زوجة وأولاد وأم مريضة وأب عاجز، ماذا كان بإمكانكَ أن تفعل غير ذلك؟ تذهب إلى الشرطة؟ وماذا ستقول لهم؟ في يوم سقوط البنايات كنت شاهدًا على كل شيء، وأنكَ رأيتَ الفاعل يحوم حول المبنى في وضع مريب؟ وأنكَ رأيته يدُس أشياء ويدفنها

عند الأعمدة الأساسية للبناء، وأنكَ لم تفهم وقتها ما كان يفعله، فأخرجت هاتفكَ وقمت بتصويره ثم نسيت كل شيء وكأنه لم يكُن، وأنكَ عندما سمعتَ صوت الانفجار في نهاية اليوم ورأيتَ البنايات تسقط فوق رؤوس العمال فهمت وقتها ما كان يفعل هذا المجرم، وأنكَ دخلتَ في حالة صدمة بعدما رأيتَ ما حدث لأصدقائك أمام عينيك، وأنك أخبرتني بكل ذلك بدلًا من التوجه للشرطة، وأنني كنتُ وسيطًا بينك وبين أصحاب «شركة النمر»، وقايضتكَ بالمال مقابل صمتكَ وحذْف الفيديو ونسيان كل شيء للأبد، هل ستخبرهم بكل ذلك؟ ثم ماذا بعد؟

هل ستعلق الشرطة في صدرك النياشين ويمنحونك ألقابًا بطولية؟ أم سيزجُّون بكَ في السجن لأنك أخفيت معلومات عن التحقيق وقبلتَ بالرشوة؟ وماذا سيحدث لزوجتك وأولادك وأمك وأبيك عندئذ؟ مَن الذي يُطعمهم ويرعى شؤونهم؟ ألا ترى إنها فكرة سيئة جدًّا يا «بشير»؟

انهار «بشير» أرضًا يبكي قهرًا؛ لا شيء ينفع لإسكاتِ ضمير لا يصمت، لا مال ولا دواء ولا طبيب نفسي استطاعوا لَيّ عنق ضميره كي يسكت، ويكف عن وخزه. صحيح أنه لم يفعل شيئًا، لكن عدم الفعل يتساوى والفعل أحيانًا. المجرم هو مَن يفعل، ويساويه في الجُرم مَن يرى ويكتم شهادة الحق!

افترش «مستور» التراب بجواره وهو يقول:

- نعم هكذا، اهدأ يا رجل، وفكر بذكاء، أنا أريد أن أشتري منكَ هذا الفيديو مرة أخرى.

رفع «بشير» رأسه ينظر إليه بدهشة، فقال «مستور» بخبثه المعهود:

- اسمع يا «بشير» أنا أعلم جيدًا أنكَ حذفتَ أمام عيني الفيديو من هاتفكَ، لكنني أشعر أيضًا أنكَ احتفظت بنسخة أخرى منه، لأنني لو كنت مكانكَ لاحتفظتَ بنسخة أخرى كي أساوم بها أصحاب «شركة النمر» مرة أخرى عندما ينفد مالي، أو عندما أحتاج إلى خدمة، وأثق أنكَ فعلتَ ما كنتَ سأفعله لو كنت مكانكَ.

«مستور» يلوي عنق الحقيقة، «بشير» لم يُساوم، بل أُكرِهَ على الصمت مخافة نفوذ أصحاب الشركة، مخافة أن يؤذوه في نفسه أو أهله. هكذا أخبره «مستور» وقتها، لكنه يُظهِر الأمر الآن وكأنه كان مساومة.

كل إنسان يُعامل الناس بعين طبعه، و«بشير» بالفعل قد احتفظ بنسخة أخرى من الفيديو، أخفاها في مكان أمين، لا ليُساوِم عليها عند الحاجة، بل ليُنقذ بها «غراب» إذا ما التفَّ حبل المشنقة حول رقبته، فيثبت بأنه ليس الفاعل.

فلماذا يُريد «مستور» الفيديو الآن؟ بالتأكيد لا ينوي أن يُظهر به براءة «غراب»، بل يرغب في مساومة أصحاب الشركة لصالح مطامعه الخاصة. لذلك ما إن استمع لكلمات «مستور» حتى هبَّ واقفًا، وبصق أرضًا وهو

يقول:

- ملعون ابن ملعون إن كررت الخطأ مرتين، لا أملك نسخة أخرى، وأعلى ما في خيلكَ اركبه يا «مستور».

قالها وانصرف مُغاضبًا. أمسك «مستور» بحجر وطفق يدق به الأرض وقد ملأه رفض «بشير» حقدًا على حقد. الفيديو كان وسيلته ليُساوم أصحاب الشركة، يُهددهم بكشف المستور، ليعرفوا أن «مستور» لحمه مُر لا يؤكَل.

وما دام «بشير» الغبي قد أفسد عليه بطاقته الرابحة، سيتظاهر أنه يملكها، سيبدأ عملية المُساومة وليرى إلى أين سيُفضي به هذا الطريق.

وخلال ذلك لن يترك «غراب السيناوي» وشأنه، سيكشف سَتر جريمة الشرف التي ارتكبها. كل ما يعرفه أن «غراب» متورط في جريمة وثمة مَن يبحث عنه ليقتله!

لا يعرف تفاصيل الجريمة ولا هُوية هذا الرجل الذي يبحث عنه، هكذا استرق السمع في الشركة في وقت متأخر، داخل الرواق المُفضي إلى مكتب المهندس «منعم».

استمع إلى ما بدا أنه بقايا حديثٍ مُنتهٍ، عندها قال «منعم» للرجل الواقف أمامه بصوت خافت:

- صحيح أن «غراب السيناوي» متورط في جريمة شرف وهناك رجل يبحث عنه ليقتله، لكن الأمر تمامًا كما أخبرتكَ، والآن التزم الصمت، ولا تتحدث به مع أحد حتى لنفسكَ.

وقتها توارَى «مستور» وراء الجدار، وعندما أطل برأسه مرة أخرى رأى الشخص الذي كان يتحدث إليه المهندس «منعم» يَعبُر الرواق بعد انتهاء حديثهما، إنه «عبقرينو» عامل البوفيه!

هذا الساذج يمتلك معلومات أكثر أهمية مما يظن، عليه أن يجبره على أن يبوح له بكل ما يعرفه عن «غراب السيناوي» وجريمة الشرف.

لن يحصل على شيء من المهندس «منعم»، فهو لا يتدخل فيما لا يعنيه، لا يقف مع الحق، ولا ينصر مظلومًا، كتم سرّ «غراب» فقط لأن هذا الأمر لا يخصه، ولم يدافع عنه في قضية العمال فقط لأن هذا لا يخصه، إن تحدث إليه «جبار» لن يحصل منه على شيءٍ. عليه أن يستفيد من «عبقرينو» إذن.

هكذا يُفكّر الطفيلي دائمًا، يمضي حياته مُتنقلًا من عائل إلى آخر، يتغذّى على زلّات الآخرين وأسرارهم المدفونة في مقابر النسيان.

الشك الذي نهَشهُ طوال الطريق ألهبَ أعصابه، وأوصل مشاعره لذروتها. ما إن أوقف السيارة أمام الفندق، وترجَّل منها الفتاتان حتى دار حول السيارة ووقف أمامهما يُحاول استجماع أفكاره. شكرته «شفق» بصوت هدَّه الإرهاق إثر نومها في الحبس الليلة الماضية:

- شكرًا لكَ.

وبدلًا من التمتمة بكلمات والذهاب، طالت وقفته الصامتة. سألته «نرجس»:

- هل تريد أن تقول شيئًا يا رِيّس «غراب»؟

وكأنها فتحتْ بكلماتها بوابة لسؤاله الذي قفز في الحال:

- مَن الذي عَيَّن «عبقرينو» في الشركة؟

بدا السؤال غريبًا، في زمانه ومكانه. هكذا فكرت الفتاتان وهما تنظران لبعضهما بدهشة كشفتها قسمات وجهيهما. أجابته «نرجس» إجابة حاسمة:

- «دهب» مَن عيَّنته، لماذا تسأل؟

صدمه الجواب! بدا على وجهه آثار خيبة أفضَت لحيرة بالغة، لم يكتفِ بجوابها؛ تحرَّك صوب «شفق» يُريد أن يسمع الجواب منها. هزَّتْ كتفيها بحَيْرَة وقالت مؤكدة:

- هذا ما أعرفه أنا أيضًا، «دهب» هي التي عيَّنته.

هكذا إذن، لم يكُن كل ما دار بخلده سوى وساوس وشكوك! ما كان عليه أن يأخذ كلمات «عبقرينو» على مَحمل الجَد، لا تؤخَذ زلَّات اللسان كحُجة وبُرهان.

دار على أعقابه مُغادرًا بوجوم دون تحية وداع، وما إن ابتعدت السيارة حتى كررت «نرجس» بحاجبين مرتفعين:

- ألم أقل لكِ، رجل غريب جدًّا!

وفي غرفة الفندق، انتظرتها «نرجس» حتى تنتهي من حمام دافئ طويل. تنامى إلى مسامعها صوت بكائها من خلف الباب؛ غرقتْ «نرجس» في هَمّ التفكير.

وعندما انفتح الباب ووقفت الصديقتان أمام بعضهما كانت عيونهما تقول الكثير، تتحدث بجُرأة تهابها الكلمات. فهمت كل منهما الحقيقة التي تدور في رأس الأخرى.

تضخَّم الشك حتى صار كُتلة من اليقين؛ تصرفات «دهب» الغريبة، قراراتها غير المتزنة، أقوالها، أفعالها، كل شيء فيها كان يثير شهية «نرجس» وخلفيتها الدراسية المُتعلقة بالطب النفسي.

ولأنها تعرف صديقتها تمام المعرفة، خمَّنت أنها ستُفضّل الإنكار. لا نُنكر الحقيقة لأننا نخاف مواجهتها فحسب، بل لأنها ستُقلب عالَمنا الآمِن رأسًا على عقب.

الحقيقة تُخلِّف من ورائها شظايا علاقات غير صالحة للوصال، وشظايا مشاعر غير صالحة للشفاء، وشظايا أفكار غير صالحة للتفاؤل بالمستقبل والمُضي قدمًا.

الحقيقة مُخيفة لأولئك الذين يُفضِّلون التشبُّث بالأوهام؛ وهم الأمان، وهم الحب، وهم أن العالم مكان جميل يصلح لأن يُتَّخذ كدار مقام أبدية.

ولأن الإنكار يحتاج إلى ما يكفي من المبررات، فكّرتْ «شفق» أن «دهب» قد تكون ضربتْ «نرجس» بغير قصد، خطأ وقعت فيه وخرج الأمر عن السيطرة، خافت وهربت، ثم انزوت في أحد الأركان تبكي مثلما كانت تفعل في صغرها عندما تأتي بفِعل قبيح.

هي نادمة الآن، لم تقصد أن تؤذيها، هذا ببساطة مستحيل! تمددتْ «شفق» دون كلمة فوق فراشها، فدنت منها «نرجس» كي تُدثّرها وتهمس لها:

- لا تفكري في شيء نامي الآن.

«نرجس» التي لا تُعاني مثل صديقتها عقدة «الإنكار» قررت أن تساعد صديقتها على مواجهة الحقيقة. سقطتْ «شفق» تحت سلطان النوم، تحركت «نرجس» وفتحت خزانة ملابسها بحذر، أخرجت الصندوق المغلق، نظرت إليه طويلًا ثم فتحته ببطء لتجد الشعرة الذهبية لا تزال بداخله، تنهدتْ بإشفاق وهي تنظر إلى «شفق» النائمة وتهمس:

- ليتكِ تُقررين مواجهة الحقيقة المحبوسة في هذا الصندوق.

أعادت الصندوق مكانه وأغلقت الخزانة وهي تهمس بأسى:

- لكن عندها ستضطرين لمواجهة نفسكِ أيضًا، وستكتشفين أنكِ صنعتِ وحش «فرانكشتاين» بيديكِ!

---

(٢)

عندما أخبرته الممرضة أن زوجته تم نقلها إلى غرفة عادية، سابق الريح حاملًا «بدر» بين يديه. ولجَ الغرفة تبحث عيناه عن وجهها بلهفة، رآها تتحدث إلى الطبيبة، افتر ثغره عن ابتسامة واسعة.

خرجت الطبيبة بعدما طمأنته على صحة «عِيدة». جاورها في الفراش وهو يقول لها:

- حمدًا لله على سلامتكِ يا «عِيدة».

قرَّب «بدر» منها قائلًا بحنان طاغٍ:

- انظري كم هي جميلة.

دفعتْ عنها يده المُحمَّلة بالطفلة، تجز على أسنانها قائلة:

- ابعدها عني!

لن يتغير الوضع القائم بينهما، أحسنَ الظن كثيرًا حتى رجع مُحملًا بالخيبات. ظن أنها ما إن تفتح عينيها وترى الطفلة سيرقّ لها قلبها، ألا يُولَد الأطفال وفي اللحظة ذاتها تُولَد في قلوب أمهاتهم عاطفة الأمومة؟
أين عاطفتكِ يا «عِيدة»؟ هكذا تساءل في نفسه مُغتمًّا.

أما «عِيدة» فقد تسرَّب البؤس من بين مسامها، بؤس برائحة القهر. لن ينتهي أسرها أبدًا، ستظل نبتة شاذة في أرض غريبة، ووسط حقول من الزرع النافِر منها. هذه الطفلة تشدها إلى هذه الأرض أكثر، تُقيِّدها بكل ما تكره.
نادته الممرضة، فارَق «عِيدة» بوجه متجهّم، وفي الخارج بادرته الطبيبة:

- زوجتكَ تُعاني اكتئابَ ما بعد الولادة.

صرختْ الطفلة مُعلنة احتجاجاتها؛ مطالبة بحقها في حليب أمها. ضمها إلى صدره بإشفاقٍ وهو يتمتم في نفسه بألمٍ: جاهلة هذه الطبيبة، لا تعرف أن «عِيدة» تُعاني اكتئابَ ما بعد «حَمَد».

في بيت عمّه «برهوم»، جلس «بحر» بين رجال العائلة، تمر عليهم كؤوس الشاي وفناجين القهوة العربية، يحتفون بليلة بهيّة، سيطلب فيها ابن شيخهم الزواج من ابنة عمّه المصون، وستزداد بيوت الأشراف واحدًا.
سيُرزَق منها بالأولاد والبنات، وسيُربَط الابن الهائج بلجام الأعراف والعادات، لن يجسر على المطالبة بالسفر الطويل مرة أخرى، لا من أجل دراسة أو عمل، ستنغرس جذوره في أرض القبيلة حتى تبلغ الأعماق. سيسكن البحر وتهدأ أمواجه، ويتحول إلى بحيرة هادئة معلوم أولها من آخرها.

هنّأ الشيخ نفسه، وهنّأ العم نفسه. أمر العم بمغادرة الجميع إلا مَحارِم الفتاة، وأمر النساء من خلف الأبواب أن يُدخِلن «عين» إلى المجلس كي ينظر «بحر» إلى وجهها الذي حُجِبَ عنه منذ أن خرجتْ من شرنقة الطفولة.
تبدَّتْ «عين» في رداء طويل مزخرف، أحمر وأصفر، مثل ألسنة النار، ومن

وجنتيها برز اللون الأحمر الطبيعي، جنبًا إلى جنب مع الاصطناعي. تكحّلتْ العين، واصطبغتْ الشفاه بلون وردي.

جلست أمامه يتآكلها الخجل، والبسمة تتسابق لتسكُن شفتيها وعينيها. صوت أبيها يرن في أذنيها:

- انظر إليها يا «بحر».

بسمة مسكينة، وأدَها «بحر» فور ولادتها، إذ أطرق برأسه أرضًا وهو يقول:

- لا داعيَ لذلك.

كيف بإمكانه أن يكون بهذه القسوة؟ ألا يجد داعيًا إلى النظر في وجهها؟ ألا يحدوه الفضول ليعرف شكلها؟

يأتي ليطلبها زوجة لعمر طويل دون أن يهتم بنظرة واحدة يلقيها صوبها، لم تبلغ حتى من قلبه منزلة جماله؛ يُسافر البلاد ويعبر الحدود ويخترق البحار من أجل أن يلقي نظرة على جماله قبل شرائها، تُرسَل إليه صور الجمال فيتأمل في شكلها، وحجمها، ووزنها، وأصالة نسبها قبل أن يضمها إلى قطيعه.

ألم تبلغ حتى منه منزلة صغير الهجن الذي أمضى بجواره ليلة كاملة يُداعبه ويتأمل ملامحه؟ رضيتْ أنها تكون ربع امرأة في عينيه، لكنها الآن تشعر أنها لم تبلغ منه منزلة بلغها أحد حيواناته.

رمقته فرأته يغرس عينيه في الأرض، وعلى وجهه أمارات التفكير العميق. غاب عن عِلمها أنه وهو جالس قبالتها ارتحلتْ أفكاره إلى أرض «السخاوية»، إلى أطراف حدودها حيث ترعى البدويات الغنم، وتحديدًا استقرت أفكاره عند البدوية التي تجرَّأت على أن تقول له «هششش».

ما أقوى كلماتها، للغرباء هي قاسية مثل قشرة الجوز، تخفي في قلبها الطيب كله، لا يُخطَب وِدها بسهولة، ويحتاج اختراق حصونها فتحًا مبينًا.

عرفَتْ كيف تُلجم لسانه حين جرؤ على الاقتراب منها في ساحة خالية، أغاظه ذلك، لا ينكر، لكن الغيظ جسر خفي للإعجاب أحيانًا.

ولدهشته لم يجد في قلبه شعورًا بالإثم وهو يخوض في التفكير عنها وفيها بينما يجلس قبالة «عين» طالبًا لوصالها من أبيها.

حاجاتُ العقلِ لها حالٌ يسعى فيها، وأما حاجاتُ القلبِ فلها شأنٌ يُغنِيها. أثنَى الرجال على موقفه، ولم يشعر أي منهم بالنار التي اشتعلت في قلب «عين». خرجت سريعًا كي تخفي ماء عينيها، أغلقت باب غرفتها، مسحت الأسود والأحمر والوردي. ليتها تملك مقدار شعرة من شجاعة فتخرج عليه مرة أخرى وتقول له: لا أراكَ يا «بحر» تمامًا مثلما لا تراني.

لكنها تعرف أنها لا تملك، لم يسمحوا لها بأن تملك، ولا تعرف أين تُباع الشجاعة ولا بكَم تُشترَى.

تاهتْ في غيابات حلم طويل مزعج، تجري ومن خلفها تركض وحوش ضارية تبغي الفتك بها.

أخرجها من براثن الوحش صوت طرقات قوي على الباب، ناداها صوت «دهب» من خلف الباب، تباطأتْ قليلًا قبل أن تفتحه، ما إن رأتها «دهب» حتى عانقتها بقوة ساحقة؛ تعوِّض شوق ساعات من الحرمان. تقول:

- «شفق»، أنتِ بخير.

بينما القلب ملتصق بالقلب، شعرت «شفق» بنبضات قلب شقيقتها مُتسارعة، مُتلهفة، عناقها شغوف، خالٍ من الجفاء، ولا أثر فيه لشُبهة رياء. تُعانقها بحب، حب ضخم، شَرِه، يبتلع كلَّ ما حوله.

يتغنَّى الشعراء أن المُحِب يود لو يخفي المحبوب بين أضلعه، شعرت أن «دهب» تُلصقها بضلوعها كمَن يود أن يحبسها فيها.

هل الحب حُرية، أم زنزانة؟

أبعدتها تقول:

- «دهب»، جسدي يؤلمني.

طفقت «دهب» تنظر في وجهها كانعكاس صورتها في المرآة، رأتْ في وجه «شفق» التعب والألم، ساقتها حتى الأريكة وجاورتها في جلستها، تضع رأسها فوق ساقي أختها وتبكي.

تمسح «شفق» فوق شعرها، تُهدهدها مثل الطفل كي تتوقف عن البكاء. تتشبَّث «دهب» بساقيها ووسط نشيجها المُتعالي تبوح بالقليل:

- كوني معي.

وتعجز عن البوح بالكثير، كوني معي لأنكِ دعامتي، إن فقدتها سقطتُ.

كوني بخير لأن في فنائكِ موت روحين. كوني الهَاء، عندما أصرخ وأقول «آه».

كوني جَبيرة لكسوري، وسترًا لعيوبي. كوني عصاي التي أتوكَّأ عليها، والهواء الذي تشتاقهُ أنفاسي المتحشرجة. كوني العفو، حين أرتكب أفظع جرائمي.

كوني الضحكة وسط ضجيج البكاء، كوني الأمل تحت سماء العتمة، كوني خالدة، كوني خارقة!

انقسمت البذرة في الرحم وخرجتا متماثلتين كنصفي تُفّاحة، لكن الماء الذي سُقي به كل منهما كان مختلفًا، فباعد بين طباعيهما كما باعد الله بين المشرق والمغرب، بينهما تكامل نقيضين.

وصلت إحداهما إلى أقصى حدود العطاء، تعلمت أن تعطي بغير حساب، كي تظل مرغوبة. ووصلت الأخرى إلى أقصى حدود الأخذ، تعلمت أن تأخذ بغير حساب، كي تظل موجودة.

كلتاهما تعلّمتْ وجهًا واحدًا للحب ولم ترَ منه وجهَه الآخر، الحب بلا عطاء علاقة انتهازية، والحب بلا أَخْذ علاقة انتحارية.

الحب الحقيقي أخذ وعطاء.

---

(٤)

يقولون إن الفَرَس يشعر بخيَّالهُ، وإن خيطًا خفيًّا يربط بين قلبيهما؛ عندما ركب «بحر» صهوة جواده وشقَّ به الصحراء، علم الجواد وجهته دون أن يُوجهه «بحر» إليها.

على حدود قبيلة «السخاوية» أبطأ الحصان من سرعته، شدَّ «بحر» لجامه كي يوقِفه، ثم أخذ يسير على قدميه في المرعى المفتوح، مُنتبهًا كيلا يطأ بقدمه داخل أرض «السخاوية».

عندها تسرَّبتْ إلى أذنيه صوت الراعية الذي سمعه بالأمس، تدندن بالأغنية ذاتها، تُحرك الأغنام بإشارة من يديها، وصوت صفير تُصدره بشفتيها، تُلقِم النار الصغيرة التي أشعلتها بعض الحطب، فيزداد هسيسها.
يدور حولها كلب هزيل، لم يمنعه ضعفه من أن يكون حارسًا مُخلصًا لصاحبته. نبح الكلب على «بحر»، انتبهت لوجوده فهبَّتْ واقفة.

رفع كفَّيه يُطمئنها:

- لن أؤذيكِ.

هتفت مُستنكرة:

- ومَنذا الذي يجسر على أن يؤذي طَرَف «مدينة»؟

صوتها قوي ككلماتها، استدرك قائلًا:

- أقصد لن أزعجكِ.

فاستنكرتْ ثانية:

- ومِن أين تعرف ما يُزعج «مدينة» وما لا يُزعجها؟

وقفتها قوية، كصوتها وكلماتها. زفر قائلًا:

- لماذا تشعرين بالعداء نحوي؟

فاستنكرت ثالثًا:

- لماذا تُعطي لنفسكَ أهمية لدرجة أن تظن أن «مدينة» قد تحس بشعورٍ ما نحوك؟

أسقط في يده!

«مدينة» هي، مُطوَّقة بالحصون والقِلاع، يحتاج فَتحها إما بارود ومنجنيق، أو رسالة سلام!

صحيح أنه يقف في المرعى المفتوح الذي هو أرض مشتركة بين القبائل كلها، لكن عليه أن يُبرر سبب اقترابه منها. تذكَّر العادات الجديدة لشُبَّان القبائل البدوية، إذا ما أراد الواحد منهم إبداء إعجابه بفتاة قبل أن يطلبها من أهلها، يقترب من مكانها الذي ترعى فيه عادة، فإذا كان للفتاة رغبة فيه فإنها تتوارى عنه بحياء، أو تترك في مكانها أحد أغراضها، أو تضحك خفية؛ فيعلم بموافقتها، ويذهب ليطلبها من أهلها.

أما إن لم يكُن لها رغبة فيه فإنها تُعامله بقسوة، وتنفر منه، ولربما قذفته

بالحجارة.

فهل تعرف «مدينة» عادات الشُبَّان وتمنحه الجواب على سؤال لم يسأله بعد؟ دار هذا الاحتمال بخلده فضاق صدره، ألا تعرف هذه الفتاة من يكون «بحر» ابن «السوارفة»، ألا تدرك الفتاة كل ما يثقل كفَّته؟

فإن لم يكُن ماله فنَسبه، وإن لم يكُن نَسبه فعِلمه، وإن لم يكُن عِلمه فخُلقه، وإن لم يكُن خُلقه فملاحته.

إن لم يلفتْ نظرها لكل ذلك؛ ما الذي تريده إذن؟

ولأن واجبًا عليه منحها مُبررًا لاقترابه منها، كيلا تظن أنه يتودد إليها إذ إن جوابها بالصدِّ بات واضحًا؛ رفع كفه ليتبدَّى خاتمه أمامها وهو يتنحنح قائلًا:

- جِمالكِ التي تاهت من قبل في المرعى المفتوح، هذا بسبب أنكِ لم توشميها أو حتى تختميها بالأصباغ، انظري هذا الختم محفور به اسمي، وهي طريقة بسيطة لتمييز جمالكِ عن غيرها.

لم تند عنها كلمة ولا حركة، سوى أن الكلب جلس عند قدميها يرميه بشرر. زفر بضيق وقد شعر أنه بات في موقف سخيف، لكن لا سبيل إلا المُضي قدمًا. خلع خاتمه وألقاه تحت قدميها وقال بحزم:

- انظري إليه، بإمكانكِ أن تصنعي لنفسكِ واحدًا مثله، أو تطلبين صنعه، وهكذا إذا شردتْ جمالكِ سيعرف الآخرون أنها تنتمي إليكِ ويُعيدونها لكِ.

انحنت لتلتقط الخاتم من فوق الرمال، ثم أتت بأغرب ردة فعل لم يتوقعها، أمسكت به ثم ألقته على أطراف ألسنة النار!

علا الغضب مُحيَّاه وهتف بها:

- أمجنونة أنتِ؟

هتفت به بالقوة ذاتها:

- إذا كنت مجنونة فأنت ثرثار، لماذا تُكثر من الحديث معي؟ لماذا تحوم وتدور مثل السِباع التي تتحيَّن فرصة لتنقض على الغنم؟ هل «مدينة» جاهلة لا تعرف الوشم والأختام والأصباغ وتحتاج إليكَ لتُعلمها إياها؟ لماذا تظن أنكَ الذكي الوحيد هنا؟

ومثلما فعلت في المرة الأولى، رفعت عصاها في وجهه وقالت:

- هششش.

انفعل غضبًا، وضيقًا وحنقًا، وصاحبهم شعورٌ آخر لا يدري له اسمًا ولا وصفًا!

لم يسبق له أن وقع في هذا الموقف المهين، لم يتلقَّ التعنيف من امرأة قط، ولم تعرِف أبجدياته أن يُعامَل بصَد.

تحرَّكتْ «مدينة» للخلف كي تسوق غنماتها بعيدًا عنه، اختل توازنها فجأة، فسقطت من فورها بجوار النار المشتعلة في الحطب.

أطلقت تأوّهًا مكتومًا بينما كفها يسقط على أطراف ألسنة النيران،

وينغرس تمامًا فوق الخاتم الملتهِب الذي قذفته منذ قليل.

نزعت كفها سريعًا، وأمسكت به بيدها الأخرى. أراعه ما حدث فسألها دون أن يجسر على الاقتراب منها:

- هل احترقتِ؟

لم تمنحه جوابًا. نهضت على قدميها وأطلقت صفيرًا من فمها كي تتحرك الغنمات وتتبع كلبها، لكن المسافة التي كانت تفصل بينهما لم تحجب عنه باطن كفها الذي أمسكت بمعصمه بقوة.

وهناك على طرف كفها، رأى اسمه بحروف واضحة حمراء مُلتهبة، كما تختم الأصباغ جماله بحروف اسمه أعلى سنامها.

خفق قلبه بشدة، واندفع الأدرينالين غزيرًا في عروقه، يُشبِع خلاياها إثارة وحماسة. شعر أن الرمال تُكلِّمه، السماء، والجبال، والصبار، والحجارة، والنار. يشيرون إلى الوِجهة التي عليه أن يذهب صوبها.
وقف دون حِراك يُراقب الفتاة وهي تبتعد، الفتاة التي وسَمتها النار باسمه!

---

(٥)

لم يكتفِ بالجواب! رغم أن «نرجس» قالتها صريحة، و«شفق» من بعدها، «دهب» هي من عيَّنتْ «عبقرينو» في الشركة، إذن الأمر بات مؤكّدًا، «دهب» هي حافية القدمين خاصته.

ولأنه أراد أن يقطع آخِر رؤوس الشك بسيف اليقين، توجَّه إلى الشركة في صباح اليوم التالي. غلبَ على ظنه أن «عبقرينو» يحضر إلى المكتب باكرًا من أجل تنظيفه، ففضَّل مُلاقاته في هذا الوقت الباكر قبل قدوم الموظفين، وخاصة «دهب».

ما إن رآه يمسح الطاولات حتى نزع عنه سماعات الأذن وقال له:

- صباح الخير يا «عبقرينو».

دهشَّ «عبقرينو» لرؤيته، لم يمنحه «غراب» الفرصة لإطالة الحديث بعيدًا عن مُراده، انطلق مُباشرة لقلب الهدف وسأله متوجسًا من الجواب:

- مَن التي قبلَتْ تعيينكَ يا «عبقرينو»؟ «دهب»، أم «شفق»؟

فوجئ «عبقرينو» بالسؤال، ارتفع حاجبيه يقول:

- لم أفهم يا ريِّس «غراب»، لماذا تسأل؟

باغته «غراب» بحدة:

- أجبني!

ثم استدرك بنبرة أهدأ:

- أجبني.

انتظر الجواب في رجاء صامت، في لهفة قاتلة، الفتاة التي لاقاها تلك الليلة خلف الباب المغلق هي التي قبلَتْ «عبقرينو» للعمل، يحتاج الآن إلى سماع اسمها من بين شفتيه، هو الوحيد الذي بإمكانه إخباره بالحقيقة.
منحه «عبقرينو» الجواب قائلًا:

- الآنسة «دهب».

تقافزتْ شياطين الغضب أمام عينيه. هتف به:

- لماذا إذن قلتَ لي شيئًا مختلفًا بالأمس عندما كنا معًا أمام القسم؟

اضطرب «عبقرينو» الذي لم يفهم سبب حدة «غراب» وغلظته، وقال:

- أنا؟ ماذا قلت يا ريِّس «غراب»؟ لا أذكر، هل أزعجتكَ في شيء؟

فتح «غراب» فمه ليجيبه لكن في تلك اللحظة لم تعد الشركة خالية إلا منهما.

إذ بادرته «دهب» من فورها:

- «غراب»، ماذا تفعل هنا؟

لاحظتْ التوتر بين الرجلين فسارعت بالإشارة إلى «عبقرينو» للمغادرة، دخلت و«غراب» مكتبها مفتوح بابه، وضعت حقيبتها فوق الطاولة ثم وقفت

تواجهه بذراعين معقودتين آمام صدرها:

- أتعلم، كنتُ أظن أنني أول مَن ستخبرها بأنك تملكَ شهادة قوية تنفي التهمة عن أختي، وأنك تحمل ولو قدرًا قليلًا من الاهتمام حتى تخبرني بما تنوي فعله لأختي، لم أعد أفهم، لم أعد أثق بكَ، خاب ظني فيكَ يا «غراب»، خاب كثيرًا.

كانت محقة، ولأنها محقة مهما قالت لم يستطع أن ينطق بكلمة. وضع كفَّيه فوق رأسه وكأنه يمنع انفجارًا هائلًا يوشك أن يتصاعد منه. لم يعد يفهم!

اكتفى بقول:

- أنا آسف.

ثم اختفى من أمام عينيها. بمجرد انصرافه استدعتْ «عبقرينو» وغلقت الباب، ثم سألته بجزع:

- ماذا كان يريد منكَ «غراب»؟

تردد «عبقرينو» قليلًا، فتسارُع الأحداث أقوى من أن يستوعبه تفكيره، ازدرد ريقه قائلًا:

- والله لم أفهم يا باشمهندسة «دهب»، سألني سؤالًا وعندما أجبته عليه غضب.

- ماذا سألكَ؟

- سألني مَن التي قبلَتْ تعييني ووقعتْ عقدي في الشركة، أنتِ أم الأستاذة «شفق».

- وماذا قلت له؟

هزَّ رأسه مؤكدًا:

- قلت الحقيقة بالطبع، قلت له أنتِ.

استدارت حول مكتبها وهي غارقة في التفكير، ألن يكُفّ «غراب» عن شكّه القاتل هذا؟ ألن يكُفّ عن العبث في أحداث الماضي؟

- ولماذا سألك هذا السؤال؟

أجابها بحماس:

- لا أعرف، ذكرَ شيئًا ما قلته له بالأمس و...

ثم ضرب رأسه فجأة وهو يهمس:

- آه تذكرتُ الآن، غبي يا «عبقرينو»!

- أخبرني يا «عبقرينو» ماذا تذكرتَ؟

- بالأمس قلتُ له أمام قسم الشرطة أنني أدين للأستاذة «شفق» لأنها من أخذتني للعمل في الشركة.

خفق قلب «دهب» حتى كادت تسمع صوته عاليًا يملأ أركان الغرفة بدقاته

المتسارعة في جنون بينما «عبقرينو» يستكمل حديثه:

- كما تعرفين، قابلتُ الأستاذة «شفق» قبلكِ وهي من أخذتني للعمل.. ثم قابلتكِ بعدها وأنتِ من وافقتِ على تعييني.

نهضت واستدارت حول مكتبها وهي تحاول أن تستجمع أفكارها بينما تزدرد ريقها. تقول وهي مُتحلّية بثباتها الانفعالي:

- «عبقرينو» سأتفق معكَ على شيء، إذا سألك «غراب» مرة أخرى أخبره أنني من أخذتكَ للعمل، وأنني من وقعتُ معكَ عقد التوظيف، أنا من قابلتك في المرة الأولى والثانية، إياكَ أن تذكر اسم «شفق» أبدًا.

ظهرت على وجهه أمارات الدهشة، بددتها في الحال بقولها:

- أنت تعلم أن «شفق» واقعة في مشكلة كبيرة لاتهام البواب إياها في قضية ضرب «نرجس»، هناك أمور لا أستطيع أن أخبركَ بها الآن، لكن من صالح «شفق» ألا يعلم «غراب» أنكَ قابلتها قبلي، هذا سر بيني وبينكَ، عِدني يا «عبقرينو»، من أجل سلامة «شفق».

عدَّل «عبقرينو» من وقفته، ثم وضع يده على قلبه، أغمض عينيه، وهو يُقسم كما اعتاد أن يفعل في الكشّافة، بألا يبوح بالسر أبدًا!

أوقفت «شفق» سيارتها عند المطلع الواسع للشارع، بالقرب من بيت «بشير»، مشت في المساحة التي تضيق كلما تعمّقتْ بداخلها، إذ وضع الباعة الجائلين أغراضهم وفرشاتهم لتبتلع جزءًا من الشارع.
تهادتْ في سيرها حتى وصلت إلى بيت الخالة «نوّارة»، وما إن فتحت الباب حتى انفرجتْ أساريرها عن ابتسامة كبيرة وهي تُرحب بها. عانقتها «شفق» بشوق، تطلّعتْ الخالة في وجهها عن قُرب. بادرتها الخالة:

- هل قابلتِ «دراكيولا» مصّاص الطاقات وأنتِ في طريقكِ إلى هنا؟

لم تدرِ الخالة «نوّارة» إلى أي حد كان سؤالها في محله، إذ شعرت «شفق» أنها فقدتْ طاقتها، باستثناء تلك التي تُبقيها على قيد الوعي. لم تكن الخالة «نوّارة» ممن يُكثرن العتاب حال الغياب، لكنها أحبّت أن تطمئن أن أيامها الماضية كانت طيبة، فسألتها:

- هل أصابكِ مكروه أو لأحد أحبابكِ يا ابنتي؟

لم تعرف «شفق» بمَ تُجيبها، إذا قصدت ذاك الذي يُصيب الجسد فلا لم يصبها مكروه، أما روحها فمُتعبة، والمشكلة أنها ليس لديها أي طاقة للبوح.

التقطتْ الخالة «نوّارة» بفطنتها من نبرة صوتها حال قلبها، فكفتها مؤنة أسئلة عسيرة على الإجابة. تَبادَلتا حديثًا طويلًا عن كل شيء إلا حال قلبها، ومع استغراقها في الحديث الهادئ، والنقاش البسيط وجدت أن قلبها قد انفتحت بتلاته طالبة للبوح.

قالت بغتة:

- ألا تسأمين من الوحدة يا خالة؟

ضحكت الخالة «نوارة» ضحكة رائقة، وجّهتْ رآسها صوب الجدار الذي تقشّر طلاؤه ثم قالت:

- هل يشعر الغريب بالوحدة في دار غريبة؟ بالطبع يشعر يا ابنتي، لكنه يعلم أن إقامته قصيرة، وفي يوم ما ستنتهي غربته.

- ماذا تقصدين بـ «دار غريبة»؟

- هذه الدار التي نُعمّرها يا ابنتي ليست دار مَقام، نحن مثل الرحّالة البدو الذين يجوبون الصحراء، يرتاحون إلى ظل شجرة قبل الوصول إلى أرضهم وديارهم.

رفعت سبابتها صوب السماء في إشارة للجنة، وقالت:

- دار المقام هناك يا ابنتي.

ثم أنزلت سبابتها صوب الأرض في إشارة إلى النار، وقالت:

- أو هناك والعياذ بالله.

ثم مالت صوبها وقالت باسمة:

- ونحن نحط رحالنا بينهما لبعض الوقت كي نختار في أي الدارين نُريد الاستقرار، فلكل دار أبوابها.

الحياة بالنسبة إلى الخالة بسيطة وخالية من التعقيد، هذا ما شجّع «شفق» لتسألها:

- متى يعرف الإنسان أنه ظالم يا خالة؟

فكرت الخالة لبعض الوقت ثم قالت:

- الظلم إما بين العبد وربه، أو بين العبد والناس، لكنّ هناك ظُلمًا خفيًّا، كثيرًا ما لا يدركه الإنسان، وهو من أفحَش أنواع الظلم.

- وما هو؟

- ظُلم الإنسان لنفسه.

- وهل يظلم الإنسان نفسه؟

- يظلم يا ابنتي، عندما يشوِّه نفسه، يُسيء إليها، يُفسد معالمها، يجور على حقوقها، يسمح للآخرين بأذيتها دون أن يحميها ويدافع عنها، يهدر كرامتها، لا يصون أمانتها، يسلبها هويتها، يُعرّضها للقهر والضيق والشدة.

- الحياة هي التي تفعل هذا يا خالة!

- والإنسان يُساعدها، يُضخّم أفعالها، ألم يكن للأنبياء والصالحين هَمًّا؟ ألم يقعوا في الشِّدة؟ ألم يُختَبروا بالمِحَن؟ لكن الفارق بيننا وبينهم أنهم كانوا يدركون أن الحياة ابتلاء، اختبار، أما نحن فكثيرًا ما ننسى ذلك ونحسب أن سكننا الفردوس الأعلى، تضيق صدورنا من أضعف الهموم، وننفعل لأبسط الأسباب، نُضخِّم المشكلات، ونتهاون في الأخذ بالأسباب، بل بلغ بنا الجحود أن نيأس من الدعاء إن طال البلاء.

سكتت الخالة قليلًا ثم استطردت:

- عندما يؤذيكِ أحدهم، عليكِ آن تتعلمي كيف تقولين «يكفي!»، «توقّف!»، «هذا يؤلمني!»، «أنتَ تؤذيني!»، يتعلم الطفلُ قاموسًا كبيرًا من الكلمات، لكن عندما يكبر ينسى كيف يقول كلمة من حرفين، ينسى كيف يقول «لا».

لم تُرِحْها كلمات الخالة، بل أزعجتها، فقالت:

- أرهقتني كلماتكِ يا خالة.

- الحقيقة دومًا مُرهقة يا ابنتي، لذلك لا يتحمّل الجميع مواجهتها.

- صَدَقتِ، فأنا أخاف من الحقائق، لا أحب مواجهتها.

- تحبين أو لا تحبين، الحقائق تجد أصحابها في النهاية، ولا بد من المواجهة، فاختاري أي حالٍ تُفضّلين، ضعيفة دون عُدة وخطة وسلاح؟ أم مُتأهبة لملاقاتها؟

استغرقها التفكير في كلمات الخالة، حتى بعد أن فارقت بيتها، ومرّتْ بجوار البحر تستنشق عبيره. أوقفت سيارتها على جانب الطريق واقتربت من الأمواج الهادرة. في هذا الجو البارد لا يقترب من البحر العاصف إلا مجنون، أو مهموم.

دفنت عينيها في الأعماق المظلمة للحظات، تتردد أصداء كلمات الخالة في أذنيها. عليها أن تعترف أن ثمة مشكلة، وأن هذه المشكلة أكبر من قدرتها على حلها. عليها أن تُدرك أن قوتها لا تكفي لتكون أختًا وأبًا وأمًّا وصديقةً وحبيبةً وحصنَ أمانٍ، ودواءً. هي ليست امرأة خارقة.

وقبل كل شيء عليها أن تعترف أن ثمة مشكلة، فعلاج المشكلات يبدأ من لحظة الاعتراف بوجودها. «دهب» مشكلة كبيرة خرجت عن السيطرة، وعليها أن تطلب المساعدة.

تنهدتْ ورفعت عينيها صوب السماء؛ عزفتْ أوتارُ قلبها بلحنٍ جميل، إذ وقعت أنظارها على نجمتين تقتربان من بعضهما كأنهما عَيْنَا إنسان، تُذكّرانها بحكاية بدوية عن فارس الرمال، وحبيبة سيعرف مكانها إن بحث بصدقٍ في عيون النجمتين.

فتساءَلَتْ: أتصدق الحكايات؟

---

(٦)

بدا بيت «حَمَد» كصوان عزاء خالٍ من المُعزّين؛ رفضت «عِيدة» إرضاع الطفلة واستغرقت في نوبات بكاء طويلة مُتقطّعة. ولأن «حَمَد» لم يعرف كيف يُراعي الصغيرة ويُشبع بطنها أخذتها منه «أم ذيل» وأرضعتها من حليب ماعز مُخفف بالماء.

وعندما عاد إلى بيته حاملًا طعامًا من أجل «عِيدة» وجدها جالسة على الأرض تبكي كمَن فقد كل أهله في لحظة واحدة. شقَّ عليه هذا الألم، وهذا التعب، وهذه المجاهدة الطويلة من أجل لا شيء.

لا شيء، هذا كل ما حققه خلال أشهر زواجهما، القسوة التي لاقاها منها تجاه صغيرته غير محتملة، تنخر قلبه وتُدميه. كيف بإمكانها أن تحمل قلبًا بهذه القسوة؟ لو قسَتْ عليه لعفا وسامح، لكنه لا يتحمل دمعة واحدة من عين صغيرته. لن يسمح أن تعيش «بدر» في بيت ملأه البُغض والحقد والقسوة.

دنا منها يقول بأسى:

- يكفي يا «عِيدة».

ولأنها لم تفهم مقصده صاحت بوجهه:

- لا شأن لكَ بي يا «حَمَد»، اذهب عني.

وضعَ الأغراض أرضًا ثم اعتدل واقفًا يقول:

- لن أذهب، أنتِ مَن ستذهبين يا «عِيدة».

رمقته للحظات، ثم انفجرت بغضب وقد عاودت البكاء:

- هل تسخر مني يا «حَمَد»، أنجبت بنتًا لا صبيًّا، لا أستطيع الذهاب.

صاح بها، ربما للمرة الأولى منذ زواجهما، ففجّر كل ما كبته من ألم وغيظ، تعب وإرهاق، فشل ويأس:

- أنتِ لا تسمعينني أبدًا، قلتُ لكِ إنني تزوجتكِ حُرّة لا غرة! لكن من الواضح أنكِ ستظلين تنظرين إلى معصميكِ وترين فيهما قيدًا صَدِئًا مَهما ملأتهما بالقُبلات والأساوِر الذهبية.

ثم احتشدت العبرات بمقلتيه يقول وهو يُغالبها:

- لو رأيتُ منكِ بارقة أمل صغيرة، صغيرة جدًّا، لكفتني كي أعيش معكِ ومع ابنتنا تحت سقف واحد، لكنكِ لم تمنحيني أي شيء على الإطلاق.

هتفت بكل غيظ احتشد به قلبها:

- ولن أمنحكَ أبدًا، أنا أسيرة هنا، مَهما حاولتَ أن تقنعني بغير ذلك.

ثم نهضت على قدميها ودَنَت من الباب وقالت مُتحدية:

- إن كنت حرة إذن يمكنني الذهاب الآن إلى أخي وأهلي وقبيلتي، إن كنت حرة لن تمنعني، لا أنتَ ولا شيخك ولا قبيلتكَ، لكنني لستُ حرة لأفعل.

- افعلي.

نظرت إليه بحَيْرَة، فعاجلها بما قَلَب موازينها رأسًا على عقب. نفد صبره، حتى وإن كان ليّن القلب رقيق الطبع لكنه يظل ابنًا للسوارفة، ورجال السوارفة ذوو كرامة وإباء.

لا تدرك «عِيدة» أن نقطة ضعف «حَمَد» صارت تبكي بين يديه، وأنه ليس بالرجل الذي يقبل بأن يُعشش الهَمّ في قلوب صغاره.

ببساطة قالها، وكأنه تمرّن عليها مئات المرات:

- سأطلقكِ يا «عِيدة».

---

(٧)

قد يُسيء الإنسان فهم الحياة، فهم الناس، والأسوأ أن يعجز الإنسان عن فهم نفسه، مشاعره ورغباته، دوافعه واختياراته.

لم يشعر «غراب» من قبل أنه عاجز إلى هذه الدرجة، ليته عجز عن الحركة، بل عجز عن الفهم.

يُدرك أن المشاعر خدّاعة مثل الزئبق، تتفلّت من الأصابع في اللحظة التي تُقبض فيها عليه. لكن ليست مشاعره هو. هو رجل يعرف ماذا يريد، أو هكذا كان يظن.

تحرك بسيارته باذلًا جهدًا فائقًا كي يُبقي تركيزه يقظًا بما يكفي للقيادة، يملأه الغضب، غضب هادر يُنذر بالهلاك. لا يستطيع أن يُملي على قلبه أوامر عقله وقراراته، وكأنه أعلن عليه العصيان، وقرر أن يتحرك وفقًا لأهوائه. تعسًا لهذا القلب الذي يختار الشقاء بملء إرادته.

لن يسمح له!

سيعرف كيف يُروّضه كما يُروّض صاحب السيرك حيواناته المفترسة، نعم سيُعامل قلبه مُعاملة الجوارح لأنه خبيث، اختار أولًا عصيانه، ثم قفز يختطف لنفسه ما لا يحق له.

أوقف سيارته على جانب الطريق، عبّأ صدره بهواء مُحمّل برائحة اليود، رفع رأسه فسقطتْ نظراته على نجمتين قريبتين كأنهما عَيْنَا إنسان!

حكاية قديمة لا معنى لها، ما تفتأ أن تقتحم عليه أفكاره، تُزاحم المنطق وتتربع على عرش أحلامه. حكاية ساذجة، لا تحمل ذرة منطق.

ابتسم لنفسه ساخرًا في المرآة الأمامية للسيارة، بينما جرح وجهه ينبض ليُذكره بكل ما يكره.

أعاد تشغيل مُحركها، تحرك عشرين مترًا، ثم أوقف سيارته بغتة!

رأى «شفق»، هناك على جانب الطريق، أمام البحر الهادر، عزفت أوتار قلبه بلحن جميل، فأرسل إليه عبر عروقه جيشًا من هرمون الغضب، وفرمانًا صارمًا من سيد الجسد أن يكف عن عزف اللحن الجميل يستبدل به لحنًا آخر وقورًا.

فأرسل القلب مرسومًا إلى سيد الجسد يستنكر فيها غضبته، ويُحذره إن لم يكُف عن تهديده سيقطع عنه إمداداته من الدماء النقية.

لم يهتز ثبات سيد الجسد وأرسل مع حفنة أخرى من هرمون الغضب رسالة أكثر قسوة من الأولى، مُحملة بأضعاف ما أرسله سابقًا، فاختل العزف، وحادت المعزوفة الجميلة عن أنغامها.

تعالت دقات القلب عالية تعزف لحنًا آخر استجابة لأوامر سيد الجسد، لحن الخوف!

وصل إلى العيادة الطبية، انتظر على المقعد لدقائق انتظارًا لدوره. صافح

«غراب» طبيبه الخاص وتبادل معه عبارات الترحيب، ثم صعد إلى سرير الفحص.

عاد الطبيب بعد دقائق يجلس فوق مقعده، يقرأ نتائج التحاليل التي أحضرها «غراب» معه، وينظر إلى الأشعة ثم يقول مُستبشرًا:

- عظيم جدًّا، زال الخطر تمامًا.

ابتسم «غراب» حامدًا لربه، ثم نهض كي يودع الطبيب شاكرًا له، وما إن وصل إلى الباب حتى التفت للطبيب واضعًا كفه فوق حنجرته قائلًا:

- نسيتُ أن أخبركَ يا دكتور، أشعر أن البُحَّة ستُعاودني من جديد!

التفت له الطبيب قائلًا:

- لا تقلق، كما أخبرتكَ من قبل.. البُحَّة كانت بسبب الورم الحميد الذي تكوَّن على أحبالك الصوتية، والآن بعد إزالته وبعد نتائج الفحوصات التي أمامي فالورم قد اختفى تمامًا.

ثم أضاف مُحذرًا:

- لكن يبدو أنكَ تُجهد أحبالكَ الصوتية في الصياح، فكما أخبرتني أنكَ تعمل رئيسًا لعمال موقع بناء مما يتطلب منك الصياح عاليًا بين الحين والآخر.

ثم كتب له دواءً وقال:

- خُذ هذا إذا ما عاودتكَ البُحَّة، وأرح نفسكَ قليلًا.

خرج «غراب» من عنده وهو يمسك بحنجرته، يتنحنح كي يُجلي البُحَّة الغريبة التي بدأت تُسيطر على حنجرته، والتي توشك على أن تُغيّر نبرته من جديد!

ما إن عبرتْ «شفق» بوابة الفندق حتى وجدته واقفًا في انتظارها، دنا «أكمل» منها يتخبط في الحديث، يعتذر منها عما فعل، ثم ختم حديثه قائلًا:

- لا أعرف كيف طاوعتُ «دهب»، كيف صدقتُ أن مِن صالحكِ البقاء في الحجز حتى تعثر الشرطة على المجرم، يبدو أنني لم أكُن في كامل لياقتي العقلية هذا اليوم.

سكتت «شفق» تتجرع مرارة المعرفة، «دهب» إذن!

وجدت صوتها بصعوبة لتقول:

- ليس مُهمًّا يا «أكمل»، انتهى الأمر.

ويبدو أنه كان بحاجة لأن يبوح ما يُعكر عليه مزاجه. قال بنبرة حازمة:

- كلا، لم ينتهِ، ما معنى ما حدث يا «شفق»؟ كيف تقابلين هذا الرجل «غراب» وتتحدثين إليه خارج العمل رغم أنكِ تعلمين جيدًا أنني لا أطيقه.

رجعت خطوة إلى الخلف وهتفت ساخرة:

- وهل ما أزعجكَ أنني تحدثتُ إليه، أم أنكَ لا تطيقه؟

وكمن شعر ببوادر هجوم فبادر هو بهجوم مضاد، هتف بصوت وصل إلى أسماع الناس من حولهما:

- هذا الرجل يحوم حولكِ باستمرار، أو أنتِ مَن تحومين حوله، لم أعد أفهم، أنا خطيبكِ وأغار عليكِ، أليس من حقي أن أغار؟

واجهته بقوة، وأخرجت ما جاش به صدرها دُفعة واحدة:

- تغار! وما هو مفهومك عن الغيرة يا «أكمل»، حديثي مع رجل تبغضه، أهذا هو كل مفهومك عن الغيرة؟ دعني أخبرك بمفهومي أنا عن الغيرة، الغيرة هي أن تذهب أنتَ إلى بيت بشير بدلًا مني فلا تضطرني إلى الذهاب، الغيرة هي ألا تجعلني أحتاج إلى وجودي في موقع العمل لأن معي رجلًا يُعتَمد عليه في المَهمة الملقاة على عاتقه، الغيرة هي ألا تُسيء إليَّ أمام العمال وتسألني إن كان ثمة شيء بيني وبين رئيسهم، الرجل الغيور لا يغار فقط من حديث حبيبته مع رجل آخر، بل يغار من أن ينظر إليها الناس بعين شامتة، أو يلوكون سيرتها بسوءٍ، أو يتخذون من كلمات خاطبها بابًا للطعن في أخلاقها.
الذي يغار يحمي ويصون، لا يقف في بهو فندق معاتبًا بعلو صوته فيَسمعه مَن يسوى ومَن لا يسوى!

أخذت نفسًا ثم خفتتْ نبرات صوتها وهي تقول بحزم:

- الغيرة أن تنزعج إن مسّ رجل آخر يدي، حتى وإن كان ضابطًا يضع القيد في معصمي.

ثم فارقته دون أن تنتظر رده.

بعد دقائق عندما سمعت «شفق» طرقات على باب غرفتها، توجهت صوبه كي تفتح ظنًا منها أنها «دهب». فوجئت بصوت «نرجس» يُعلمها بهويتها. فتحت لها بوجل وهي تسأل بخوف جلي:

- هل حدث شيء؟

طمأنتها «نرجس» قائلة:

- كل شيء بخير، اطمئني.

سألت صديقتها بدهشة كبيرة عن سبب حضورها، فأجابت:

- لا تقلقي أبي معي بالأسفل، سأعود معه إلى البيت، كان بإمكاني أن آتي صباحًا، لكن لم أتحمل الانتظار.

ثم تقدمت منها تقول بجدية بالغة:

- هل تذكرين عندما خاصمتكِ لأنكِ أخفيتِ عني أمر خطبتكِ بـ «أكمل»، وقتها أقسمتِ لي إنكِ ستفعلين ما أطلبه منكِ كي أسامحكِ، أتذكرين؟

تعجبت «شفق» إذ قالت:

- هل أتيتِ إلى هنا لكي...

قاطعتها «نرجس»:

- أجيبيني، أتذكرين؟

- نعم، أتذكر بالطبع، وما زلت عند كلمتي.

- أي شيء أطلبه؟

أومأت «شفق» برأسها متوجسة وهي تُردد:

- أي شيء تطلبينه.

- جيد.

قالتها «نرجس» وهي تُخرِج يديها من خلف ظهرها وترفع أمام وجه صديقتها ملفًا بدت بداخله ورقة واحدة أو اثنتان. رمقتها «شفق» بحَيْرَة؛ أزالت «نرجس» عنها تلك الحَيْرَة بقولها:

- هذا الملف به كل أسماء المصابين في حادثة العمال.

عقدتْ «شفق» جبينها تقول:

- ولماذا تحضرينه لي؟ وما علاقة ذلك بالطلب الذي تريدينني أن أنفذه؟

أخذت «نرجس» نفسًا عميقًا، تقدمت من صديقتها حتى لم تعد بينهما سوى خطوتين فحسب، نظرت في عمق عينيها وقالت بحنو:

- تعرفين جيدًا أن واحدًا من هؤلاء المصابين، هو «الصوت»!

ظهر التوتر جليًّا على وجه «شفق» بينما «نرجس» تستطرد:

- يوم حادثة العمال سمعتِ «الصوت»، كان معكِ، تحت الأنقاض، يفصل بينكما باب إحدى الغرف.

انتظرت وهلة ثم قالت بحزم:

- وطلبي هو أن تعثري على «الصوت» من بين هذه الأسماء، أعلم أنكِ تتذكرينه جيدًا، وأنكِ إن سمعتِه مرة أخرى ستعرفينه فورًا.

لم تنطق «شفق» بكلمة، وفي داخلها صدّقتْ على كلمات «نرجس»، تعرف الصوت جيدًا، لا يمكنها نسيانه.

صوت به بُحَّة مميزة!

النَفْسُ لأشباهها تميلُ
ولكلِ روحٍ وَليفٌ وخليلٌ
لا تعرفه ببرهان
ولا بإشارة ودليل!

وإنما للروحِ لُغتها
وحروف تنسجها بفنِّها
قاموسٌ مِن مفردات الإحساس
تُدرِك به معادن الناس!

هُوية الشخص بطاقة مختومة
في عُرف الدولة والمنظومة!

وهُوية الجسد حمض نووي
مُثبَتٌ بإقرارٍ طِبِّي!

وهُوية الصوت كلمة ونَبرة
مؤكَّدة لآذانٍ فَطِنة!

أما هُوية الروح فسِرِّية
وعلى بعض الأفهام عصية
لا تَكشفها إلا مِحنة
هي شرٌ بداخله هدية!

الليلة الثانية عشرة

الدُّب لم يقتل صاحبه عن حقدٍ أو غضب،
مَن أَحَبَّ بلا رحمة؛ أتَى بأسباب بالعَجَب!

(١)

في ليلة الحادثة..

وقفتْ تتطلع إلى الشفق، يا له من منظر عجيب، الشمس تموت ببطء بين أحضان السماء، وتنزف الشفق الأحمر. رغم ذلك ترى في المشهد جمالًا من نوع فريد.

كيف يكون الموت بهذا الجمال؟ أتنزعج الشمس منها لأنها صعدتْ للطابق الأخير كي ترقب موتها؟ ابتسمتْ «شفق» لهذا الخاطر الساذج، الشمس تذوب في مكان، كي تُشرق في آخر، الشمس أبدًا لا تموت، تترك من خلفها الشفق الأحمر، ختم سماوي تعد به عيون مُريديها أنها ستعود إليهم من جديد. الشفق ليس دماءَ شمسٍ تحتضر، بل وعدًا باللقاء بعد الفراق.

عندما تأكدتْ أنها بمأمن عن الأنظار حررتْ شعرها، ووقفت مغمضة العينين تستمتع بنسمات الهواء وهي تُداعب شعرها وتسحبه إلى الوجهة التي ترغبها، ثم... حدث كل شيء فجأة!

دَوِي انفجار قوي يصم الآذان، خرج لسان من نار يشق طريقه نحو الرداء السماوي، وكأنها شباك صياد يسعى لاصطياد الشفق! ثم صوت انهيار رهيب، وكأن السماء قد انطبقت على الأرض بغتة. دخان كثيف، وعويل حثيث.

تفقّدتْ «شفق» نفسها بعد ارتطام قوي، آلام في جسدها، ظلام من حولها، وشيء ثقيل يلتف من حولها، طوب وحجارة وأنقاض مُتهدّمة! دفعها الارتطام كي تتكئ بظهرها إلى باب خشبي لإحدى الغرف. أصوات صراخ تأتيها من كل مكان. لا يزال بإمكانها أن ترى السماء، لكن لم يعد باستطاعتها رؤية المَبنييْن المجاورين اللذين كانت تنظر إليهما منذ لحظات من شُرفة الطابق الأخير للمبنى الثالث.

أعلمها الصياح بالأسفل بالحقيقة المُرة، سقط مبنيان، وبقيَ الثالث قائمًا على أقدامه، لم يتهدم إلا جزء من واجهته الأمامية لطوابقه الأخيرة.

حُبِسَت «شفق» تحت أنقاض تهدُّم السقف في الطابق الأخير!

أرادت الصراخ لكن صوتها حُبِس فجأة، قيَّده الفزع. أخذت تئن بصوت خافت، تخشى إن رفعته أن تُسبب تردداته في إسقاط المبنى. تفكير سخيف، حضر الفزع فولَّى المنطق هاربًا.

وبغتة، سمعت صوتًا من خلف ظهرها، انتفضت تنظر تحت ضوء الشمس الغاربة للباب الذي تتكئ عليه وكأنه دعامتها الوحيدة، ما الذي تُخفيه لها الأبواب المغلقة؟

أتاها صوت أحدهم من الداخل، صوتٌ تُميّزه بُحَّة! يُردد آيات من القرآن، ويدعو بخشوع من يتجهَّز للموت.

تعالَى أنينها وعبر من أسفل الباب المغلق.

فصمت الصوت بغتة، ثم أخذ صاحبه يطرق على الباب ويتساءل هل هي بخير؟ لم تجبه إلا بأنين متصاعدة وتيرته، وكأنها نسيت كيف يكون الكلام.

طفق الصوت يُطمئنها ويُهدِّئ روعها، مَن هذا المجنون وماذا يفعل هنا؟ هل صعد مثلها ليكون قريبًا من الشفق؟ هل أراد مُشاهدته عن قُرب في لحظة خلوة مع السماء؟ ما شأنه والشفق؟

- أنا خائفة!

همستْ بها للصوت. من المرات القليلة التي سمحتْ فيها لشعور بشري كالخوف أن يمر على لسانها في اعتراف صريح.

وأضافت باكية:

- لا أريد أن أموت!

لا تستطيع أن تموت الآن، ليس لأنها تخشى الموت بل لأنها تخشى ما بعد الموت. ليست جاهزة بعدُ للحساب، ولسؤال المَلكين، ولضمة القبر. ليست جاهزة للمشي على الصراط، ولا لأن تقف بين يدي العزيز الجبَّار تزن ما في كفّتيها من أعمال.

لم تحسب أن النهاية قد تأتي بغتة، أَوَلا تأتي النهايات إلا بغتة؟!

أتاها الانهيار في شكل أنين، توجّع مَن يرقب مشهد النهاية، كيف سيكون الموت وسَكراته؟ هل ستتألم كثيرًا؟ هل سترى مِقعدها من النار أو الجنة؟ هل ستغمض عينيها غمضة أخيرة ثم في اللحظة التالية تجد نفسها في اللحد؟ أم أنها ستكون في وضعية إدراك ويقَظَة في أثناء العبور بين العالمين؟ أسئلة تنمو وتلتف حول عقلها كاللبلاب، تمتص الأكسجين من جسدها وتتركها مُتقطّعة الأنفاس. تُجاهد لتحث الهواء في صدرها، يعلو شهيقها وزفيرها.

تُردد في جزع:

- سأموت، سأموت، سأموت!

يزداد الطرق على الباب، ويأتي الصوت من خلفه:

- لن تموتي، أتسمعينني؟ لن تموتي.

قالت مُستنكرة من بين شهقاتها:

- لا أحد.. يعرف.. موعد.. الموت.. لا تتحدث وكأنكَ.. تعرف.

عاجلها بحزم:

- وأنتِ أيضًا لا تعرفين.

ثم استدرك:

- تنفّسي بهدوء.

قالت بصعوبة:

- لا.. أستطيع.. أنا.. مرض.. تنفسي.. نوبة ذعر.. أحتاج.. دواء.

- هل دواؤكِ معكِ؟

- لا أجد.. حقيبتي.. سقطت.

- حسنًا، اسمعي الآن، التفكير بشكلٍ سيئ سيزيد من وضعكِ سوءًا، تسمعين أصوات الناس بالأسفل، أليس كذلك؟

لم يأتِه جوابها، فحثَّها:

- أتسمعينهم؟

أجابت بخفوت:

- أسمعهم.

- سيعثرون علينا، لا تخافي، وتنفسي بهدوء.

- لا.. أستطيع.. أختنق.

- مَن يختنق لن يكون لديه القدرة على الحديث، أنتِ تتحدثين، مجرى التنفس مفتوح، أنتِ بخير.

«أنتِ بخير»، «أنتِ قوية»، «أنتِ امرأة خارقة». لم تعد تطيق سماع هذه الكلمات.

- أنا لستُ بخير.. ولم أكن بخير قط.

قالتها ثم انهارتْ باكية. صرختْ، نادَتْ على الناس بالأسفل، لم يسمعها أحد وسط الهرج والمرج، يبتهل العمال إلى الله بالدعاء كيلا يتهدم المبنى الثالث فوق رؤوسهم، بينما يحاولون انتشال المصابين والموتى من تحت الأنقاض.

لم يتخيّل أحد منهم أن ثمة شخصين بالمبنى الثالث، محبوسان تحت أنقاض واجهته بالطابق الأخير.

أتاها الصوت المبحوح من خلف الباب:

- لا تهدري أنفاسكِ في الصراخ، ابكي، ابكي فحسب.

منسية دائمًا، آخِر من ينضم إلى طاولة الطعام، وآخر من ينهض عنها.
لا تبكي، فالبنت المؤدبة لا تبكي، ماما ستغضب إن بكيت، إن اشتكيت، إن توجّعَت، ماما لا تحب البكاء والشكوى والمرض!

ماما لا تحب أن تُكرر الكلام مرّتين، لذلك عليها أن تفهمه سريعًا، وتُنفّذه أسرع، إن لم تفعل لن تُحبها ماما، ستُكشّر في وجهها، ستُخاصمها، وتحبسها في الغرفة المظلمة.

ماما لا تحب المرض! ستحاول ألا تسعل، السعال عيب، السعال علامة للمرض. تفشل كثيرًا في كتم السعال؛ يخرج رغمًا عنها. وجه ماما يتعكّر، ينزعج. تُعنّفها، تحبسها في غرفتها كيلا تُنقل العدوى لأختها، فتُحرَم من ماما ومن «دهب»!

غبية «شفق»، كان عليكِ أن تكتمي السعال! تبكي سرًّا، فيختنق نفَسها، تغضب ماما، تُعطيها دواءها، لكن صدرها يُسحق، وأنفاسها تضطرب.

تغضب ماما أكثر، وتأمر الخادمة أن تذهب بها إلى المستشفى.

ترجوها «شفق» آلا تُعاقبها بإرسالها إلى المستشفى، هناك الروائح كريهة، والوجوه كالحة، ورجال بمعاطف بِيض يؤذون جسدها بإبَرٍ مؤلمة! تُصِر ماما، فتتوقف «شفق» عن توسلاتها، تختنق بها، فماما لا تحب البكاء والشكوى والمرض!

مع آخِر قطرة دمع هدأت أنفاسها. ويا للغرابة، شعرتْ وكأنها تخلّصتْ من حمل ثقيل. أتاها الصوت من جديد:

- الآن ابحثي عن الدواء حولكِ، الشمس تغرب، وآخِر خيوط النور ستختفي بعد قليل، لذلك أسرعي.

دققتْ النظر فيما حولها، حاولتْ الوقوف؛ سمعتْ صوت تحرك الحجارة فوق بعضها. أتاها صوته يهتف بجزع:

- لا تتحركي، فقط فتّشي بيديكِ.

قالت بصوت مُتحشرج:

- لا أجد حقيبتي، يبدو أنها تحت أحد الجدران المُتهدمة.

- لا بأس، لن تحتاجيه.

قالها بثقة تعجّبتْ منها، فسألتْ مُستنكرة:

- لستَ طبيبًا لتعرف شيئًا عن مرضي!

طال الصمت حتى ظنّتهُ لا يسمعها، ثم قطعه بقوله:

- لستُ بحاجة لأن أكون طبيبًا كي أعرف أن ما دام البكاء أراحكِ؛ إذن فمشكلتكِ ليستْ عضوية بل نفسية.

ثم استطرد:

- حافظي على هدوئكِ، أنتِ بخير.

سألته وهي لا تستطيع التحرر من القلق:

- هل يعرف باقي العمال أنكَ هنا؟

- لا.

خاب أملها، لن يسعى أصدقاؤه للبحث عنه إذن. سألته مُستنكرة:

- لماذا صعدتَ إذن؟

أجابها بكلمة واحدة أثارت دهشتها:

- رأيتُكِ!

رأيتُكِ!

هكذا هتفت «دهب» بينما تلعبان الغميضة، ثم وقفتا تضحكان أمام المرآة. ترتديان الفستان نفسه، وتُصففان شعرهما الأسود بالطريقة ذاتها.

قالت «دهب» بسعادة:

- نحن متشابهتان تمامًا.

فقالت «شفق» بخجل وبصوت مُتَعب:

- ليس تمامًا، وجنتاكِ حمراوان، ووجنتايّ صفراوان.

تسللتْ «دهب» إلى غرفة أمها، أحضرت شيئًا من أدوات زينتها ثم عادت إلى أختها. شهقت «شفق» وهي تكتم فمها بكفها وتقول:

- ماما ستغضب!

وضعتْ «دهب» الأصباغ على وجنتيّ أختها، ثم عادتا تتطلعان في المرآة وتقول بفرح:

- الآن صرنا حمراوين مثل بعض.

ضحكت «شفق» وهي تكتم ضحكتها بكفها:

- لكنني صرتُ حمراء جدًّا.

دخلت ماما، غضبتْ، وزمجرَتْ، وعصفَتْ، وتوعّدتْ السارقة بعقاب رادع. رأت دليلَ الإدانة فوق وجنتيّ «شفق»؛ سحبتها من ذراعها، ألقت بها في الغرفة المظلمة، وغلقت الباب.

خافت «دهب» من قول الحقيقة وتخليص أختها، الحقيقة لا تُنجّي. الحقيقة مُخيفة، مؤلمة، مُظلمة.

بكت، وجلست على الأرض خلف الباب تستمع بعجزٍ إلى أنين أختها.

تمتمتْ «شفق» بريبة:

- ماذا تقصد بـ «رأيتكِ»؟ هل تتبعني؟

شعرت بنسمات باردة، الآن غربت الشمس تمامًا، ودّعتْ الأفق فأطبق الليل بسطوته.

أتاها صوته:

- كنتُ في الأسفل، رأيتُكِ تقفين في الشرفة الخلفية للمبني، لم أركِ تمامًا، ذراعكِ وكتفكِ فحسب، حتى إنني لم أعرف إن كنتِ رجلًا أو امرأة.

سألته بدهشة وهي تحضن جسدها بذراعيها في محاولة لحث الدفء على زيارتها:

- ولماذا صعدتَ من خلفي؟

طال صمته، وبدا صوته مترددًا وهو يقول:

- ظننت، يعني كنتِ تقتربين كثيرًا من السور، وتميلين فوقه، ظننتكِ تحاولين فعلَ شيءٍ غبي.

فهمتْ «شفق»، لم يخطر هذا ببالها قط، رغم كل شيء لم تُفكّر لحظة في إنهاء حياتها.

- ما إن صعدت ودخلت أبحث عنكِ في إحدى الغرف حتى حدث الانفجار وانغلق الباب بالهَدمِ فحُبسْتُ بالداخل.

قالت بغتة:

- لا يفعل ذلك إلا شخص غبي.

سكتتْ، فاستدركَت:

- أقصد الموت.

- ليس غبيًّا، بل غاضبًا.

أدهشتها كلماته.. غاضبًا! سألت:

- مِمَن؟

- مِن نفسه.

لا تدري لماذا شعرتْ أنه يتحدث عن نفسه، هل حاول إنهاء حياته من قبل؟ هل يغضب الإنسان من نفسه لهذه الدرجة؟ ماذا فعل حتى تكون غضبته من نفسه تستوجب قتلها؟

لاحظت أن التفكير في أمور أخرى صرف نوبة الهلع، لم يبقَ منها إلا القليل، أنفاس مُتقطعة وصوت مُتحشرج من كثرة الصراخ والبكاء.

- لا أخاف الموت، بل أخاف مما بعده.

استبدّت بها الدهشة، ظنّت لوهلة أن هذه الكلمات نابعة منها، لكنها لم تكُن، كانت كلماته هو!

استجلبتْ كلماته بكاءها، ذنوبها، ندمها. استحضرتهم جميعًا أمام عينيها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[2]. ترددتْ الآية بداخلها، فهمتها الآن.

بكت تُناجي ربها، تستغفر من ذنب أصابته، هي تعلمه والله يعلمه. سمعها، وكان يقف على باب الرجاء مثلها، يستغفر من ذنب قديم، وفِعل أثيم.

بكى بكاءً أخرس. الناس حين يتشاركون الحديث يعرفون بعضهم، وحين يتشاركون المكان يألفون بعضهم، أما حين يتشاركون البكاء، تمتزج أرواحهم.

ينسى المرء إنسانًا تبادل معه الحديث لساعات، وإنسانًا عاشره لأيام، لكنه أبدًا لا ينسى مَن شاركه لحظات البكاء. حين بكتْ أمنا عائشة في حادثة الإفك، ومرضت من الحزن والهم ولزمَتْ الفراش؛ دخلت عليها امرأة من الأنصار، لم تُحادثها بكلمة، ولم تدعمها بحرف، فقط شاركتها البكاء.

ثم دارت على أعاقبها وانصرفت، ومن بعد هذا الموقف بسنوات، تقول أمنا عائشة «لا أنساها لها».

شاركتها «دهب» البكاء حين أمرت المُعلمة بإرسالهما إلى حجرة المديرة

لتلقي العقاب. آتى والدهما بعد إصرار المديرة، وبعدما فشلت في الوصول إلى أمهما. ثم قالت له بوجه يتلمّظ غيظًا:

- إنهما تتبادلان الأدوار في الفصل وتخدعان زملاءهما ومعلماتهما.

وقفتا في زاوية مكتب المديرة تنظران أرضًا، تبكيان بصمت، وفي السيارة توسلتا إلى أبيهما ألا يخبر أمهما بما حدث، فسأل:

- فكرة مَن كانت؟

فأجابته «دهب» ببراءة:

- فكرتي، أردتُ أن أجرب أن أكون «شفق»، أردتُ أن يحبني الناس!

سألها «منصور» بدهشة:

- لماذا تقولين ذلك؟

- المُعلمة تحب «شفق» أكثر مني، والمديرة تُعطيها الحلوى، وزميلاتنا يُشاركنها طعامهن، لأنها مريضة.

ثم كتّفتْ ذراعيها وطفقت تنظر من النافذة وهي تقول مُتمنية بأعين دامعة:

- ليتني أكون مريضة!

لم تعد تحتمل الظلام. هلعت، ضاق نفَسها. طفقتْ تُردد بهذيان:

- لن يعثر علينا أحد.. سنموت هنا.

طرقَ الباب، حاول فتحه، أخذ يُناديها، يدفعها كي تتحدث فينصرف ذهنها عن أسباب الهلع. لم تُجِب. سألها بغتة:

- هل تعرفين حكايات النجوم؟

كما توقع لم يتلقَّ منها ردًا، لكنه لا يزال يسمع صوت نهجان صدرها، فاستطرد:

- أمي تعرف كل حكايات النجوم.. وبطل إحدى الحكايات رجلٌ بدوي يهوى الخيول، يجوب الصحراء على فرسه العربي الأصيل، يُساعد الناس الذين يحتاجون إلى مُعين، يتصدق على الفقراء والمساكين، رجلٌ طيب هو، لكنه وحيدٌ، وحيدٌ جدًّا، وفي إحدى الليالي عثر على فتاة فارّة من بعض قطّاع الطرق، بعدما استولوا على قافلتها، خافت الفتاة وظنّته قاطعَ طريق، فطمأنها إلى أنه يريد مساعدتها كي تعود إلى قبيلتها سالمة.

وهنا كان في حَيْرَة شديدة.. هل يترك الفتاة حتى يحضر حصانًا آخر من أجلها؟ لكن الليل والظلام خطران لا يُستهان بهما، هل يدعو الفتاة لركوب حصانه معه؟ تحتضنه أو يحتضنها.. وهل تقبل الحُرّة ذلك؟ أراد أن يختبرها.. عرض عليها الحلين فاختارت أولهما.. فابتسم وترك حصانه لها وحدها.. شكرته الفتاة التي لم يرَ طرفها.. لكنه وقع في حب صوتها.. وأتاه خاطر يقول إن الفتاة مالت إليه بدورها.

فودّعها قائلًا: سأعثر عليكِ يا حافية القدمين.

تعجبت الفتاة واستدارت بالحصان دورة كاملة، فزاد من دهشتها بقوله: إذا تذكرتِني ارفعي رأسكِ إلى السماء وانظري في قلب نجمتين قريبتين كأنهما عَيْنَا إنسانٍ.. وإذا كنتُ أنظر إليهما في اللحظة نفسها سيُقذَف في قلبي العلم بمكانكِ.. وعندها سأعثر عليكِ.

استرعت انتباه «شفق» تلك الحكاية العجيبة، سمعتها وهي تنظر إلى السماء من فوقها، تبحث دون وعي عن نجمتين قريبتين. قالت بخفوت:

- ثم ماذا حدث؟

أتاها صوته:

- لا أعلم، انتهت الحكاية هنا، لم تُكملها أمي قط.

- لماذا؟

- لأنها كانت دائمًا تظن أن الحكايات يجب ألا تُروَى كاملة، إنما النهاية يضعها المُستمِع إلى الحكاية حين يُقرر أن يكون بطلها.

أحبّتْ ذلك، أن تُترَك القصص الخيالية بغير نهايات، كي يستكملها الواقع، أي الحكايات تصلح لأن تُتممها إذن، حكايات مُلهمة عن فارس بدوي يبحث عن قبيلة حبيبته في عيون النجمتين، أم حكايات أكثر واقعية؟

فاجأها صوته:

- حمدًا لله، أنتِ بخير الآن.. أنفاسكِ بدأت تنتظم.

كان يُسمِعها الحكاية كي يصرف ذهنها عن حالها، ما أغربه! لماذا يهتم؟ في عالمها لا يوزع الناس اهتمامهم بلا مقابل، الاهتمام فِعل نادر.

فلتقص عليه حكاية إذن، ولتكن أكثر واقعية من حكايته.

لم تقص عليه حكاية واضحة المعالم، إنما مشاهد مُتفرقة من هنا وهناك. ذكريات ردمها غُبار النسيان، لكن كلا، لم تنسها وإن تظاهرَتْ بذلك. حكى لها حكاية عن بدوي، وبدوية، وصحراء، ورمال، ونجمات. وحكت له حكاية عن مرض، ومستشفى، وأم قاسية، وأب موجود وغير موجود. وأخت تُحِب، حبها ليس كأي حب!

استشرفَتْ رده بظنونها:

- أعلم ماذا ستقول لي الآن، ستقول إن أختي لا تحبني، تبغضني، تستمتع بألمي.

فاجأها:

- بل تحبك جدًّا.

ثم استطرد:

- هذا هو الوجه المظلم للحب.

- وما هو؟

- الأنانية.

فكرت في كلمته «الأنانية!» قاطع تفكيرها بقوله:

- يجب ألا تسمحي أن تمتلكك، أنتِ بالرضوخ لها لا تؤذين نفسكِ فحسب، بل تؤذينها كذلك.

ندمتْ أن قصّتْ على غريب لا تعرف له اسمًا ولا شكلًا حكايتها الخاصة.

عارضت بشدة:

- لا أؤذيها ولا تؤذيني.

- بل تؤذيكِ، أنتِ تعرفين ذلك.

- الذي يحب إنسانًا يُحبه بكل عيوبه.

- بالضبط، لكنكِ لا تفعلين ذلك، لا تُحبين أختكِ رغم عيوبها، بل تُحبينها بخَفْي عيوبها.

- ماذا تقصد؟

- قلتِ إن لديكِ صندوقًا مظلمًا إن فتحتِه ستخسرين أختكِ للأبد.. هكذا تُخفي العيوب.

ها هي تندم مرة ثانية، لماذا أفصحت له عن ذلك، ظنّت أنها تُثرثر فحسب، ظنّت أنه لن يهتم. أردف:

- أنتِ ترفضين الحقيقة التي أخفيتِها في هذا الصندوق.. لأنكِ لا تريدين إفساد الواقع.. أنتِ تكرهين التغيير.. وتخافين الأحداث المفاجئة.

تساءلت في نفسها بدهشة، كيف علم ببغضها للمفاجآت؟ استطرد وكأنه طبيب نفسي يُحلل إحدى مريضاته:

- هل تعرفين أن عُقدة الإنكار هي طريقٌ مؤدٍّ للجنون؟

احتدّتْ:

- لستَ طبيبًا.

استكمل حديثه وكأنه لم يسمعها:

- أنتِ لا تسمعين إلا صدى صوتكِ، ولا ترين إلا ما ترغبين في رؤيته، وما دون ذلك تتجاهلينه، مثلما تضغطين زر الحذف في هاتفكِ، فتمحين رسائل، وتنسفين أحداثًا من الوجود، لكن أتعلمين ما الذي سيحدث تاليًا؟ ستعجزين عن التمييز بين الواقع والخيال الذي تريدين رؤيته، ستتشوّه الرؤية ومعها ستفقدين بصيرتكِ، لا تعرفين كم هو مؤلم فقدان البصيرة، ليس كفقد جزء من الجسد أؤكد لكِ ذلك، إنه أسوأ، أسوأ كثيرًا.

هل عانى عقدة الإنكار من قبل؟ هل فقد بصيرته؟ هل استعادها ثانية؟ دارت هذه الأسئلة بعقلها، بدا حديثه قد تحوّل إلى مونولوج داخلي، يُناجي

فيه نفسه بصوت مسموع:

- إنكار الواقع دليلُ عجزٍ، وناقوس خطر، النعامة التي تدفن رأسها في الرمال لا يحميها ذلك من الخطر.. لأن جسدها كله يكون ظاهرًا لمن يتربّص بها.

طالبته بحدة:

- يكفي ذلك، لا يوجد سبب واحد في العالم يجعلها ترغب في أن تؤذيني.

- لماذا قتل «قابيل» أخاه «هابيل»؟

استوقفها سؤاله، ثم قالت بحزم:

- الحسد، عندما أراد «هابيل» أن يتزوج من توأم «قابيل» رفض «قابيل» ذلك، وأزعجه أن يكون لـ «هابيل» الحق في الزواج من توأمه بينما هو لا يستطيع الزواج منها.

- لكننا توأم، عشنا في البيت نفسه، وتحت الشروط نفسها، وليس بيننا ما نتنازع عليه.

ثم أضافت ساخرة:

- ولم نقع في حب الرجل نفسه!

- أنتما مختلفتان أكثر مما تظنين.

أزعجتها كلماته. قال:

- يوجد تفسير آخر لقتل «قابيل» لـ «هابيل»، حين أمر الله «قابيل» و«هابيل» أن يتقدما بقربانيْن، قدّم «هابيل» أفضل ما عنده، فتقبّل الله قربانه وردَّ قربان أخيه.. هكذا نشأ الحسد بينهما، ليس بسبب الصراع على شيء يريده كل منهما لنفسه، بل لأن أحدهما أفضل من الآخر، قُبِلَ قربان أحدهما ورُفِض قربان الآخر.

التقطَ أنفاسه ثم قال:

- وهذا فارق جوهري بين أهل الدنيا وأهل الجنة، فأهل الجنة قال الله فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخوانا على سررٍ متقابلين﴾[3].

ثم استطرد قائلًا:

- أنتِ الأفضل، وهي تعرف ذلك، لكن بدلًا من أن تسعى لتكون أفضل، تحاول أن تُحطّم هذا الشيء الذي لا تستطيع أن تكون مثله.

تعجّبتْ كثيرًا، كيف يقول ذلك وقد لازمها دائمًا شعور بأنها ليست جيدة بما يكفي لشخص جيد. زفر قائلًا:

- أختكِ مريضة وتحتاج إلى جلسات تعديل سلوك.

استنكرت عنادًا ومُكابرة:

- الحب ليس مرضًا!

- الحب الذي يؤذي مرض.

- إذا آحببتَ آحدًا تقبَله بكل عيوبه.

- إذا أحببتِ أحدًا تحمينه من عيوبه.

تهالكت طاقتها، رجته بوهن:

- أرجوكَ يكفي.

- عندما تكونين قادرة على فتح ذلك الصندوق ستتحررين من الألم، الحقيقة لا تؤلم بل تُحرر من أسر الألم، تذكري ذلك، وحسنًا، سأكُف عن هذا الحديث الذي يزعجكِ.

الأصوات بدأت في الخفوت، بدا وكأن الجمع بالأسفل قد انفض، هلعت وقالت:

- طال الوقت كثيرًا، لماذا لم يعثروا علينا حتى الآن؟

- لا تخافي، سيدركون غيابي ويبحثون عني وعندها سيجدوننا.

كان واثقًا أنهم أصدقاؤه بالأسفل سيُحاولون الوصول إليه، وعندما سيفشلون سيصيبهم القلق، ويصعد أحدهم ليتفقد المبنى الذي حُبسا فيه، وعندها سيعثرون عليهما. هي مسألة وقت لا أكثر، يعلم ذلك ويثق به، لكنها لا تعلم ولا تثق. وها هو صوت تنفسها يضطرب من جديد.

لماذا نحب؟ كيف نحب؟ متى نحب؟

الأسئلة المنطقية تستلزم إجابات منطقية، لكن المشاعر لا تخضع للمنطق؛ الأرواح جُند من جنود الله، تتعارف، وتتفق، وتأتلِف دون سابق تخطيط.

تتآلف الأرواح عندما تتحد الأقدار، أو تتشابه الأحوال، أو عندما يأكل اثنان من مائدة البكاء نفسها.

تتآلف الأرواح عندما يتقابل الضِدّان، أو يهتدي الشريدان، أو يتكامل النقيصان.

الحب ليس له سبب معروف، ولا تعريف مصفوف، لكنّ له صوتًا مألوفًا! نبضة لا تشبه غيرها من النبضات، تشذ عن اللحن والنوتات. الحب شمعة قد تُشعلها شرارة واحدة، وقد لا تكفي نيران العالم لإشعالها.

يزعمون أنها لا تشتعل إلا عن سابق معرفة، فتسيح الفتيات في الأرض بشمعة بائسة؛ تُصاحِب هذا، وتُمازِح ذاك، كي تشتعل شمعتها، وتهنأ بنورها. وحين تكتشف هباء ضوئها تُطَفئ شمعتها بنفخة واحدة، ثم تسيح في الأرض؛ تُصاحِب هذا، وتُمازح ذاك، كي تشعلها من جديد! وتَعزِف عن رجُلٍ طرق بابها ومعه قدّاحة مختوم قلبها؛ تظن أن القدّاحات المختومات لا تقدرٍ على إشعال فتيل الشمعات!

ثم تنظر فإذ بشمعتها قد ذابَتْ كاملة، ضاعت هباءً منثورًا على قارعة

الطرقات، وفي الزوايا والحارات، ولم يبقَ منها إلا بقايا شمعة مشوهة.

تلك الليلة لم يُشعل القدّاحة عن عَمد، ولم تُدنِ شمعتها عن قَصد، ورغم ذلك سُمِع نبضتان شاذتان عن اللحن المألوف.

فإما طريق مُمهد ليكتمل العزف، أو فناء وموت!

وأخيرًا، أتى المَدد، سمعتْ أصوات أقدام تدنو من الطابق الأخير؛ تعالت صرخاتها تُنادي على رجال الإنقاذ. هتفت تبكي من الفرح:

- لقد أتوا.

- حمدًا لله.

أدركتْ أنها ما كانت لتنجو لولاه. سألته وفي صوتها آيات الشكر:

- كيف أرد لكَ جميلكَ؟ اطلب ما شئتَ.

سمعت ما يُشبه ضحكة، ثم قال:

- كلما تذكرتِني قومي بعمل خير.

أهداهُ قلبها نبضة، وعلَت شفتيها البسمةُ، لكنها خافتْ وفزعتْ، لا تريد تغييرًا يُفسد حياتها، فلتسِر سفينتها في الوِجهة نفسها دون تعديل، الوجهة محفوظة، والخريطة معروفة. قالت بوعي مُشتت:

- لن نتقابل ثانية، لكن أعدكَ أنني كلما تذكّرتك سأقوم بعمل خير.

سمعت صوت الضحكة القصيرة مرة أخرى، ثم قال ما أثار فرحتها وفزعها في الوقت ذاته:

- سأعثر عليكِ يا حافية القدمين!

ماذا يرد أن يقول؟ هل يقول إنه سيسعى ليُكمل حكاية سمعها من أمه التي تُحب أن تُبقي حكاياتها دون نهاية؟

تعالت ضربات قلبها، حتى وضعت كفّها فوقها تخشى أن يفضحها صوته. رأت نورًا مُبهرًا لشموس صغيرة مُقبلة صوبها، أزعجها الضوء المفاجئ فغطّت عينيها بذراعها، اقتربت منها الشموس وصوت الرجال يُهنئونها بالنجاة، أزاحوا الحجارة، وفتحوا لها طريقًا للهرب!

رأت حقيبتها، انتشلتها وجمعت ما خرج منها وتشتت على الأرض بسرعة. لم تعثر على غطاء رأسها، ولا على علبة دوائها. وما إن رأتهم يتوجهون صوب الباب لينقذوا الرجل المحبوس في داخل الغرفة حتى ولّتْ هاربة!
لم تفكر، كانت تتصرف فحسب، تستجيب لرسالة ذعر أرسلها قلبها لأطرافها بأن تُسرع في الركض. ما إن وصلت إلى الأسفل حتى هالها منظر الأنقاض والتي كانت قبل ساعات مبنيان شامخان. ما أسهل الهدم، وما أصعب البناء.

جرَتْ صوب سيارتها التي أوقفتها خلف المبنى الذي حُبست فيه، ثم انطلقت مبتعدة عن المكان؛ تهرب من نبضة غريبة ستُفسِد عليها قلبها!

كان إنقاذه أكثر صعوبة، حاول رجال الإنقاذ التحلّي بالحذر مخافة أن يتهدّم ما بقيَ من السقف فوق رأسه، أحدثوا في منتصف الباب الخشبي فتحة كافية كي يعبر منها إلى الخارج.

نجا أخيرًا، حمدًا لله كثيرًا، بحث بعينيه تحت أضواء الكشافات عن الفتاة، لم يعثر لها على أثر، كاد أن يظن لوهلة أنها كانت من صنع خياله.

ثم إذ به يرى علبة دواء في أحد الأركان، تفحّصها بين أصابعه، رأى لطخة من طلاء أظافر أحمر اللون في أحد جوانبها! دسّها في جيبه. سأل الرجال عن الفتاة فأخبروه أنها رحلت دون أن تُفصح عن هويتها.

هرول إلى الأسفل، وهناك رأى الأنقاض في شكل هرمي بئيس. احتشدت العبرات في مقلتيه عندما أخبره أحد رجال الشرطة أن هناك عددًا من الموتى، والباقي بين مصاب وحالات خطرة.

هرول في اتجاه سيارته، أدار محركها وانطلق بسرعة إلى المستشفى حيث يرقد أصدقاؤه.

ظهر التوتر جليًّا على وجه «شفق» بينما «نرجس» تستطرد:

- في ليلة الحادثة، سمعتِ «الصوت»، كان معكِ، تحت الأنقاض، يفصل بينكما باب إحدى الغرف.

انتظرت وهلة ثم قالت بحزم:

- وطلبي هو أن تعثري على «الصوت» من بين هذه الأسماء! أعلم أنكِ تتذكرينه جيدًا.. وأنكِ إن سمعتِه مرة أخرى ستعرفينه فورًا.

لم تنطق «شفق» بكلمة، وفي داخلها صدّقتْ على كلمات «نرجس». تعرف الصوت جيدًا، لا يمكنها نسيانه، صوت به بُحَّة مميزة!

عارضت بشدة:

- لا تطلبي مني ذلك.

- سأطلب.. لي الحق في أن أطلب.

- لا أفهم.. ما هو هدفكِ يا «نرجس».. أعثر عليه ثم ماذا؟

- لا شيء.. لا أطلب منكِ أكثر من ذلك.

- وما الفائدة إذن؟

كفّتْ «نرجس» عن محاولة إقناعها، تركت الملف فوق فراشها وقالت بينما تفتح الباب وتغادر:

- قلتِ ستنفذين أي شيء أطلبه.. وهذا طلبي.. اقبليه أو ارفضيه يا شفق».. وسأعرف عندها قدري عندكِ.

تمددتْ «شفق» فوق فراشها بجسد منهك وعقل مشتت، وتحت الضوء

الخافت فتحت الملف تتبّع آسماء المُصابين بعينيها، لم تقف على اسم مميز، لم تقف على اسم تعرفه!

وجدتْ في الصفحة التالية قائمة بأسماء العمال الذين فقدوا أرواحهم.

تنهدتْ بحزن وهي تُمرر عينيها على الأسماء الخمسة التي تحفظها عن ظهرِ ألم. ثم انتفضت من فوق فراشها بغتة! تتأمل مرات ومرات اسمًا بعينه، لم يَرِد في القائمة التي ضمّتها لملف القضية. أمسكت بهاتفها واتصلت بـ «نرجس» ثم بادرتها بلهفة:

- «نرجس» من أين حصلتِ على هذه القوائم؟

- من المستشفى.. لماذا؟

- سأحادثكِ لاحقًا.

قالتها بعقل ذاهِل وأنهت المكالمة.

مرّرت إصبعًا مُرتعدًا فوق الاسم الذي حمل رقم ستة في تعداد الموتى، «سهيل السخاوي».. الرجل الذي قدِمَتْ إلى العريش أول مرة كي تُقابله سِرًا!

[سورة المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

[سورة الحجر: ٤٧].

كان جالسًا يعقد صفقة جديدة مع أحد التجار القادمين لشراء ما جادتْ به أرضه من مزروع، لكن عقله ما فتئ أن ارتحل بعيدًا عن المجلس، ووصل إلى حدود أرض السخاوية، وطاف حول فتاة بدوية، ثم يسمع كلمة أو تعلو ضحكة فيستيقظ انتباهه من سَكرته.

انتهى الحديث فخرج «بحر» يطوف بين أرجاء القبيلة بلا وِجهة محددة. اِكفهر وجهه إذ رأى «أم ذيل» و«عين» مع بعض النساء عند أحد دكاكين القماش.

لم تبدُ وجوههن ظاهرة لكنه شعر بفرحة حديث يدور بينهن، تتوسطهن «عين» كعروس تزهو باقتراب زفافها، تتدلل على أمه وأمها، وتختار من الأقمشة ما شاء لها.

امتلأ صدره غيظًا، حاول أن يُبدد هذا الغيظ بالاستغفار فلم يفلح، وكأن بداخله نبعَ غيظٍ لا ينضب. لو لم تُظهر هذه البهجة، لو أبدَتْ عزوفًا أو بُعدًا، لكان احترمها، لكنها سعيدة، بل تطير في سماء البهجة فرحًا.
ما أتعسه، سيربط حياته بامرأة تهنأ بشقائه. تَبني الفرحة على أنقاضٍ خَرِبة.

دنا من أحد جِماله، واختاره للركوب، ثم همس بالقرب من أذنه:

- استعد.. لدينا موعد مع «مدينة».

وقفت «عين» كوردة ذابلة في بستان! لا تُبدي رأيًا ولا تعصي أمرًا. تتحدث النساء من حولها، يَخْتَرنَ من الأقمشة أجملها، ومن الألوان أبهجها. خرجت من الدكان وانزوَتْ باكية. دنتْ منها أمها تسأل ما بها، فهمست لها:

- لا أريد يا أمي.

- ما هذا الذي لا تريدينه يا «عين»؟ إذا لم يعجبكِ هذا الدكان نبحث عن آخر.

رفعت رأسها، فرأتْ أمها عينين ذابلتين بينما تهمس لها:

- لا أريد الزواج من «بحر».

انشق قلب الأم فزعًا:

- ما هذا الكلام يا «عين»؟

هزّتْ كتفيها حيرة، واحتشد الألم في صوتها تقول:

- «بحر» سيؤلمني.. أعرف.

أمسكتْ أمها بمعصمها، تطوف بعينيها صوب «أم ذيل» والنساء، تخشى أن تنتبه إحداهن لما يدور خارج الدكان، ثم همست بحدة في أذنها:

- لا أريد أن أسمع هذه التخاريف مرة أخرى.. لو سمع أبوكِ ما تقولين لاشتعل غضبًا.

لم تجد في نفسها طاقة آكبر للمقاومة، لماذا لا تملك روحَ محارِبةٍ؟

بنبرة متوسلة قالت:

- أقول لكِ سيؤلمني.. سيُحزنني.. أعرف.

هتفت أمها بحدة:

- ومَن مِن النساء تعيش بلا ألم ولا حزن؟! تألمي واحزني وأنتِ زوجة «بحر» ابن شيخ القبيلة أفضل من أن تتألمي وتحزني وأنتِ عانس في بيتِ أبيكِ.

قالتها ثم جرّتها إلى داخل الدكان، تميل على «أم ذيل» وتتشاركان الرأي فيما يصلح لأن يتجمّل به بيت عروسين. تقف «عين» وسطهما تحاول التظاهر بأنها عروس سعيدة.

---

(٣)

صداع شرس شقّ رأسها نصفين. ما إن دخلت مكتبها حتى أغلقت بابه، ثم أمسكت بهاتفها واتصلت بأبيها بعد حوار قصير من تبادل السلام كأي قريبين بعيدين، حاول إنهاء المكالمة، لم تسمح له. قالت بحزم:

- يجب أن نتحدث عن «دهب» يا أبي.

ساد الصمت للحظات، ثم قطعه بسؤاله:

- ما بها «دهب»؟

- ليست بخير.

- ماذا فعلَتْ أختكِ يا «شفق»؟

فجّرتْ شكوكها كبركانٍ لا يهدأ، سكبَتْ حِممها في أذنيه، تحدّثتْ طويلًا، ثم أنهت كلامها بزفرة وعَبرة:

- لا أريدها أن تؤذي أحدًا آخر.

- هراء، كل ما سمعته منكِ هراء، هل لديكِ دليل على ما تقولين؟

صدمها اعتراضه، استنكرتْ:

- أنا واثقة مما أقول، البواب الذي شهد أنه رآني، «نرجس» التي تذكر وجهي كآخر ما رأته، ألا تعتبر كل ذلك دليلًا على أن «دهب» هي الفاعلة؟

- ولماذا لم تأخذ الشرطة هذا الدليل لاتهامها؟ عندما ترغبين مرة أخرى في اتهام أختكِ بشيء إما أن تأتيني بدليل صريح أو تعلمي كيف تتجاهلين ظنونكِ.

- ليست ظنونًا! أنا أشعر بهذا يا أبي، أعلمه، أقرأه في عينيها.

صبّتْ جهودها عبثًا، لم يصدقها. تهالك جسدها فوق المقعد، اتكأت على المكتب بذراعيها ودفنت فيهما وجهها. طرق «عبقرينو» الباب فاعتدلتْ في جلستها. وضع فوق مكتبها مظروفًا مغلقًا وقال لها:

- هذا الظرف وجدته أمام باب الشركة صباحًا يا أستاذة «شفق»، إنه لكِ.

مَن الذي سيرسل الخطابات عن طريق وضعها أمام باب الشركة؟ أمسكت المظروف لتجد اسمها مكتوبًا بخط عريض، ولا شيء سوى اسمها. شكرتْ «عبقرينو» وأشارت له بالمغادرة، لكنه تنحنح ثم قال:

- هل أنتِ بخير يا أستاذة «شفق»؟

- سؤال عسير جدًّا، اقتبَستْ إجابة محفوظة:

- بخير.

بدا على وجهه القلق، رأت تردده، لم تفهمه، دار على أعقابه وغادر المكتب ثم أغلق الباب خلفه.

فضّتْ المغلف بحرص، جذبت ورقة بيضاء وقرأت ما فيها همسًا:

«أعرف كل شيء، رأيتُ كل شيء؛ شركة النمر يجب أن تدفع فاتورة سكوتي، بكم يُقدَّر سكوتي يا تُرى؟».

رسالة ابتزاز واضحة! مَن يجرؤ على أن يبتز أصحاب شركة النمر؟ وبمَ يبتزهم؟ تحسستْ المغلف فوجدت فيه شيئًا صلبًا، أخرجته بحرص، وجدت حَجَرًا أزرق داكنًا غير منتظم الشكل! تأملته بين أصابعها وهي تتساءل بدهشة كبيرة:

- ما معنى ذلك؟

الكل في الموقع يعمل بهمة النحل ودقّته، بينما الملك يدور عليهم ليتأكد من أن الخلية تعمل بكل طاقتها، يُريد أن ينتهي من هذا العمل سريعًا، يريد أن يستعيد توازنه. تحرّكتْ صوبه فوقعتْ أنظاره عليها، جالسة تحت المظلة تتفحص بعض الأوراق، تتواجد دائمًا داخل نطاق رؤيته فيصير تجاهلها عسيرًا.

عبَس وجهه، صرف أنظاره عنها، وعاهد عينيه، وقلبه وأذنيه، ألا يراها أو يسمع صوتها. سيتجاهلها مثلما يضغط زر الحذف في هاتفه.

أجهَد حنجرته في الصراخ على العمال، وكأنه بصوته العالي سيُسكِت أصواتًا أخرى بداخله.

- ريِّس «غراب»!

بئسًا لذلك، لماذا غادرت مكانها.. اقتربت منه؟ ماذا تريد؟ لم يولها انتباهه وكأنه لم يسمعها.

تنحنحت تقول:

- لا أعطلكَ، أليس كذلك؟

قال دون أن يلتفت، واضعًا كفّيه في خاصرتيه كعادته:

- تُعطلينني بالفعل.

- آه.. أعتذر.. لكن أحتاج إلى سؤالكَ عن أمر مُهم.

زفر بقوة، أزعجها ذلك، تساءلتْ في نفسها: ماذا فعلتْ كي يغضب بهذا الشكل؟ وضعت أمام وجهه ورقة وقالت:

- هل تعرف كل أسماء العمال المصابين في حادثة العمال؟

يا له من سؤال سخيف، ما الذي دعاها لسؤاله الآن؟ لماذا لا تسأل خطيبها أو أباها أو حتى المهندس «منعم»؟ أجاب باقتضاب دون أن يمس الورقة:

- بالطبع.

بدا عليها التردد للحظات، ودون أن تبعد الورقة عن أنظاره سألته:

- هل جميعهم هنا؟

آمسك بالورقة مُرغمًا، قلّب عينيه في الأسماء كلها، ثم قال:

- نعم.

- شكرًا.

قالتها باقتضاب مماثل، استعادت قائمتها ثم عادت لتجلس أسفل المظلة. دارت عيناها في العمال في أثناء عملهم، لا تعرف عما تبحث، ربما إشارة ما تُرشدها إلى صاحب الصوت، لا يبدو أن أحدًا منهم قد يكون الصوت، الصورة التي رسمتها له في ذهنها لا تُطابق أي أحد منهم، هل المظاهر خدّاعة إلى هذا الحد؟ يا له من شعور عجيب! أن تبحث عن شخص لا تعرف كيف هو، ولن يكشفه لها إلا صوته. كيف تفعل ذلك؟ هل تقترب من كل واحد منهم وتحاول أن تجري معه حديثًا قصيرًا؟ يا لها من فكرة سخيفة!

همست بضيق: ألم تجدي طلبًا آخر غير ذلك يا «نرجس»!

- هل تتحدثين إلى نفسكِ؟

قالها «أكمل» وهو يجلس على المقعد المقابل لها، فقالت باقتضاب:

- كنتُ أفكر بصوت مرتفع.

- وإلى أين أوصلكِ التفكير؟

شعرت أنه سؤالٌ مزدوج، يشير إلى شيء ويرمي إلى آخر، قبلتْ الدخول في لعبة التورية، أجابته:

- لم أصل إلى قرار بعد.

- وهل تطلبين مني أن أنتظر صامتًا في الزاوية حتى تنتهي من التفكير واتخاذ القرار.. بشأننا؟

أصبح الحديث صريحًا إذن، التفتت له تقول بضيق:

- لا أطلب منكَ ذلك، بل أطلب منكَ أن تُفكر أنت الآخر.

- أنا فكرت بالفعل.

نظرت صوبه متسائلة:

- وماذا قررتَ؟

مال بجسده ثم قال بحزم:

- ما قررته أخبرتكِ به منذ اليوم الأول.. أنتِ زوجة مناسبة لي.

فاجأها ذلك، اختلط عليها الأمر وظنّتْ أنه يتحدث حديثَ انفصال! قال بطريقته العملية:

- ليلة أمس كتبتُ كل مميزاتكِ في ورقة، وفي أخرى كتبتُ كل عيوبكِ، وعندما قارنتُ بين الاثنتين رجحت كفّة المميزات، لذلك قراري لم يتغير بشأنكِ.

لم يسعدها ذلك. فارق مقعده وهو يقول:

- أخبريني بقراركِ عندما تصلين إليه.

شعرت أن الصحراء القاحلة ليست حولهما فحسب، بل بينهما كذلك، كل شيء جافٌ جدًّا. هل ترغب في العيش مع رجل يُخبرها أنه قرر الاستمرار معها لأنها فازت في مسألة إحصاء؟

ثم أخذت تلوم نفسها: كل الناس تفعل ذلك، تُحصي العيوب والمميزات، تُجري العمليات الحسابية ثم تختار، لماذا ألومه إذن؟

أخذت نفسًا عميقًا وهي تُجيب نفسها: لأن من يفعل ذلك لا يقولها صراحة! يتجمّل، «أكمل» لا يعرف كيف يتجمّل.

ثم عقدت ما بين حاجبيها وهي تسأل: لكن أهذا عيب؟

فكرت طويلًا، وما إن مالت الشمس صوب الأفق حتى عثرت في عينيها على الجواب: مَن يجهل كيف يتجمّل هو في الأساس عاجز عن رؤية مواطن الجمال.

---

(٤)

فتحت كفها، تحسستْ البقعة الوردية، ثم وضعت فوقها خليطًا أعدّته من أعشابٍ خاصة جمعتها بنفسها من الأرض. آثار الخاتم المعدني تركت خلفها بقعة دائرية بلون أحمر، تضخمتْ فاختلطت الحروف ببعضها، فأصبح عسيرًا تمييز الكلمة، «بحر»، الموج الهادر الذي لا يعرف حدَّه.

حمدت الله، لو رآها أبوها لقطع رأسها ولا كرامة. ارتدتْ جلبابها، وحملت أغراضها ثم توجهت صوب باب البيت. سألتها أمها بصوت هامس كيلا يسمع أبوها:

- إلى أين يا «مدينة»؟

همستْ «مدينة» بدورها:

- بالأمس قابلتُ أحد التجار، قال لي إنه يرغب في شراء كل ما معي من غنمات.

تهلل وجه الأم مُستبشرًا وهي تردد:

- كل ما معكِ!

- أومأت «مدينة» برأسها، ابتسمت ثم قبّلت رأس أمها وقالت:

- لن أتأخر.

شدّتْ الأم على ذراعها وقالت مُحذّرة:

- انتبهي لنفسكِ جيدًا.

ارتدتْ «مدينة» بُرقعها، ثم قالت بثقة:

- لا تقلقي يا أمي، لا أحد يقدر على أن يؤذي «مدينة».

سارت «مدينة» صوب المرعى المفتوح تسوق غنماتها، مُستبشرة بالبيعة الطيبة. هكذا ستجني المال الذي سيُبدد غضب أبيها، بعدما توقف كل رجال القبيلة ونسائهم عن الشراء منها أو بيعها.

المال هو علاج أبيها، تأتيه به وستزول غضبته، وربما رجع عن فكرة تزويجها من أول رجل يطلبها. هكذا تأمّل.

في المرعى المفتوح، وعند سفح الجبل الذي عادة ما يتوافد عنده الناس لشراء ما يرغبون فيه مِن رعاة الأغنام، وقفتْ «مدينة» تدفع أيادي الشمس عن رأسها بقبعة سميكة من الخوص.

ومن بعيد لاح لها رجل يركب جملًا أصيلًا، ما إن اقترب حتى اتخذت وقفة مُتحفّزة. أناخ «بحر» جَمَله ثم نزل من فوقه ودنا منها، فاشتعلتْ عيناها غضبًا. أمسكت بحجر وكادت أن تقذفه في وجهه، أوقفها بإشارة من يده وهو يقول:

- انتظري ماذا ستفعلين؟

- ماذا تفعل أنتَ؟ انصرف وإلا شججتُ رأسكَ نصفين.

قال بحزم:

- أنا مَن تنتظرينه.

- ماذا تعني؟!

- أرسلتُ إليكِ أحد رجالي بالأمس للاتفاق معكِ على شراء غنماتكِ.

أدهشها ذلك، سألته بجفاء:

- لماذا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا تريد شراء غنماتي؟

ما لمسه فيها من إباء جعله غير راغب في أن يخبرها بما نما إلى أسماعه عن حال أبيها في قبيلته، وعن عزوف الناس عن البيع منه والشراء، لم يرغب في أن يُخبرها صراحة أنه يسعى لمساعدتها، ردًا لجميلها ربما، أو شفقة عليها، أو لمزيج من السببين، أو لسبب آخر يُضمره في نفسه، أو لكل هذه الأسباب مُجتمعة.

عندما أرسل أحدَ رجاله بالأمس وعرض عليها شراء غنماتها، كان «بحر» قد أخبره أن يعرض عليها ضعف ما تستحقه غنماتها من مال، وعندما عاد رجلهُ قال له: رفضت السعر.

فتعجّب «بحر» وقال بضيق: هل طلبت المزيد؟

ففاجأه الرجل: بل قالت إن غنماتها تساوي نصف ما أعرضه، ولن تقبل بأن تغشني.

أعجبه ذلك، بل جعله يبتسم ملء فمه، حتى أن رجله تعجّب من مرأى الابتسامة على وجه «بحر» الذي أصبح العبوس رفيقًا له. وطوال الطريق إلى هنا شعر بدفقة من الأدرينالين تغزو عروقه. أجاب سؤالها قائلًا:

- السبب لا يهم.

أنزلتْ ذراعها وألقت بالحجر أرضًا، حسَبَ «بحر» أن راية الحرب قد نُكِّسَتْ، وأن فتحه قد تكلل بالنصر. قد يكون بحرًا جامحًا، لكنها أرض صلبه لا تشرب الماء المالح!

صفعته بكلامها، ليس مرة واحدة بل مرات، إذ قالت:

- كم أنكَ رجل أناني! رغم أنكَ تعلم جيدًا أن رؤيتكَ معي قد تثير الأقاويل في قبيلتي.. وتدفع الناس لإساءة الظن بي لكنكَ فعلتْ ما حلا لكَ ما إن خطر على بالكَ.

هل تظن أن «مدينة» غبية كيلا تفهم أنكَ تحوم حولها؟ وأنكَ تتخذ من الغنمات حُجة فاسدة كي تقترب منها؟ هل تختبر «مدينة»؟ أم تُريد أن تُجرِّبها؟ هل أنساكَ العَيْش في الشمال عاداتنا هنا فظننتَ أن بإمكانك العبث مع «مدينة»؟

عصَف البحر الهادر بعنف:

- آي عبث! انتبهي إلى كلامكِ يا فتاة، «بحر» ابن «السوارفة» لا يعبث، هذا لا يليق به.

- وهل يليق بـ «بحر» ابن «السوارفة» أن يحتال كي يتقرّب من فتاة؟

كيف يشرح لها أن ثمة حربًا تلوح في الأفق، وأنه يحتاج إلى أن يتأكد من وجود ما يستحق أن يخوض حربًا ضارية من أجله؟ كيف يخبرها أنه قبل أن يُشعل نيران الحرب يريد أن يتأكد من أنها ستُحارب كأحد جُنده؟ كيف يخبرها أنه يريد فقط أن يعرف أن الحرب لن تكون عبثًا، وأن ثمة غنيمة تنتظره؟

- أنتَ رجل جبان.

اتسعت عيناه غضبًا، حتى وكأنهما ستخرجان من محجريهما، الجُبن ليس مسبَّة فحسب في عُرف رجل مثله، بل وصمة عار. قالت بنبرة حازمة، وكأنه كتابٌ مفتوح أمامها:

- الذي يخشى أن يخسر كل شيء.. لا يفوز بأي شيء!

ما أجرأها، تردَّه إن أخطأ، وتسوق الحجة على رأيها، لا تُعظِّمه لنسبه، ولا تخشاه لقوته، تزنه بفعله وكلمته، تراه «بحر»، لا «بحر» ابن «السوارفة».

لكنها أيضًا سليطة اللسان، وتحتاج إلى ترويض انفعالاتها، المدينة القوية لا يُخضعها إلا فارس مغوار.

ترميه بالجُبن، هل هو جبان حقًا؟ هل خوفه من خسارة كل شيء سيمنعه من أن يكسب أي شيء؟ هل عليه أن يختار؟ لم يسبق أن قابل شخصًا بإمكانه أن يعصف بدوامات من الأسئلة في رأسه، تجعله يُعيد استكشاف نفسه، أو مراجعتها.

استدارت تسوق غنماتها، تعود من الطريق الذي أتت منه، رأى أمامه خيطًا ينقطع، نفسه تشتهي به وصلًا. لم تبتعد عنه إلا خطوات حتى هتف بها:

- «مدينة»!

دارت على أعقابها ترميه بنظرات غاضبة، واشتعلت في صدرها الغيرة على كل حرفٍ لفظ به دون حق، كيف يجرؤ على النُطق باسمها؟ ودَّت لو انتزعت حروف اسمها من لسانه حرفًا حرفًا.

أعجبه غضبتها، كل شيء تفعله بغير قصد يلهب حماسته، ويجعل رأسه يدور ويدور، قبل أن تفتح فمها لتُعنّفه، رماها بسؤاله:

- هل تعرفين ماذا يحدث إن دخل بحر مدينة؟

قرأ في عينيها الدهشة للسؤال، والفضول لمعرفة الجواب. الفضول أحدى رايات شوق! فضولها أخبره أن ثمة غنيمة ستكون في انتظاره عندما تضع الحرب أوزارها، فاتسعت ابتسامته حتى بدَت نواجذه، اندفعتْ دفقة كبيرة من الأدرينالين في عروقه.

مال برأسه قليلًا وهو يقول بإصرار وبنبرة ذات مغزى:

- يُغرِقها فيه.

---

(٥)

النظر إلى ما في يد الغير يُمحق البركة ويحجب رؤية النعم، هكذا أخذ يقول لنفسه ولسانه يلهج بالاستغفار.

يُجاهد عينيه كيلا تحيدا عما رسمه لهما من زوايا، إلى أخرى وضع فوقها لافتة ممنوع الاقتراب، لكنه يدرك أنها جالسة أسفل المظلة تتحدث إلى خطيبها، وكأن جسده قد أنبت عيونًا خفية تحت جلده، وبين مساماته.

عليه أن يعاقب هذا الجسد، لن يكفي هذه المرة لو نظّف مراحيض المسجد طوال اليوم، ولأيام وأسابيع، على العقاب أن يكون أشد قسوة، عقاب رادع يؤدّب به قلبه الذي التفت!

عليه أولًا أن يحث رؤوس كل الشكوك النابتة في رأسه، لذلك ما إن انتهى العمل بعد اختفاء آخر خيوط الشمس، وتأكد من ركوب العمال لسيارة الشركة التي تقلّهم إلى قلب العريش، حتى دنا منها بهمّة من يتجهّز لدفع عدو غاشم اعتدى على أطراف أراضيه.

كانت شاردة الفِكر بشدة، هكذا لاحظ طيلة اليوم، حتى إنها لم تتدخل لحل نزاع كاد أن ينشب بينه وبين «أكمل»، لم تره من الأساس، بدا وكأن أفكارها تسيح في عالم آخر، وزمان آخر.

أقبلَ عليها عندما كانت تستعد لمغادرة الموقع، لم تلحظ وجوده إلا عندما تنحنح، رفعت أنظارها إليه بحيرة، فاستجمع شتات أفكاره للحظات ثم ألقى بسلاحه الباتر لرؤوس الشك:

- هل جئتِ إلى «العريش» من قبل؟

توترت واضطربت قسماتها، حتى إنها هبّتْ واقفة بطريقة لفتت أنظاره. كل ذرة بداخله تهتف «قولي لا» لكنها لم تقل شيئًا، سقطت في غيابات ذاك العالم الذي يدور برأسها.

تململ في وقفته، ينتظر «لا» ولا شيء سواها. حطّ طائر فوق المظلة وأصدر صوتًا خافتًا، التفتت له تهمس مشدوهة:

- حبَّاري!

لماذا لا تقول «لا» وينتهي الأمر؟

اشتعل صدره غضبًا؛ أمسك بحجر وقذف «الحبَّاري» فطار فزعًا! نظرت له بلوم ودهشة، ماذا يفعل؟ ما الذي يُغضبه إلى هذا الحد؟ لماذا يبدو وكأنه جمرة مشتعلة لا تجد ماء لإطفائها؟ لماذا أزعجه «الحبَّاري»؟

كرر سؤاله وهو يجز على أسنانه:

- هل جئتِ إلى «العريش» من قبل؟

اضطربت ثانية، لم يكن باستطاعتها الجواب؛ زيارتها الأولى كانت سرية، من أجل لقاء رجل عرفت بالأمس فقط أنه مات تحت الأنقاض. السؤال بسيط، لكن الجواب معقد، معقد جدًّا، ولا يبدو أنه رجل يملك الطاقة الكافية للخوض في التفاصيل المعقدة.

فضلًا عن أنها لا تستطيع أن تبوح له بكل شيء. هبَّتْ نسمات باردة، تطردها من جوف الصحراء، وضعت كفّيها في جيوب معطفها، مست شيئًا صلبًا لم تتذكر كيف وصل إلى جيبها، أخرجته ونظرت فيه، إنه الحجر الذي جاء مع رسالة اليوم التي ما زالت تجهل هُوية مُرسلها.

رفعت أنظارها صوب «غراب» تُحاول أن تعطيه جوابًا دبلوماسيًّا، لكنها فوجئت أن أنظاره مُعلّقة بشدة بما تحمله بين أصابعها، وشيء من الخوف قد نبتَ في عينيه!

أمسك بحنجرته التي بدأت تنغزه بأشواك الألم، بينما شفتاه تهمسان في جزع عجيب:

- فيروز!

لم يعد باستطاعتها الانتظار، عليها أن تتحرك أسرع، لهذا قررت «دهب» أن هذا البخاخ سيكون في قبضتها الليلة!

طال بها التفكير ليلة أمس، هل تركب سيارته وتأخذ البخاخ بينما هو غير منتبه؟ أم تطلبه منه ثانية وتصر هذه المرة؟ لم تبدُ لها هذه الأفكار جدية على الإطلاق.

أما الثانية فتعلم أنه سيرفض التخلي عن تلك البخاخ الذي يُمثل له قيمة وذكرى، وأما الأولى فسيعلم حينها أنها من أخذته وستنمو شكوكه أكثر.

تعرف «غراب»، لن يذهب ليسأل «شفق» مباشرة «هل أنتِ الفتاة التي التقيتُ بها تلك الليلة؟» إذا فعل سيعلم حينها أنه خسر «دهب» إلى الأبد؛ سيكون كاعتراف منه بأنه يُضمر لـ «شفق» مشاعر حب.

لن يعترف أبدًا ما دام شكّه بعيدًا دروب اليقين.

لكنه سيسعى للمعرفة بطريقة ملتوية، لذلك عليها أيضًا أن تبعد «شفق» عن «العريش» في أقرب وقت.

وتلك هي خطتها التالية، أما خطة الليلة فتقتصر على الحصول على البخاخ في قبضة يدها. رنّ هاتفها، قفزت نحوه تقول بلهفة:

- ما الأخبار؟

أتاها صوت رجل غليظ يقول:

- أنا في الطريق إلى الموقع.

- هل معكَ أحدٌ؟ انتبه؛ لأنه رجل قوي.

- معي زميل لي، سنتقاسم المال معًا.

- جيد، حفظتَ جيدًا ماذا ستفعل، أليس كذلك؟

أجاب الرجل في خشونة وضجر:

- سنعترض طريق السيارة التي أعطيتِني رقم لوحتها، ثم نُخرِج سائقها، نضربه، ثم نسرق السيارة بكل ما فيها.

- ولا تنس آن تسرق كل ما في جيوبه آيضًا.

- إذا أردتِ قتله فإمكاننا الاتفاق على سعر يرضيكِ.

قالت بينما قلبها يخفق بفزع:

- لا أريد قتله، أريدك أن تسرق سيارته فحسب، ثم تتصل بي على الفور بعدما تتأكد من وجود بخاخ ملطخ بطلاء أظافر أحمر بداخلها، ثم تُحرق السيارة في الصحراء وتخفيها تمامًا عن الأنظار.

أنهتْ المكالمة، ثم أخذت تعد الثواني والدقائق، عما قليل سيكون البخاخ في حوزتها، بطريقة لا تُثير شكوك «غراب» حولها، ستسحبه إلى دوامة جديدة، وهموم جديدة تبعده أكثر عن محيط أختها.

وهكذا ستكون أختًا مثاليًّا لا تدخر وسعًا من أجل إنقاذ توأم روحها! أمسكتْ بكوب الشوكولاتة الساخنة ترشفه ببطء وهي تهمس في جزل:

- الآن زال الخطر!

يقولون إن الثعلب حيوان ماكِر
يتخذ الغزال من بطشه ساتِر
إن شاء أكله ولم يُسمِّ
وإن شاء أطلقَه ولم يُثَنِّ!
له فرصة واحدة للنجاة
هكذا جرَتْ قوانين الطُغاة
شريطة التسليم بخضوع
وإنكار فضله ممنوع!
وإن فكّر الغزال في أن يتمرّد
ويحمي نفسه ويتفرّد
برأيٍ عن غباء الثعلب
سيُطرَد من الغابة ويتشرّد!
سيصب الثعلب عليه جام غضبه
وهذه المرة لن ينجو من بطشه
سيُقطّعه إربًا إربًا
ويصير وليمة في بطنه!
تموت الفريسة عن ضعفٍ
وخنوع وخضوع وخَوَرٍ
إذ يعلمونها في الغابات
أن التمرُّد خطر!

الليلة الثالثة عشر

نحن لا نسيء فَهم الناس، بل نتعمّد ألا نفهمهم؛ الفهم يعني التغيير، والتغيير في قاموس الثوابت خطر!

(١)

في ليلة الحادثة..

توحّدتْ مشاعره مع الشمس التي تلوّح بكفوفها مودِّعة، تشبهه؛ تعيش مشاعر وداع مُتجددة كل يوم. عيناه اللتان تجوبان ثنايا السماء وأحمالها استقرتا فجأة على الشرفة الجانبية للطابق الأخير من المبنى الثالث. دققَ النظر فتبيّنَ شخصًا يميل جسده بشدة خارج السور، لم يرَ سوى ذراعه وجزء من كتفه، شخص ما يرتدي الأسود.

دبَّ القلق في نفسه، واندفع مهرولًا اتجاه المبنى، لا مصاعد تُهون عليه المسافة، ولا صوت قوي سيتمكن من بلوغ الطابق الأخير. آلام حنجرته وبحَّة صوته أعجَزته عن الصراخ.

اندفع «غراب» يأكل السلالم في قفزات ثلاثية متتابعة، حتى وصل إلى الطابق الأخير بأنفاس لاهثة. أين موضع الشرفة الجانبية؟ فكّر للحظات قبل أن يندفع صوب إحدى الغرف.

ثم...

دوي انفجار قوي؛ اندفع جسده بقوة، وكأن الهواء أصبح له قوة شمشونية مُباغِتة. انغلق الباب بثقل جسده، وبالأنقاض التي مالت عليه، أصبح محبوسًا في الداخل. يا الله! ما الذي يحدث؟ مِن موضعه يستطيع رؤية السماء، انقشع الغبار والدخان فلم يرَ أثرًا للمبنييْن.

أصوات الصراخ بالأسفل تُنبئهُ بكارثة قد وقعت. طفق يسترجع ويُحوقِل، ويُردد آيات من الذِكر الحكيم، داعيًا إلى الله أن يكُون عونًا لهم.

ثم أتاه من خلف الباب صوت أنين! كذّب أذنيه، فلما تصاعدت وتيرته أيقن أنه يند عند فتاة تتكئ إلى الجانب الآخر من الباب. دقّ الباب ثلاثًا، ثم سألها:

- هل أنتِ بخير؟

يأتيه صوتها ضعيفًا هزيلًا، تلهث كأنما تعدو في الماراثون، تبكي بصوت مكتوم، وكأنها فُطِرَتْ على الخجل من البكاء. كلما ألقى لها بطرف حديث تشبّثتْ به كي تهرب من الظلام والخوف. تحدّثتْ كثيرًا وكأنها تخشى الصمت، تخشى المكان الذي لا تتردد فيه أصداء الكلمات.

ومن ثنايا أحاديثها نبتت خُطّافات، تعلّقتْ بعقله، وجذبت جُل تركيزه. ذكّرته بامرأة، بل بمجموعة نساء! وكأن الله جمع صفات كل امرأة لاقاها واستودعهن في امرأة واحدة؛ تشكّلتْ بينه وبنيها ألفَة مُباغِتة، وكأنه يعرفها منذ الأزل.

لا تزال تتحدث، لن يتعجّب إن كانت قد نسيت وجوده خلف الباب، وأنها تتحدث إلى نفسها فحسب. بدا كحديثِ نفس أكثر من كونه حديثًا بين اثنين. تمر على حكايات تقبع في ذاكرتها، مشاهد متفرقة من حياتها،

أبوها، أمها، أختها، مُعلمتها «آمال».

تعترف بذنوب الطفولة وطيش المراهقة، أكلت قطعة حلوى في الخِفاء، وكتبت رسالة حب إلى نفسها! تجد في كل شخص حولها خيوطَ نور وتتشبّث بها، الوحدة تجعلنا نقبل بالمتاح، بل ونطير به فرحًا. ننبذ أسباب الفراق، نغض الطرف عن العيوب والقصور، يظن الطرف الآخر أننا راضون فيمتد جوره، ويزداد طيشه. نبتسم ألمًا، يظن أننا هانئون فيجور ويبطش.

نما بداخله ضيق شديد، وغضب عظيم، الفتاة ذابلة، يمتص مَن حولها رحيق الحياة منها قطرة بقطرة، ورغم ذلك هي قانعة، لأنها تخاف الوحدة مثله، يشعر بمخاوفها، يفهمها، لا يلومها.

تتساقط العبرات فوق وجنتيه دون إرادة منه، يخجل من البكاء مثلها. يطالبها بأن تبكي، وكأنه يتحدث إلى نفسه، يأمرها أن تفرغ سمومها.

تبكي الفتاة طويلًا، ثم تهدأ أخيرًا، ينتظم تنفسها.

لقد أفلح في شيء. تنطلق الكلمات من فمها، تصف ما لا يوصف، وتحكي ما لا يُحكى؛ تعاوده غضبته، عليها هذه المرة، كيف للمرء أن يكون مُستسلمًا للأذى، كيف له ألا يرى؟ هي ترى لكنها تنكر ذلك، تُعاني عُقَد الإنكار.

في عقله تتشكل صفاتها، وتصطف بجوار بعضها، ثم تبرز أجمل صفاتها؛ التضحية. لم يتحلَّ بهذا الخُلق من قبل، كانت الأنانية هي خطيئته الكُبرى!

الخطيئة نفسها التي اقترفها «قابيل» عندما أراد من قُربانه أنه يتقبّل دون قُربان أخيه، فلما تقبّل الله من أخيه وردَّ عليه قُربانه، غضب وقتله، ثم طفق يدور عاجزًا كيف يواري سوءَة أخيه.

لم ينزعج لقتل أخيه، بل لعدم استطاعته إخفاء جثته! أتى الغراب ينبش في الأرض، بصَّرهُ الغراب بموضعه من العِلم، أنتَ نكرة يا «قابيل»، جاهل، عجز عن أن يملك من العِلم ما ملكه هذا الغراب الأسود، خسر كل شيء لأنه لم يُفكِّر إلا في مصالحه فحسب.

إنها الأنانية ذاتها، الذنب الذي ساقه إلى هنا، وجعله «غراب»!

لو كان يتحلّى بعُشر صفات هذه الفتاة التي تُحادثه من خلف الباب، لما تبدَّل الحال، وتهدَّمت الأحلام، وماتت الآمال.

تشبَّثتْ بأطراف حديثه، وتشبَّث بصفاتها، دواء هي، ستداوي جرحه النازف، وتُرمم أنقاض نفسه. سيعترف لها كم وحش بغيض هو، وكم رجل أثيم هو، لن تنفر منه، لن تراه غرابًا، ستقبَله على عِلّاته. هي لا ترى العيوب ولا تبحث عنها وتسقط عليها مثل الذباب، بل تفتش القلب عن أجمل ما فيه، وتضعه نصب عينيها. لا يرى الجمال إلا الجميل، كم هي جميلة! جميلة تهوى العطاء، البذل، التضحية، فناء النفس في النفس.

لا، لن يفعل بها ما فعله أهلها، مَن أحبَّ إنسانًا حماه من عيوبه، لن يجور

عليها، لن يؤذيها، لن يستغل كرمها، سيُعطي مثلما يأخذ، سيُريها الجانب الآخر من الحب.

لن يمتلك الظل لنفسه، لن يُبدده أو يفنيه، سيرتاح فيه فحسب، بعد سير طويل في الصحراء الحارقة. آن له أن يستريح، سينتهي العقاب الذي أنزله على نفسه، سينتهي هنا تحت الأنقاض، سيدفنه في هذا المكان، ويتشبَّث بأهداب الأمل الذي لاح له من خلف الباب المغلق.
دفع ثمن أخطائه وانتهى العقاب، يستحق فرصة ثانية، يستحق الحياة!

آخر ما سمعه منها، سؤال دفع بالابتسامة إلى ثغره:

- أحقيقةٌ أنتَ أم سراب؟

وآخر ما سمعته منه:

- سأعثر عليكِ يا حافية القدمين.

أحيا بكلماته أسطورة ساحرة، وحقق بها أمنية قديمة!

لكن حافية القدمين خاصته اختفت، ولم يعثر لها على أثر، إلا علبة دواء مُلطخة بطلاء أظافر أحمر!

شتتت كارثة العمال تركيزه، جرى إلى المستشفى يطمئن عليهم، ويواسي ذويهم، ويقضي حاجاتهم. وبعد يومين خلا بنفسه، طفق يسأل كل من كان بالموقع عن فتاة لم يرها أحد سواه، وكأنها نبتتْ من العدم.

عزم على إيجادها حتى لو اضطر إلى الذهاب إلى فرع الشركة بالقاهرة، وسؤالهم عن الفتاة التي كانت في الموقع ليلتها، والتي لم يجد لها أثرًا في المستشفى، لا بد أنها موظفة لديهم، أو على الأقل أتت إلى الموقع بعلمهم.

لكنه لم يحتَج إلى كل ذلك، كانت الفتاة أقرب مما كان يتصور، عندما ذهب إلى فرع الشركة بالعريش لم يفده أحد بشيء، وكأن الفتاة التي كانت تسأله إن كان حقيقة أم سراب كانت هي سرابًا لم يره سواه.
كاد أن يفقد الأمل لولا أن أرسل الله إليه فتى أوقفه قائلًا:

- رِيّس «غراب»! أنتَ لا تعرفني، أنا «عبقرينو»، عامل البوفيه، أردتُ الاطمئنان عليكَ.

أجابه «غراب» بعقل شارد:

- أنا بخير.

ردد «عبقرينو» بوجوم:

- ما زلت لا أصدق ما حدث، سقوط البنايات كان مشهدًا بشعًا.

التفت إليه «غراب» يسأل بجبين مقطب:

- هل كنتَ في الموقع؟ قلتَ أنكَ عامل بوفيه!

أجابه «عبقرينو» بحماس وهو يُعدِّل وضع نظارته:

- لم آكن كذلك وقتها، آتيتُ إلى الموقع كي آتحدث مع ابنة صاحب الشركة، قالوا لي إن أعجبتها سيكون أمر تعييني مُنتهيًّا.

قال «غراب» ببطء ووجوم:

- هل تقصد.. الآنسة «دهب»؟

أجابه «عبقرينو» بحزن:

- نعم هي.. لولا ستر الله كنا فقدناها هي أيضًا.. رأيتها بعيني تخرج من المبنى الذي لم يتهدّم.. هل تصدق ذلك يا ريِّس «غراب»؟ سقط مبنيان ونجت هي لأنها كانت في المبنى الثالث، سبحان الله!

لم يدرِ «عبقرينو» شيئًا عن العاصفة التي هبَّتْ في نفس «غراب» خلال حديثه.

«دهب»! هكذا ردد اسمها بداخله غير مصدق. «دهب» المشرفة على المشروع، والتي تتخفى دائمًا وراء المهندس «منعم» كي يقوم بمهامها في الموقع، «دهب» التي لم يُقابلها خلال عمله في الموقع سوى مرتين فحسب، وكان انطباعه الأولي عنها أنها مدللة كسول مندفعة، تلك هي الفتاة التي يبحث عنها!

احتاج ساعة يجوب خلالها بسيارته في الطرقات على غير هُدى، لام نفسه كثيرة لسوء ظنه فيها عندما التقاها في الموقع، عزى اندفاعها لقلة خبرتها في التعامل المباشر مع العمال، وكسلها إلى صعوبة الأجواء في الصحراء، ودلالها؟! ربما هو قناع، أو سوء ظن منه، بئس تفكيركَ يا «غراب»، تتسرع مرة أخرى، تتهمها بالاندفاع بينما أنتَ المندفع! تُطلق الأحكام جزافًا وكأنكَ تملك من البصيرة ما لا يملكه غيرك.

عاد إلى الشركة ثانية، طرق باب مكتبها بقلبٍ واجف وكأنه مُقدِم على اختبار مصيري، ذهب إليها كما هو، «غراب» رئيس العمال في موقع أبيها.

فتحت الباب، بادرها قبل أن تتكلم:

- عثرتُ عليكِ يا حافية القدمين.

في موقع العمل..

أمسكَ بحنجرته التي بدأت تنغزه بأشواك الألم، بينما شفتاه تهمسان في جزع عجيب:

- فيروز!

أدارتْ الحجر الأزرق بين أناملها، تتذكر ما سمعته، سيناء تشتهر باسم «أرض الفيروز»! سألته بدهشة:

- هل هذا حجر فيروز؟

تباطأ في الجواب، ثم هزّ رأسه واجمًا.

تجعّد جبينها في دهشة، لماذا يُرسل أحدهم إليها حجر فيروز، مرفق

برسالة تبدو وكأنها تهديد؟

- أين عثرتِ عليه؟

- سؤال يتطلّب شرحًا مستفيضًا، لم تكن مستعدة لتقديمه. أعادت «شفق» حجر الفيروز إلى جيبها وهي تقول باقتضاب:

- تأخرتُ، سأنصرف.

- أين عثرتِ عليه؟

تساءلت في نفسها عن سبب هذا الإصرار! لماذا تضطرب قسماته وتتشنج عضلات رقبته؟ ونظرة القلق التي تمتزج مع الحيرة في عينيه ما سببها يا تُرى؟ لحظة، هناك شيء آخر يرافقهما، إنه الألم!

نبت بداخلها فضول لمعرفة أسباب الألم، بل ومحاولة مداواته، مثل طبيب أتاه جريح حرب ينزف من كل بوصة من جسده، ويرجوه «داوِني». فتتحفّز مشاعر الطبيب ليؤدي الدور الذي لعبه لسنوات، المداواة.

نهَرَتْ نفسها، وعضّتْ شفتها السُفلى بشدة، كررت قولها «سأنصرف» وهي تفتح باب سيارتها وكأنها تفر هاربة من شيء مجهول، لكنه يخيفها، يخيفها بشدة.

انطلقت السيارة وابتعدت، عندها أيقنت أن ما تفر منه محبوس معها في السيارة، مشاعرها هي!

تباطأت سيارتها، ليتها سارعت بالمغادرة مع «أكمل» كي تأنس بوجوده أمامها أو خلفها على هذا الطريق الموحش، مرة أخرى الصمت والظلام.

فتحت نافذة السيارة لتسمح للنسمات الباردة بالدخول، مرّتْ سيارة «غراب» بِجوارها بسرعة كبيرة، وكأن الأرض تلفظه في كل مكان، تشعر أنه يُعاني ألمًا، ويدفنه في صدره مثل السِر.

ذكرت ما قاله لها «مستور» من قبل عن قاتل يُطارده لارتكابه جريمة شرف! استندت بمرفقها إلى النافذة، وغاصت في بحور التفكير.

الصمت والظلام، غرق «غراب» في بحورهما فتشتَتَ تركيزه؛ لم ينتبه إلى السيارة التي تقطع الطريق وتمنع مروره إلا بعد أن كاد يرتطم بها، لولا أن ضغط المكابح بغتة، فحادَت سيارته عن الطريق واتجهت صوب الرمال.

ثارت ثائرته وهو يخرج من السيارة ليُعنّف السائق الأرعن الذي أوقف سيارته بعرض الطريق، عندها بوغت بالهجوم عليه!

ضربات وركلات لم تُفرّق بين وجه وجسد. في ظروف أخرى لكان قادرًا على هزيمة الرجلين، لكن عنصر المفاجأة أثقل كفتهما، وقبل أن يدرك نيتهما كان أحدهما يركب سيارته ويُديرها ليُخرجها من الرمال، والآخر يعود إلى السيارة التي جاءا بها، ثم تنطلق السيارتان مُبتعدتان بسرعة كبيرة.

سعل كثيرًا، وكتم بكفه ألمًا حارقًا في أضلعه، بصق الدم الذي امتلأ به فمه، ثم حاول النهوض على قدميه مُحتمِلًا المَهانة والألم.

أتاها الاتصال أخيرًا، ردّتْ «دهب» بلهفة، ولما اطمأنت إلى أن المَهمة قد تمّتْ بنجاح، ولربما يكون نجاحًا ساحقًا بعزوف «غراب» عن العمل بالشركة بعد كل هذه الكوارث التي حطّتْ على رأسه.

لم تنسَ أن تُذكِّر المجرم الذي كلّفته بالمَهمة قائلة بصوت هادر:

- إياكَ والعبث معي.. كلمة واحدة عن هذا الأمر وسيكون عقابكَ رادعًا.

ثم ازدادتْ حدة صوتها وهي تقول بقسوة:

- عقاب الخيانة هو الموت!

على جانب الطريق، وبعيدًا في وسط الرمال، خلف أحد الكثبان الرملية تصاعدت نيران سيارة «غراب» المحترقة، وقف المجرمان ينظران إليها للحظات قبل أن يركبا سيارتهما وينطلقا بها. لحظات ثم ضغط السائق المكابح، فسأله الآخر مندهشًا عن سبب توقفه، فأجابه:

- نسينا شيئًا.. لم نسرق ما في جيوبه كما تقتضي المَهمة.

أشاح الآخر بيده قائلًا:

- دعك من هذا.. انتهى الأمر.

لكن يبدو أن المجرم الأول كان صاحب شرف! لم يطق أن يؤدي مهمته ناقصة، فيقِل قدره في عالم الجريمة وقطاع الطرق. يجب أن يحافظ على اسمه الذي بناه بجد وعرق.

كل هذه المَهمة من أجل غرَض لا يزال في جيب هذا الرجل الذي أوسعوه ضربًا، وإن اكتشفتْ الفتاة ذلك سترفض إعطائهما باقي المال المُتّفق عليه.

أدار السيارة وهو يعود أدراجه قائلًا بهمّة جندي يستعد لملاقاة العدو:

- لن أرحل قبل تنفيذ المَهمة كاملة.

«دهب» ومشكلاتها! يجب أن تتصرف، حتى ولو تحرّكتْ بمفردها ودون علم أبيها، عليها أن تفعل شيئًا من أجل أختها، لكن كيف؟ مررت نظراتها فوق خاتم الخطبة الذهبي، ليست مسألة «دهب» فقط ما عليها أن تحسمه، ثمة مسائل أخرى مُعلّقة تحتاج إلى الحسم، خطبتها مثلًا.

شقَّ التفكير رأسها بصداع مُزلزِل، مسَّدتْ جبينها بكفها، اجتاحها خوف شديد في هذه الأجواء الصحراوية المظلمة، لا صوت على الطريق إلا احتكاك عجلات سيارتها بالأرض.

اتصلت بـ «نرجس» وطلبت منها آن تتحدث معها حتى تصل إلى قلب المدينة. سألتها «نرجس» مُتفكهة:

- هل وجدتِ الصوت؟

أجابتها «شفق» بضيق:

- أنتِ و«الصوت»! لم أجده.

- إذن أنتِ لا تبحثين بجد.

- أبحث بجد لكن قولي لي بربكِ.. هل أذهب إلى رجل رجل وأسأله هل أنت الصوت الذي سمعته خلف الباب؟

- لا يا ذكية.. معكِ قائمة المصابين.. قارني بينها وبين العمال.. لأن الصوت بدا مما حكيتِه لي أنه رجل متعلم.. لا يبدو جاهلًا أبدًا.. بالتأكيد ستعرفينه.

- أتظنين أنني لم أفعل؟ راقبت العمال اليوم.. لا أحد يبدو مثله.

- مممم حقًّا؟ إذن لم يُسجِّل اسمه في المستشفى ليلتها.

لم تتمكن «شفق» من ترك المقود كي صدغها الذي يؤلمها. قالت:

- يجب أن نعثر على طريقة أخرى.

ضحكت «نرجس» تقول:

- رائع.. من المتحمس الآن؟

أخفت «شفق» لهفتها وهي تعض شفتها السُفلى. سكتت «نرجس» للحظات ثم قالت بحماس:

- اسمعي لدي فكرة.

- لا تقولي لي أن أطلب منهم غناء أنشودة جماعية كي أكتشف الصوت!

- اسخري كما شئتِ.. ليس عن طريق أغنية.. الأمر أبسط.. اسألي رئيسهم.. هو أدرَى الناس بهم.

اضطربت «شفق» تقول:

- لا تبدو لي فكرة جيدة يا «نرجس».

- بل هي الفكرة الوحيدة الجيدة.. اسأليه ولينتهي الأمر.

حلَّ الصمت طويلًا، حتى قطعته «نرجس» بقولها:

- أعلم أنكِ خائفة.. لكن ربما ينتظركِ شيء جميل في النهاية.

شعرت «شفق» بدقات قلبها تتسارع وهي تتنهد بحرارة قائلة:

- وماذا إن كان شيئًا بشعًا؟

- على الأقل ستكونين أسكتِّ الأسئلة التي تجوب رأسكِ الآن.. وأغلقتِ باب «لو» الذي تخرج منه أماني شرسة تلتهم كل شيء.

سمعت «نرجس» صوت المكابح يدوي صداه بغتة، فقبضت على هاتفها بقوة وتساءلت بجزع:

- «شفق» ماذا حدث؟ هل آنتِ بخير؟ آجيبيني.
- بخير.. لكن هناك...
- هناك ماذا؟
- «نرجس» أغلقي الآن.. سأحادثكِ ثانية.

ترجّلتْ «شفق» من سيارتها وهي لا تزال تُطبق بكفها على هاتفها، وعلى ضوء مصابيح سيارتها الأمامية رأت «غراب» واقفًا أمامها، يتلطّخ قميصه الأبيض بالدماء، تتعلق بها نظراته تعلّق الغريق بطوق النجاة.

---

(٢)

- يا شيخ، أريد أن أتزوج من فتاة ليست سوارفية.

هكذا نطق بها «بحر» دون زينة أو بهرَجة، في مجلس لم يضم سواه والشيخ، وكما توقّع «بحر» احتدّتْ قسمات الشيخ وهبَّ واقفًا يقول بحدة:

- هل جننتَ يا «بحر»؟

هبَّ «بحر» واقفًا بدوره، يقول بإصرار لا يخلو من أدب الحديث:

- عفوًا يا شيخ، هكذا اتفقتَ معي إن تزوّجت من «عين».

أشاح الشيخ بعصاه، وهو يقول مُنفعلًا:

- قصدتْ أي فتاة من القبيلة.. وبدل الواحدة ثلاث.

شبّك «بحر» كفَّيه خلف ظهره، يزن كلماته ونبرة صوته كيلا يأتي بما يؤجج غضب الشيخ أكثر. قال:

- عفوًا يا شيخ.. من أريدها ليست من القبيلة.

تساءل «بحر» في نفسه للحظة، تُرى هل تسرَّع بقرع طبول الحرب؟ كلا، لم يتعجَّل، فعلها في الوقت المناسب تمامًا.

عليه أن يحسم أمره قبل الزواج من «عين»، بعد الزواج منها ستكون «لا» ضخمة وحاسمة، لكن «لا» التي سيقولها الشيخ الآن ستحتمل التغيير، لأنه لا يزال على البَر، يستطيع في أي لحظة أن يختار حريته، ويُفارق القبيلة بمن فيها.

يعلم أن أباه لن يستطيع خسارة ابنٍ آخر من بعد «مُسْفِر»، حتى إن كان ستة من أبنائه حوله وتحت طوع بنانه، ستبقى مرارة فقدان «مُسفر» في حلق أبيه إلى الأبد.

«مُسفر» الطائر الحُر الذي رغب في السفر والترحال، عشَقَ التاريخ، وأراد أن يزور كل الأماكن الأثرية التي كان يقرأ عنها في الكتب، كانت روحه أكبر من أن تسعها الصحراء.

أراد أن يتحرر من قفص القبيلة، فأبَى الشيخ، وقف في وجهه وقطع عنه مدد المال، لكن ذلك لم يُوقِف «مُسفر»، فارق القبيلة وعمل هنا وهناك كي يجمع المال الكافي للسفر والترحال.

كانت تبلغهم أخبار «مُسفر» وعلاقته التي توطّدتْ بـ «جبار»، لم يتركه «بحر» من غير ناصح أمين، التقاهُ كثيرًا خارج حدود السوارفة، أدّى الأمانة التي عليه لأخيه، نصحه كثيرًا، وأخبره أن «جبار» شيطان رجيم.

لم يستمع «مُسفر» إلى نصيحة أخيه، وفي ليلة لاقى «مُسفر» و«جبار» في المرعى المفتوح، دنا «بحر» منهما فسمع جزءًا من حديثهما، إذ كان «مُسفر» يخبر «جبار» عن رغبته في أن يقول للفتاة التي يخفق من أجلها قلبه جملة من حكاية قديمة لطالما قصَّتها عليه أمه!

في تلك الليلة الكالحة حاول «بحر» إعادة أخيه إلى القبيلة فأبَى، وفي الليلة ذاتها بلغه خبر مقتله على يد «جبار».

عاد «مُسفر» إلى القبيلة جثة مُدرجة بالدماء، تهالك قلب الشيخ فلم يجسر على أن يقوم بتغسيله، ولا «بحر» الذي انطلق في إثر «جبار» مع بعض إخوته طلبًا للقصاص.

الآن وبعد ما يقرب من سنة على وفاة «مُسفر» لا تزال ذكراه جرحًا غائرًا في قلب الشيخ. يعلم ذلك، وآسفًا سيستفيد من ذلك، سيُحقق حريته بولوج أضعف أبواب الشيخ وأكثرها وهنًا. لذلك قال بنبرة قاطعة:

- فكّر ما شئتَ يا شيخ.. وأبلغني برأيكِ في أي وقت حتى يوم العرس.. إن وافقتَ سأتزوج من «عين».. وإن رفضتَ...

أطرق برأسه وهو يُكمل عبارته بسرعة خاطفة وكأنه لم يعد يتحمل وطأ الكلمة وثقلها:

- سأرحل.

قالها ودار على أعقابه مُغادرًا. تهالك الشيخ فوق المجلس، يضغط بكفه جرحًا نازفًا في القلب، لا يزال ينبض ألمًا!

---

(٣)

أقبلَتْ «شفق» على «غراب» مضطربة الأنفاس، تنتقل نظراتها من الدماء التي يصطبغ بها فمه، إلى أمارات الخطر في عينيه، تسأله:

- ماذا حدث؟ مَن فعل بك ذلك؟ أين سيارتك؟

تحامل «غراب» كي يتحدث قائلًا وهو يشير صوب سيارتها:

- اذهبي.

وقفت للحظة لا تستوعب ما قاله، ثم قالت:

- اركب معي.. يجب أن تذهب إلى المستشفى.

سعل مرتين ثم كرر ثانية:

- اذهبي.

قالت بحيرة وهي تشير إلى الدماء التي تُلطّخ فمه:

- أنت تنزف.. هيا.. سآخذكَ إلى الطبيب.

جز على أسنانه ألمًا وهو يضغط بكفه فوق أضلعه:

- لا أريد أن أورّطكِ في المشكلات، خطيبكِ، لا أريده أن يتفوّه بالهراء ثانية.

ازدادت حيرتها، ونمَتْ دهشتها، أيفكر فيها في هذا الوضع؟ ثم استطرد يقول:

- لو أمكَن.. اسمحي لي باستخدام هاتفكِ.. سأطلب من أحد العمال أن يحضر بسيارة أجرة ليأخذني.

بحثت «شفق» في قائمة هاتفها وهي تقول بعُجالة:

- لا داعي لذلك سأطلب من سائق سيارة الشركة أن يأتي حالًا.

نما إلى أسماعهما صوت سيارة مُسرعة، قادمة من الاتجاه الآخر، فقالت «شفق» مُستبشرة:

- لعل صاحب هذه السيارة يوافق على العودة بكَ إلى العريش مقابل المال.

«غراب» لم يكن على الخط المُستبشر نفسه، وعندما اقتربت السيارة هتف بها بقوة:

- إلى سيارتكِ.. الآن!

شلَّها الأمر المفاجئ، ونبرته الهلوعة، دفعها صوب السيارة، سقط هاتفها أرضًا، حاولت أن تعود لأخذه، فصرخ فيها وهو يفتح باب السائق لنفسه:

- دعيه.

ما إن توقَّفتْ سيارة المجرمين وترجلا منها حتى كان «غراب» قد أشعل محرك السيارة بالمفتاح الذي تركته بداخلها، وانطلق بها بسرعة البرق.

رأى في المرآة الجانبية المجرمين يعودان إلى سيارتهما، ويستديران بها ثم ينطلقان في إثره بتصميم لا يتزعزع!

طفقت «عِيدة» تذرع البيت مجيئًا وذهابًا، تأكل أظفار أصابعها توترًا وقلقًا. سمعت قدمي «حَمَد» تقتربان من الباب، ما إن مثَلَ أمامها حتى هاجمته:

- متى يا «حَمَد»؟ لم تخبرني بعدُ متى سأعود إلى أخي.

ألقى «حَمَد» جسده المنهك فوق الأريكة. لما طال صمته احتدَّتْ:

- «حَمَد» كن صادقًا معي.. هل كنتَ تخدعني؟

زفر بضيق يقول:

- ألن تسألي على ابنتكِ يا امرأة؟

- أجبني يا «حَمَد» ولا تتهرب.. متى سأعود إلى أخي؟

هبَّ «حَمَد» واقفًا يضرب كفًا بكف وهو يقول بانفعال لقلّما أحسَّ به:

- لا أصدقكِ يا «عِيدة».. كيف نبتتْ كل هذه القسوة بقلبكِ؟

فتح باب غرفتهما وهو يشير إلى الفراش الوثير قائلًا:

- هنا عندما رأيتكِ أوَّل مرة كنتِ تبكين بشدة.. يتفطَّر قلبكِ همًّا وغمًّا.. وعدتكِ أنني لن أمسّكِ بسوء عامدًا أبدًا.. أطرقتِ برأسكِ خوفًا وقلتِ أنكِ تخشين ألا أوفي بوعودي لكِ وأن أعاملكِ معاملة

أخت القاتل.. والآن ماذا حدث يا «عِيدة».. ألم أوفِّ بوعودي لكِ؟ ألم أكرمكِ في بيتي؟ ألم أطعمكِ من نفس طعامي.. وأسقيكِ من نفس مائي.. كيف نبتتْ كل هذه القسوة بداخلكِ؟ أخبريني لأعرف.. يكاد رأسي يتفتت من التفكير.

خطت «عِيدة» صوبه، ثم قالت تُغالب ضعفًا ألقته كلماته في صدرها:

- المرأة لا تتزوج الرجل وحده يا «حَمَد»، تتزوج أمه وأباه وعائلته وقبيلته، إن كنتَ أنتَ تُكرمني فغيركَ يهينني، ولا تطلب مني أن أحكي لكَ حكايات عما أسمعه من همسات خلف ظهري، وعن نظرات ترميني بها عيون كل ما أقابلهم.. أنا كنتُ مثل «عين»، أحلم ببيت وسط أهلي وقبيلتي، لكن بسبب خطأ أخي اقتلعتموني من أرضي وزرعتموني غصبًا في أرض لا أحبها ولا تحبني.. ليس هذا فحسب.. الجميع حرمني من الماء.. لم يروني أحد بقطرة وِد، ماؤك وحده لم يكفِ يا «حَمَد».. لم يكفِ كيلا تذبل الزهرة وتموت.. هل فهمتَ الآن؟

لم يكن «حَمَد» ناقمًا على حياة تشده إلى أرض واحدة مثل أخيه «مُسفر»، ولا ناقمًا على العادات مثل «بحر»، لم تزعجه عادات القبائل وأحكام شيوخها قط، بل وضعها دومًا موضع تقدير، لأنها ما تُرسي العدل في أرضهم، وتجعل من القوانين تاجًا على رؤوس الجميع. لم ينزعج حين تزوج بـ «غرة».

طبَّق الأحكام كما تنص قوانين القبائل، يرى أن الحياة بغير قوانين تُنظمها ستكون غابة تتصارع فيها القوى حتى تكون الغلبة للأقوى.

لكن الآن في هذه اللحظة بصَّرته «عِيدة» بجانبٍ مظلمٍ للقوانين التي يفخر بها، ويمتثل لها.

هدأتْ نفسه قليلًا بعدما فهم السبب، حتى وإن لم يوافقها الرأي، لكنه على الأقل بات فهمها.

حين كررت سؤالها الذي لا تسأل غيره على مدار أيام، أجابها بهدوء:

- لا أستطيع تطليقكِ وأنتِ في فترة نفاس، الطلاق في النفاس أو الحيض يُسمى طلاق بِدْعِي، الطلاق على السُنَّة الصحيحة يكون في طُهر لم أجامعكِ فيه.

«عِيدة» التي لم تسمع من قبل بهذا الكلام، ولم ترَه يجري العمل به في قبيلتها اندفعت صارخة وهي تسقط وتضرب الأرض بكفّيها:

- كنتُ واثقة أنكَ تخدعني.. خسِئتَ يا «حَمَد».. ظننتكَ رجلًا.

صاح الحليم الذي انطفأتْ شمعة صبره:

- لم أقل إنني لن أعيدكِ لأخيكِ.. سأرتب أمر عودتكِ إلى أرض «السخاوية»، لكن الطلاق لن يحدث إلا بشكل صحيح.. لن أرضيكِ بفِعل ما لا أؤمن به يا «عِيدة».

أغلق باب البيت خلفه بقوة رجَّتْ جدران البيت وزلزلتْ ضلوع صدره، نظر إلى كفّيه فإذ بهما ترجفان.. قهرًا.

---

(٥)

شحنات القلق تفترس أعصابها بينما ينطلق «غراب» بسيارتها بسرعة كبيرة؛ محاولًا الإفلات من السيارة التي تتعقّبهما بإصرار.

هتفت بأنفاس مُتقطعة:

- ماذا يحدث؟ أخبرني.. لماذا يسعيان خلفنا؟

ضرب المقود بقوة وهو يهتف:

- لماذا توقفتِ؟ أخبرتكِ أن تذهبي.

سألته وهي تتابع بأنظار متوجسة السيارة القادمة بسرعة من خلفهما:

- مَن هما؟

فلما لم يُجبها أصابتها رجفة خوف، وضعت قبضتها على قلبها تُحاول طمأنته، عبثًا. تقطّعتْ أنفاسها أكثر، تأخذ شهيقها بصوت أثار ريبته!

أعاد ذاكرته إلى الخلف قبل عدة أسابيع؛ الصوت المُضطرب المفزوع، الأنفاس المُتقطعة، حشرجة صدرها، رعشة أناملها وهن صوتها! كلها مختلفة عن الحالة التي مرّتْ بها «دهب» أمام عينيه، مختلفة تمامًا، وكأن إحداهما ظِلّ للأخرى!

التفتَ «غراب» صوبها يسألها بقلق ولهفة:

- هل دواؤكِ معكِ؟

أومأت إيجابًا، مدَّ ذراعه إلى الخلف وجلب حقيبتها، وضعها فوق قدميها. أخرجتْ الدواء بأنامل مرتعشة.

تتناول دواءها؛ دفقة كبيرة من الأكسجين تنعش رئتيها، لكن ضربات قلبها ما زالت تدق بسرعة فائقة، حتى لكأنه سيخرج قافزًا من بين أضلعها اعتراضًا على ما يُلاقيه من هذا الجسد.

كررت سؤالها بوهن عن هوية الرجلين. أجابها بغضبٍ مكبوت:

- لصَّان سرقا سيارتي، ولا أعرف إلامَ يسعيان الآن!

فكّرتْ بقلق، تُرى ألهذا علاقة برسالة التهديد وحجر الفيروز الذي جاءها اليوم، أم أنهما لصَّان فحسب؟

قالت بصوت واهن:

- هاتفي سقط مني، هاتفكَ.. فلنتصل بالشرطة.

ليته أغلظ عليها القول ودفعها للمغادرة، ليته لم يستبطئ انصرافها بطلب هاتفها لإجراء مكالمة، ليته لم يُفكِّر في نفسه، كانت عندها ستكون بمأمن من الخطر. أطبَقَ على المقود بقبضتيه يسحقه بقوة. قال بوجوم:

- هاتفي كان في السيارة.

تضاعف خوفها، التفتت تنظر إلى السيارة فأمرها بحزم:

- لا تنظري إلى الخلف.

ارتعدتْ نبرة صوتها:

- سيقتلاننا.. سنموت.

قال مؤكِّدًا وهو يُزيد من سرعة السيارة ويُناور بها:

- لن تموتي.

التفتت تنظر إليه مشدوهة! قرأت ذات مرة عن حالة «الديجافو» التي تجعلنا نظن أننا عشنا هذا المشهد من قبل؛ أراحتْ ظهرها إلى المقعد وطفقت تسأل نفسها: هل ما تعيشه الآن حالة من «الديجافو»، أم أنها بالفعل تعيش مشهدًا للمرة الثانية؟

ليست الأحداث فحسب، بل الشعور كذلك، إحساس كالخدر يسري في أوصالها، يُطمئنها ويُهدئ روعها في قلب الخطر، شعور مألوف إلى درجة الخطر. هذا جنون.

كلما حاول «غراب» الإسراع أكثر؛ زاد جنون قائد السيارة الذي أدركَ أنه إن لم يحسم هذا الأمر في الحال فلن يفعل أبدًا.

عندئذ أخرج سلاحه من أسفل مقعده، وجد به طلقتين، لم يحتج إلى تعبئته، يعلم أنه ليس بحاجة إلا طلقتين فحسب.

أعطاه لرفيقه قائلًا بحزم:

- اضرب!

«دير سانت كاترين» الذي يقع إلى الجنوب، أسفل جبل كاترين، اختير إنشاؤه في منطقة جبلية يصعب الوصول إليها طلبًا للأمن والحماية قبل الفتح الإسلامي لمصر.

إذ دخلت مصر على يد «عمرو بن العاص» مرحلة جديدة من التسامح تماشيًا مع ما ورد في الكتاب والسنة. يحتوي الدير على كنيسة تاريخية ومكتبة ضخمة من المخطوطات والحُجج الشرعية والوثائق النادرة جدًّا.

ستُ آلافِ مخطوطةٍ دينية وتاريخية وجغرافية وغيرها، يعود بعضها إلى القرن الرابع الميلادي، بلغات عربية وسريانية ويونانية وجورجية وتركية وقبطية وإثيوبية، وسلاقية وحبشية.

علامات مائية ودمغات عثمانية تُحدد الجهة التي صُنع بها الورق، أختام عند فواصل الورق مستديرة بحبر بنفسجي، وغيرها من الأمور المدهشة.

دارت بعض هذه المعلومات في رأس «جبار»، لا بهذا التسلسل والوضوح، بل بعض معلومات متفرقات سبق أن سمعها من «مُسفر». ضحك ملء فمه على هذا النحِس الذي لم تُتح له الفرصة لتحقيق حلمٍ كدَّ طويلًا من أجله، السفر وتبديل الأرض بالأرض والناس بالناس. وُلِد «مُسفِر» في سيناء وعاش فيها ومات فيها!

اقترب «جبار» من بيت الرجل الذي ارتحل كي يصل إليه، في إحدى قرى الجنوب البعيدة نسبيًّا عن أرض «السخاوية»، وما إن دقَّ الباب حتى استترتْ امرأة الرجل الذي جاء لملاقاته بالباب، وقالت لـ «جبار» بشجن:

- لم أرَه منذ أشهر طويلة.. يقول البعض إنه مات.. ويقول آخرون إنه تزوَّج من أخرى.. ما أعرف.

تفاقم غيظ «جبار»، وكاد الحنق أن يقضم قلبه. أخرج سؤالًا من جعبته مُلقيًا إياه في حجر المرأة:

- هل تعرفين أين كان يعمل آخر مرة؟

- آخر مرة رأيته قال إنه سيسافر إلى «العريش» في عمل.. لكن ما هو هذا العمل الله أعلم.. ومن يومها لم أسمع عنه.

قبل أن ينصرف «جبار» ترجَّته المرأة باكية:

- بالله عليكِ إذا رأيته قل له أن يرسل المال لأبنائه.. يتسوَّلون من هذا وذاك وعندهم أب على قيد الحياة.. أيرضى الله بهذا؟

كان عقل «جبار» غارقًا في همه؛ غادر دون كلمة مواساة، عقله يُفكِّر في حُجَّة يخبرها لشيخ «السخاوية» كي يُسافر إلى «العريش» باحثًا عن الرجل الذي بإمكانه أن يثبت تورُّط «مُسفر» في جريمة شرف، فيكسر أعين «السوارفة» ويُمرِّغ أنوفهم أرضًا.

عليه أن يعثر على زوج المرأة الريِّس «مستور» في أقرب وقت!

طلقتان، هذا ما تطلبه الأمر!

طلقة أصابتْ العجلة الخلفية اليُمنى، والثانية أصابتْ اليُسرى، ثم توقّفتْ السيارة بعدما أصدرتْ صريرًا مزعجًا كمن ينازع في الرمق الأخير.

علت صرخات «شفق» تستنجد من حولها بلا أحد، ثم رفعتْ عينيها إلى السماء تستجدي عون الله الأحد. تحرّك الرجلان بسرعة بالغة وكأنهما اتفقا دون اتفاق. رجل وامرأة، إذن فالخُطة المُمنطقَة تستوجب اتخاذ المرأة هدفًا، ليستسلم الرجل!

توجها صوب الزجاج الأمامي لجهة «شفق»، انهال أحدهما عليه بكعب السلاح، أما الآخر فحاول فتح الباب المجاور لها عنوة.

تحرّك تفكير «غراب» بسرعة ليرسم خطة مضادة، أو ليسير كما شاء الرجلان تمامًا. هتف بها بفزع ملأ قلبه وسال من جوارحه:

- اغلقي الباب من خلفي.. وانتقلي إلى مقعد القيادة.

ظلَّ عقلها مُشتت فصرخ باسمها كي تنتبه:

- «شفق».

التفتتْ تتشبَّث نظراتها بوجهه. قال:

- الآن.. اغلقي الباب خلفي.. ثم انتقلي إلى مكاني.

تجهّزتْ للضغط على مفتاح غلق الأبواب أتوماتيكيًّا، وما إن فتح «غراب» الباب المجاور له وأغلقه حتى ضغطتْ الزر فورًا، قبل أن يتمكن المجرم من فتح الباب المجاور لها، أو لعل هذا ما أراده تمامًا، المرأة لا تعنيهما في شيء، هي وسيلة إضعاف لا أكثر.

انتقلتْ إلى مقعد القيادة وشاهدتْ بأعين باكية صراعًا غير مُتكافئ القوى. السيارة متوقفة لا تملك أن تتقدم بها لتُرهبهما فيبتعدان عن «غراب».

بغير وعي ظلّتْ تضغط على زمُّور السيارة دون انقطاع. حدث كل شيء بسرعة، كتّفه أحدهم، ركله بقدمه ثلاث، ثم فتّش جيوبه وأفرغها من كل ما فيها. وقبل أن يتمكّن «غراب» من الوقوف على قدميه ثانية، كان الرجلان قد ولجا سيارتهما وانطلقا بها بسرعة شقّتْ سكون الليل.

لم يكن الظلام وحده بالخارج، انضم إليه رفيقًا مُفزعًا، أصوات كلاب تنبح في الخارج، تقترب وتقترب، كل شيء كما مرّتْ به من قبل!

«غراب» يتجه صوب النافذة وينظر إليها، ولأن الوساوس الخبيثة تتخيَّر اللحظة المناسبة لاصطياد الفريسة؛ اختارت جملة «مستور» تلك اللحظة بالذات كي تتردد في رأسها «جريمة شرف».

هذه المرة أخرسَتْ الوساوس بضغطة زِر مكّنته من فتح الباب والالتجاء إلى السيارة بجوارها.

ساد صمت طويل لا يقطعه إلا صوت أنفاسهما اللاهثة، اجتمع الخوف والظلام وأصوات الكلاب لتُحفِّز ذاكرتهما، وكأن الصحراء تمنحهما فرصة ذهبية

لتصحيح الخطأ!

لم يشأ «مستور» أن يذهب للتحدث مع «عبقرينو» في الشركة؛ فضَّل أن يأتي بعنوان بيته ويزوره زيارة مفاجِئة. في بيته سيتمكن بشكل أفضل، أفضل من التحكُّم في عقله الصغير هذا، ويدفعه إلى أن يبوح بكل ما يعرفه بسذاجته المفرطة.

وكي يُسوّغ أمر زيارته؛ أخبره ما إن فتح له الباب وأجلسه في غرفته:

- جئتُ إليكَ بفرصة عمل جيدة.. إنها في أطراف القاهرة.. لكن بمرتب مُغرٍ جدًّا.

يسكن «عبقرينو» مع أبيه وأمه وأخوته؛ فضَّل ضيافة «مستور» في غرفته، وإن كان لم يفهم ما سر اهتمام «مستور» بأمره، وهو الذي لم يلقَ منه كلمة طيبة حينما كان يمر على الشركة بين حين وآخر.

لم يدع له «مستور» فرصة لاستجماع أفكاره، طلب منه كوبًا من الشاي الثقيل. ما إن خرج «عبقرينو» وأغلق الباب خلفه حتى نهض «مستور» من فوره يُفتّش بين أغراضه.

لا يعرف عمَّا يبحث، لكنها فرصة مواتية لخيانة الأمانة فلم تتمكن دماؤه الشرهة لخبائث الأفعال من أن تقاوم تلك الشهوة، وكأن الذنوب داء خبيث يُصيب جلده بالحكّة إن لم يأتِ بها.

وما إن سمع «مستور» وقع قدميه تقتربان من الغرفة حتى عاد يجلس في مكانه ثانية. داهنه، ومدحه، وحاول طيّه تحت جناحه، ورغم كل جهوده خلال ساعة كاملة، باءَتْ كل محاولاته بالفشل ولم يحصل من «عبقرينو» سوى على عبارة:

- لا أعرف عمَّا تتحدث يا ريّس «مستور».. الريّس «غراب» لم يفعل أي شيء خاطئ.. حديثي مع الباشمهندس «منعم» فهمته أنتَ بشكل خاطئ.

يثق «مستور» أن هذا الشاب الساذج يتذاكَى عليه، ربما لأنه يريد المال مقابل المعلومات. ولمَ لا، لكل شيء ثمن، والشاب من حقه ألا يبوح بالمعلومات إلا بمقابل مادي.

وعندما نفّذ ما فكّر فيه ولمّح لـ «عبقرينو» بشأن المال، تجمدتْ قسماته وقال بشيء من الغلظة:

- قلت لكَ لا أعرف أكثر مما يعرفه الجميع يا ريّس «مستور»، ومن فضلك أريد أن أنام لدي عمل في الغد.

جزَّ «مستور» على أسنانه وهو يطلب منه كوبًا من الماء البارد، وما إن فارق الغرفة حتى كرر فعلته، هذه المرة مع بنطاله وقميصه المُعلقيْن على المشجب. وقعت يده على محفظته، فتحها غير متيقن من أنها لن تُفضي به إلا إلى طريق مسدود.

لكن ويا لسعادته، في البطاقة الشخصية لـ «عبقرينو» عثر على شيء قد يصلح للاستغلال بشكل مربح. الآن يستطيع أن يُساوم هذا الشاب الذي اتضح أنه ليس ساذجًا كما يبدو.

ليس مقابل المال، بل مقابل السكوت وعدم كشف هويته! لكن ليس الآن، عليه أن يفكر جيدًا ويعيد ترتيب أفكاره.

ما إن عاد «عبقرينو» بوجه مُقبَض حتى تجرّع «مستور» كوب الماء كاملًا ثم استأذن للانصراف. وعندما شيّعه «عبقرينو» وعاد إلى غرفته شعر أن زيارة «مستور» كانت مريبة بشكل كبير، حتى إنه نسيَ أن يُحدثه عن العمل الذي أخبره أنه جاء لأجله!

مرر نظراته على كل شيء من حوله، شعر بشيء ما ليس في موضعه الصحيح، ملابسه على المشجب غير مهندمة كما اعتاد أن يفعل. فتح محفظته بسرعة، أخرج بطاقة هويته، فكّر بجبين مُتغضّن وقلق مُتصاعِد بينما يُعدِّل من وضع نظّارته: هل عرف هويتي الحقيقة يا تُرى؟

لم تعلم «دهب» وهي تتمدد فوق الفراش في نومتها الهانئة أن كل ما تمكرهُ كي تدفن الحقيقة أكثر، كان يُساعد في كشفها، وأن العراقيل التي تضعها في طريقهما، كانت جسرًا يجمع بينهما، وأن الجريمة التي دفعتْ مالًا من أجلها كي تسرق الدليل من بين يديه، ستُسقِط في قلبه هذه الليلة دليلًا آخر أكثر قوة!

السيارة متوقفة بعدما أفسدتْ الطلقات إطاراتها، الظلام حولهما يُدثِّرهما بردائه. كانت ضربات قلبها قد شَرعتْ في الانتظام. استدارتْ «شفق» صوبه تسأله بريبة:

- ما سبب هذا الإصرار على سرقتك؟ حتى إنهما لم يحاولا سرقة سيارتي، أو حقيبتي!

كان الغباء جُندًا من جنود الله، سلّطه الله على عقل المجرم الذي أصرَّ على الرجوع ثانية، وفي الشر خيرٌ مدفون كهدية، إذ توقّف عقل «غراب» عند هذه النقطة، حتى أيقن أن سبب الهجوم عليه لم يكن السرقة بحد ذاتها. الانتقام ربما، وربما شيء آخر يجهله.

لا يملك في سيارته، ولا في جيوبه ما يستحق كل هذا المجهود للسرقة مرتين! ولم تكن سيارته تُساوي معشار الثمن الذي تساويه سيارة «شفق»، لم يكن المجرمان مجرد قاطعي طريق ظَهرا له من العدَم، إنها جريمة مُدبَّرة الأركان.

مَن فعلها، ولماذا فعلها؟ هذا ما أجهد ذهنه من أجل اكتشافه.

- تحدَّث بأي شيء.. الظلام يُخيفني.

رغم أضواء السيارة المُضاءة إلا أن الظلام جثمَ بثقله على أنفاسها؛ كادت النوبة أن تُعاودها من جديد. قال بصوت هادئة نبراته:

- لا تقلقي.. سنجد طريقة حتمًا.
سألته بأمل:
- إن تأخرتَ.. هل سيقلق عليكَ أحد.. هل سيأتي ويبحث عنكَ؟
أطرق برأسه، رأته يضم كفّيه إلى بعضهما ويسحقهما بقوة، وكأنه يُغالب ألمًا، ثم قال باقتضاب:
- لا.
انصهر أملها. قالت بحيرة:
- لا أهل.. لا أسرة.. لا أقارب.
أخذ شهيقًا زفره بقوة وهو يقول باقتضاب ثانية:
- لا.
حيّرها جوابه، ألا يملك المرء في هذا العالم أناسًا يقلقون إن تأخّر؟ كم هذا مُؤسف. سألها، لم يُحاول التشبُّث بالأمل هو الآخر، بل يُحاول استنباط أمرًا:
- خطيبكِ سيقلق بالتأكيد ويأتي للبحث عنكِ، أليس كذلك؟
أشاحت بوجهها للحظات تتطلع إلى الأطراف المترامية بجانبها، ثم عدّلتْ رأسها وقالت بخفوت:
- لن يلحظ غيابي.. لا نتحدث كثيرًا على أي حال.
سألها باهتمام كبير:
- و«دهب»؟ بالتأكيد ستلحظ غيابكِ.. ستتصل ولن تجيبي على هاتفكِ وستقلق أكثر.
- ستظنني عند «نرجس».
- ألن تتصل بـ «نرجس» لتتأكد؟
دسَّتْ «شفق» كفيها الباردين في جَيبي معطفها وهي تقول باضطراب:
- إنهما ليسَتا على وفاق.. لا أظنها ستتصل بها.. ستنتظر حتى أفعل أنا.
ثم قالت وقد لاحت لها بارقة أمل:
- «نرجس» ستقلق.. كنتُ أتحدث معها على الطريق وأخبرتها أنني سأعاود الاتصال.. حتمًا ستظن أن شيئًا قد حدث وستتصرف.. أنا واثقة.
- صديقتكِ أكثر قلقًا عليكِ من أختكِ؟
سؤالٌ ألقاه ولم ينتظر له جوابًا، بل انتظر ردة فِعل! ارتدتْ روب المحاماة دافعت بحماس وكأنها في إحدى مرافعاتها بالمحكمة:
- «دهب» لديها أسبابها الخاصة في القلق.. يعني تأخري ليس من الأمور التي تلفت انتباهها.. لكن بالطبع نحن قريبتان من بعضنا.. جدًّا.
اندفعتْ في دمائه فورة من مشاعر الضيق، والقهر، والغضب. غضب هادر قد يسحق كل شيء في طريقه. الفتاة التي استمع إليها لساعاتٍ من

خلف باب مغلق تقلق إن لفحَ وجه آختها نسمة هواء باردة!

هل وقع في خدعة مُتقنة من فتاة محتالة؟ حاول الإنكار، وصرْف كل بواعث الشك من نفسه، لكن هيهات، لم يعد الشك شكًا، كبر وترعرع بالأسباب وتكوَّن في رحم الصدر يقينًا، يحتاج دفعة واحدة كي يخرج من الظلمات إلى النور.

بغير وعي أمسك بالملف الذي كان موضوعًا أمامه، فتحه بعين تتظاهر بالقراءة ولا تقرأ، انتبه إلى أنَّ ما يمسك به بين يديه هو الملف الذي لم يُفارق يدها منذ ساعات.

ورقة بها أسماء المصابين والتي أرتها إياه، وورقة بها أسماء الموتى. أعاد قراءة أسماء الموتى التي يحفظها عن ظهر قلب، في محاولة فاشلة ليصرف ذهنه عما يستعر به من غضب. لم تكن فاشلة كما ظن، إذ استرعى انتباهه ما حفّز كل خلايا التفكير في رأسه، واستجلب حيرته وجزعه!

توقفتْ عيناه وأنامله عند اسم «سهيل السخاوي» وتمتم:

- مستحيل!

استرعت همسته انتباهها، مالت برأسها لتنظر إلى موضع قراءته. سألته بحماس:

- هل تعرف «سهيل السخاوي»؟

أغلق الملف بقوة، تزايدتْ نبضات قلبه تسارعًا وهو يتمتم ذاهلًا:

- كيف حدث ذلك؟

حاز بكلماته على تركيز «شفق» كاملًا، كررتْ السؤال فلم يُجِب، فقالت بحزم:

- أنتَ تعرف من يكون «سهيل السخاوي» يا ريِّس «غراب.. إياكَ أن تكذب».

انتفض لهول كلماتها، اشتعلت عيناه غضبًا حتى ولكأنّها عين بركان تخرج منه الحمم. قال هادرًا وهو يضغط على حروف كلماته بقوة:

- أنا أبدًا لا أكذب.

ثم تمتم بقسوة:

- وأكره الكذابين.

- إذن قل الحقيقة.. ماذا تعرف عن «سهيل السخاوي»؟

صحيح لا يكذب، لكن بإمكانه أن يمنح الصمت جوابًا عن الأسئلة التي لا يرغب في إجابتها. صمته مثل جدار صلب لا يُمكن خرقه، لذلك لم تصر عليه كثيرًا. وعندما لاح بذهنه الفيروز الذي كانت تحمله بين أناملها في الموقع وسألها عنه، ردَّتْ بحزم من يرد الصاع صاعين:

- ولماذا أخبركَ عن ذلك؟ أنتَ لا تخبرني بأي شيء.

ثم أضافتْ ساخرة:

- يبدو أنكَ نسيتَ أنني محامية.. سأعرف من يكون «سهيل السخاوي» متى أردتُ ذلك.

سألها سؤالًا باغتها:

- ولماذا لم تفعلي حتى الآن؟

ردت بضيق:

- لأنني نسيتُ أمره.. ولا تسألني عن شيء آخر لأنني لن أجيبكَ.

أطبق بفمه على ما نبتَ بداخله من أسئلة، هي محقة، إن لم يُقدِّم لها الإجابات التي تحتاجها، لن تفعل معه المثل، لكنها لا تعلم أن الإجابات صعبة، غير محتملة، مثل نثر الملح على الجرح. ليس جاهزًا للبوح أبدًا.

الجهل بالنفس ظُلمات بعضها فوق بعض، وإنكار المعرفة كالوقوف على شَفا جُرُفٍ هارٍ.

حامَتْ «شفق» حول الحقيقة، تُراوغها، تتفلّتْ منها، حتى حجبها عقلها وأبقاها في الظلمات. لكن القلب داهية عجيبة، ليس ساذجًا كما يدعونه أهل المنطق والتفكير، يتفلّتْ من الأوامر التي لا يرضاها، ويبث في الدماء دفقات من المشاعر غير قابلة للسيطرة.

لازمتها حالة «الديجافو» حتى لكأنها عادت إلى تلك الليلة خلف الباب المغلق، تستأنس بصاحب «الصوت»، يسأل عن دوائها، ويُحدثها كي يصرف ذهنها عن مواطن الفزع، ويؤكد لها «لن تموتي»، وكأنه عالم بالغيب وما هو بالعالِم، إنما يُلقي لها بأمل يتشبَّث به عقلها كيلا تفزع.

تمتمتْ من بين شفتيها همسًا: ما بكِ يا «شفق»!

ضمَّتْ معطفها حول جسدها تُضيّق عليه الخناق، لا تحميه فحسب من البرد الذي يضربه من الخارج، أيضًا من يد باردة قبضت على قلبها بغتة، فانتفضَ.

مسحت بكفيها فوق وجهها، فسألها:

- هل أنتِ بخير؟

اعتصرتْ اليد الباردة قلبها أكثر، أومأت برأسها دون كلمة، تسلّحتْ بالصمت.

ظنَّ هو أيضًا أن الصمتَ يقتل الكلمات، لكنها أبدًا لم تمُتْ، تعالتْ ثرثرة الصمت في الأجواء بصخبٍ. هل يكون للصمت صخب؟ الصمت الصاخب أشد وطأة من الحديث، لا مهرب منه، ولا ملجأ منه إلا إليه. لا يخجل من المشاعر مثل الحديث، لا ينبذها، ولا ينكرها.

الصمت غازل ماهر؛ يغزل من خيوط الفراغ كلمات سفّاحات، مُتأججات بالعواطف المشحونة، والمشاعر المُضمرة سرًا، يقتلن الشك بسهام اليقين.

يُمكن للنفس أن تراوغ حال الحديث، لكنها تخر على أقدامها مُستسلمة

حال الصمت.

بكاءً صامتًا بلا صخب، دون أن تدري لبكائها سببًا، وكأن بدويًّا حفر بئرًا في عينها فسكبتْ ماءها.

ماء العين مالح، لكن القطرات التي تقافزت فوق وجنتيها كانت عذبة!

هكذا شعرت ما إن ارتشفت إحداها نجحت في الوصول إلى شفتيها، هل يكون ماء العين عذبًا؟ عذبًا لكن ساخنًا، وكأن بداخلها مرجلًا يحترق.

احتضنها التيه والضياع، لا تفهم ما يحدث لها، عاجزة عن الفهم وكأنها طفلة في السادسة، عقلها يُعاقبها على أُلفَة الإنكار.

البدر يقتبس نوره من مِشكاة الشمس، شعرت أنها بدر وتحتاج إلى شمس. عجيب، إنها شفق لا يُمكنه بلوغ الشمس!

سمع دقّات بوتيرة ثابتة، تنامى خوفه، هل يسمع دقّات قلبه المحمومة بالأفكار والمشاعر المضطربة؟ ثم انتبه إلى القطرات التي تحجب الرؤية أمامه.

المطر يتساقط بروية، ثم بقوة. أمره علام الغيوب أن يغسل الأرض من أدرانها كي تطرح أثمارًا نضرة؛ لا يمكن للثمر أن يُطرح في أرضٍ خربة.

أغمض عينيه لوهلة. تمنى لو يغسل ماء المطر قلبه.

أراد أن يقتل الشك فأكله! لم يعد في وسعه تجاهل الحقيقة الساطعة سطوع الشفق؛ جميلة، لكن دامية.

لم يعد متخبطًا على الصراط بين الشك واليقين، خرج اليقين من رحم الصدر جنينًا مُكتمل التكوين.

لقد خُدِع، كان عليه أن يدرك ذلك من اللحظة التي وقعتْ فيها أنظاره على الفتاة الجالسة بجواره الآن، كل شيء فيها يؤكد له أنها حافية القدمين التي بحث عنها بقلب بحّار يتوق إلى جزيرة يرتاح عليها.

عرفها بقلبه، دون أدلة أو براهين، دون سؤال أو تلميح، دون حاجة لرؤية وجهها والغوص في بحور عينيها.

استرعى انتباهه الخاتم الذهبي الذي يُطوِّق إصبعها، وبقبضة يده نفّس عن الغضب بلكمة سددها إلى النافذة بجواره. انتفضتْ بغتة، التفتتْ صوبه متسائلة.

السيارة تضيق وكأنها قبر يضم جسده ضمة تُفتت أضلعه، فتح بابها وخرج. صاحت به:

- ماذا تفعل؟

أغلق الباب خلفه بقوة، رفع رأسه إلى السماء يسمح للمطر أن يلطم وجهه علّه يفيق من هذا الكابوس!

ترددتْ للحظات ثم فتحت بابها ولحقت به، حاولت أن تحمي رأسها من المطر المُنهمر بمعطفها وهي تهتف:

- ماذا تفعل؟

فتح عينيه، جزَّ على أسنانه يطحنهما، التفتَ صوبها برأسه، يبحث عن بصمات أصابعها على جريمة مُحكمة، هل شاركت في خداعه مع أختها أم تمَّ ذلك دون علمها؟

لم يرَ في وجهها إلا الحيرة، وبعض القلق، باغتها بسؤال قاله بصوت خافت لا يكاد يُسمَع من صخب المطر:

- عمَّن كنتِ تبحثين في قائمة المصابين؟

وأضمر باقي السؤال في نفسه «عني»؟ عن «الصوت» الذي سمعتِه ذات ليلة من خلف باب ضرب بينكما؟

كانت قطرات المطر ستارًا مُسدلة بينهما، حاجبًا يُضيِّق مجال الرؤية، ويُشوِّش صورها. لكن مَن قال إن الحجب لا يُمكن خرقها؟

صمتها فعل، اخترق الحجب وبات كإقرار بكل ما يعتمل بصدره.

أطرق برأسه، ثم ضرب جسد السيارة بقبضته ثانية، لماذا لم تنتظر، لماذا تسرعتْ وارتدت خاتم رجل آخر؟

لا تزال لا تفهم السبب الذي دفعه لتمضية النصف الساعة التالية كاملة خارج السيارة، مُستندًا إليها، يوليها ظهره!

كان المطر قد هدأ، بانتهائه عبّقتْ رائحته الأجواء. لطالما أحبَّت رائحة المطر، لكن كل ما اشتمّته لحظتها كان الخوف! هل للخوف رائحة؟

هكذا شعرت حواسها، تجسَّد الخوف وجلس بجوارها في السيارة مُرافقًا لا يكل ولا يمل.

خوف من شعور طاغي بحقيقةٍ تحاول دفنها!

لاحت سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس؛ تحفّزت في جلستها، فتحت النافذة ونادته كي يركب. لم يفعل وكأنه لا يطيق مجاورتها.

التفتَ يتطلع إلى القادم بريبة، وفي اللحظات التالية كانت واقفة فوق الأرض المُبللة ببكاء السماء تُعانق «نرجس» وتُبلل كتفها بدمعاتها.

لمحت من خلف ستار الدمع والد «نرجس» يتوجه صوب «غراب» ويطمئن على حاله بعدما أفزعته بقع الدماء المتناثرة فوق قميصه.

كانت تُطمئِن «نرجس» على حالها بينما عقلها مُشتت التفكير، لم تسمع ما يدور بين الرجلين من حديث، فقط انتبهتْ إلى «غراب» وهو يُمسك بحنجرته ويُمسِّدها.

ولم تبلغ أسماعها كلمات الشكر التي وجهها إلى والد «نرجس»، بصوتٍ بدأت تتكون فيه بحَّة مُميزة!

الذنبُ سُوسٌ ينخر الروح
يُشتِت النفس ويَفتح الجروح
لكل ذنب قلم ومِمحاة
والعفو من رب العباد ممنوح!
لكن البعض من روح الكريم ييأس
وبوسوسة وكيد الشيطان يأنَس
يحسَب أن ذنبه العظيم
على كل أعماله يترأّس!
يغلظ على نفسه في القول
يُحقِّر ويَذِل ويَجلِد
حتى وإن استحالَتْ عابِدة
لا يعفو عنها ولا يَصفَح!
في الغُلُو كل شر

والإنصاف لا يكون إلا الخير!
التائب من الذنب كمَن لا ذنب له
ومن أساء إلى نفسه كمَن لا عقل له!
لكل جواد سقطة وكبوة
وظُلم الإنسان لنفسه نَكبَة!

الليلة الرابعة عشر

إذا خيّركَ جلّادُكَ بين نار ونار؛ اِختَر ألا تختار.

(١)

الطريق الذي لم يستغرق سوى دقائق معدودات شعر بأنه طويل جدًّا، يسير بحسابات أخرى غير قوانين عقارب الثواني والدقائق والساعات. لم تنفك تجعيدة جبينه لحظة، منذ أن ركب سيارة والد «نرجس» في المقعد الأمامي بجواره، قاد الرجل السيارة مُسرعًا قدر استطاعته كي يدخل إلى قلب المدينة حيث الناس والضوء والعَمار.

مسح المطر الدماء عن وجهه حتى وكأنها لم توجد قط، ليتها تفعل المثل بصدره الذي يتأجج غضبًا.

تلاقتْ عيناه من خلال المرآة الجانبية مع عيني «شفق» التي تجلس خلفه مُنهكة القوى، وكأنها خرجت للتو من حرب استنزاف لم تفُز فيها ولم تُنهزَم.

لم يستطع تحمل فكرة وقوعه في براثن خدعة خبيثة، لم يعد بحاجة إلى دليل، كان عليه من البداية أن يثق بحدسه!

إصرارها على مساعدته رغم معاملته الجافية، حِسَّها بالمسؤولية، ضميرها اليقظ، كل ذلك كان يصفعه بقوة، كيف لم ينتبه للفارق بين الفتاتين؟

كيف صدَّق أذنيه وكذّب قلبه؟ لماذا قتل الشكوك التي كانت تنبت بصدره بدلًا من أن يأخذها بمحمل الجد؟

اغتاظ من نفسه كثيرًا، ضم أصابعه بقوة في قبضة لو وجّهها إلى زجاج السيارة لهشّمته. ودّ لو أوقف السيارة وأمسك بكتفيها وهزّها مُطالبًا بإجابتها على أسئلة تتقافز بجنون داخل رأسه.

«لماذا خدعتني أختكِ؟ هل شاركتِ في تلك الخدعة؟ لماذا طوِّق إصبعكِ خاتم رجل آخر بعد أسبوع من لقائنا تحت الأنقاض؟؟».

زفر بقوة فانتبه والد «نرجس» إلى فوران الدماء في جسد الرجل الجالس بجواره، ظنّ أنه مهموم بسرقة سيارته فربّتْ على ساقه وقال:

- استرجع يا بُني.. لعل الله يردها إليكَ أو يخلفكَ خيرًا منها.

انتفض «غراب» وقد ظنّ للوهلة الأولى أن الرجل يُحدّثه عن الفتاة التي سكنت قلبه! ثم فطن إلى مقصده فعاد إلى استرخائه وهو يُومئ برأسه شاكرًا له.

تعجَّبتْ «شفق» من النظرة الغاضبة التي حدّجها بها! لماذا لا يفرح بالنجاة وتبدو على وجهه أمارات الصرامة والقسوة؟

أصر والد «نرجس» أن يعرج بهما على المستشفى أولًا، لتفقد جراح «غراب» ولفحص «شفق» التي عارضت:

- أنا بخير.. لم يصبني شيء.

أراد «غراب» أن يعترض بدوره، لكنه لم يتفوّه بكلمة واحدة. ترجل من السيارة برفقة والد «نرجس» ودخلا المستشفى. سارعتْ «نرجس»

بسؤال صديقتها عما حدث، تسمع التفاصيل للمرة الثانية رغم آنها فعلت منذ قليل عندما قصّتها «شفق» على مسامعها خلال الطريق. أدركتها رحمة الله عندما تمكّنتْ «نرجس» من تحديد مكان صديقتها من خلال أحد التطبيقات على هاتفها، إذ إن الفتاتيْن معتادتان على ربط جهازيهما ببعض لتعرف إحداهما مكان الأخرى في حال الخطر.

بادرتها «نرجس» وهي تمسح فوق كفها:

- الحمد لله على سلامتكما.

ثم أفصحتْ عن دهشتها:

- تصرف غريب حقًّا.. وكأن هذين المجرمين كان يتعمّدان سرقة الريس «غراب» تحديدًا.. وإلا ما الذي يدفعهما للعودة إليه مرة أخرى مخاطريْن بنفسيهما؟

هزَّتْ «شفق» رأسها قائلة بنبرة مُتعبة:

- أنا أيضًا ظننتُ ذلك.

ثم ذكرتْ لها ما سمعته سابقًا من «مستور»، فارتفع حاجبا «نرجس» مندهشة وهي تقول:

- أتعنين أن للحادث علاقة بما يُسميه «مستور» «جريمة شرف»؟

هزَّتْ «شفق» كتفيها قائلة بحيرة:

- وربما له علاقة بأمر آخر.

وعندئذ أخرجت رسالة التهديد وحجر الفيروز، وأفصحت لصديقتها عما وصلتها ذاك الصباح. تنامى القلق في نفس «نرجس» وهي تسألها:

- أتظنين أن لحادثة السرقة علاقة برسالة التهديد هذه؟ ثم ما الذي يعنيه حجر الفيروز؟

بإرهاق هزَّتْ «شفق» كتفيها بحيرة، لم يعد بوسعها فهم ما يحدث من حولها، وهذا بالنسبة إلى شخص يكره التغيير هو عين الخطر!

بعد فحص «غراب» في المستشفى توجه والد «نرجس» إلى قسم الشرطة، لإثبات الحالة والتبليغ عن السرقة. وعندما ترجَّل الجميع من السيارة استعدادًا لدخول القسم، أجلَى «غراب» صوته بعدما شرب في المستشفى ثلاثة أكواب من الأعشاب الساخنة، والتي هدَّأت قليلًا من ألم حنجرته. قال وهو يُوجه إليها حديثه دون أن يرمقها بنظره:

- لا داعي لوجودكِ.

رمقته وهي تقول بحيرة:

- أنا شاهدة على ما حدث.

أجابها بغلظة:

- لا أحتاج شهادتكِ.

آزعجتها غلظته، فقالت بحدة:

- لم أسألكَ إن كنتَ تحتاجها أم لا تحتاجها.

شعر والد «نرجس» بالتوتر بينهما، فتدخل قائلًا لـ «غراب»:

- أظن أن الشرطة ستطلب أقوالها عندما تخبرهم بوقوفها على الطريق وانتظارك في سيارتها.

التفت إليه «غراب» مُتجاهلًا وجودها بالكامل وقال له:

- سأخبرهم أنني تعرضت للسرقة على الطريق ثم أتيتَ أنتَ بسيارتكَ.. لن أخبرهم بالتفاصيل التي لا أريد ذِكرها.

لا تعرف لماذا شعرت بالإهانة، وكأنه ينبذها، يُقصيها، يتجاهل وجودها، أم يُهينها هذا فحسب، بل آلمها كذلك. اندفعت تقول بعناد:

- سأشهد سواء أخبرتهم أم لم تخبرهم.

استكمل حديثه بحزم مع والد «نرجس» وكأنه لم يسمعها:

- لا يصح وقوف الفتاتين أمام القسم أو دخولهما إليه.. خذهما إلى البيت وأنا سأتولى الأمر هنا.

هذه المرة لم تنزعج من إهانته، بل من اهتمامه! وكأن التاريخ يُعيد نفسه لكن بشكل مختلف، في الليلة التي أتت فيها إلى «العريش» طالبها «أكمل» أن تشهد بأنها هاجمتْ «غراب» وحدها كيلا يتورَّط في الأمر.

والآن يطالبها «غراب» أن تسكت كيلا تتورط هي!

يستطيع الرجل أن يُهادي الأزهار الرقراقة، والجواهر البراقة، والكلمات الفاخرة حول طاولة ساحرة تحت ضوء القمر، لكن لا شيء يُعادل موقفًا رجوليًّا يتكشّف فيه معدنه الحقيقي. يتأثر الفؤاد بفِعل المروءة ومواقف الشهامة أكثر من تأثره بهدية ثمينة أو كلمة حب برَّاقة.

الإحساس الذي شعرت به لذيذ جدًّا، والقلب طمّاع يشتهي المزيد، وكأنها على وشك إدمان نوع جديد من المخدرات، مخدرات الإحساس.

أزعجها ذلك، وأقلق راحتها؛ شيّد في نفسها خطوط دفاع عاجلة، تُقاوم بها مشاعر زاحفة نحوها بقوة وإصرار.

عليها أن توقفها، عليها أن تُعلن على قلبها حربًا شرسة.

أصرَّ والد «نرجس» على أن يُرافق «غراب» إلى القسم، رَكنَ سيارته على مَبعَدة منه، وفيها جلس الفتاتان تنتظران. في الداخل، تشارك الرجلان أريكة خشبية ريثما يُسمَح لـ «غراب» بدخول مكتب الضابط؛ وجدها والد «نرجس» لفرصة مواتية كي يُربِّتْ فوق ساقه ويقول ببشاشة:

- أحسنتَ يا بُني.. أنتَ رجل معدنكَ أصيل.. تغار على خطيبتكَ وتحافظ عليها.

تجمد «غراب» في جلسته، وتشنَّجتْ عضلات رقبته، وعندما همَّ بتوضيح

الأمر كان الرجل قد استطرد:

- بصراحة لا أخفي عليكَ كنتُ قلقًا جدًّا على هذه الفتاة.. إنها صديقة لابنتي منذ سنوات.. وأحبها حُبِّي لابنتي.. هذه الفتاة تعيش في دنيا لا تعبد سوى المال والجاه.. حولها قلوب من حجارة وعقول استعبدتها شهوات الدنيا.. لو رأيتَ أفعال أمها وأبيها وشقيقتها لتعجبتَ وضربتَ كفًّا على كف.. كيف تخرج زهرة جميلة فوَّاحة الرائحة من تربة لا ينبت فيها إلا الصبار؟ لكنها حكمة الله الذي يُصلِح من يشاء حتى وإن كانت التربة فاسدة.. يُسبب الأسباب فلا يكون على الناس حجّة ويقولون كان آباؤنا كذا وكذا.

ثم اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- الآن اطمأن قلبي.. صارت «شفق» تحت جناحي رجل يعرف كيف يُعامل امرأته ويصونها كجوهرة غالية في القلب والعين.

تسوَّر الغم قلبه، وكتم الحقيقة في نفسه. بادره «غراب» بسؤال لم يستطع كبحه:

- أي نوع من الأشخاص هي؟

تعجَّب الرجل من السؤال، وعجز عن الإجابة للحظات، ثم خمّن أن «غراب» لربما يُريد التيقُّن من صلاح اختياره، فأجابه مُبتسمًا:

- من النوع الذي تأتمنه على اسمكَ ومالكَ وعرضكَ.

جملة واحدة، بكلمات معدودات لكنها كفّتْ ووفّتْ. نفّض «غراب» غبار التشويش عن عقله وطفق يُحاول ترتيب أفكاره؛ عاد بذاكرته ساعات إلى الوراء، حينما كانا في موقع العمل.

اهتمامها بقائمة المصابين، نظراتها إلى العمال، اقترابها منهم كلما شرع أحدهم في الحديث. كانت بالفعل تبحث عنه في قائمة المصابين، تبحث عن الصوت الذي سمعته تلك الليلة تحت الأنقاض، يستحيل أن تكون على علم بخدعة أختها!

سأله «غراب» بفضول وريبة:

- و«دهب»؟

أطرَق الرجل للحظات حائرًا، فالمُستشار مؤتمَن، ولكل كلمة ثِقل ومعنى. اجتهد في أن يتخيّر أدقّها قدر استطاعته ثم قال مُتنهدًا:

- هذه الفتاة لا أفهمها.. أشعر دومًا أنها تُمثل خطرًا على من حولها.

ثم ضمّ شفتيه يمنعهما عن الاسترسال أكثر. القهر الذي تأجج في صدر «غراب» دفعه لأن يتمنى أن تكون أمامه الآن، فيُوقِع عليها بنفسه العقاب الذي تستحِق.

عندما عادا إلى السيارة كانت «شفق» تتلحّف ببطانية فوق كتفيها،

آحضرتها معها ضمن الأغراض التي آخرجتها من سيارتها قبل تركها على الطريق. قال لها والد «نرجس» ممازحًا:

- هل تحملين بطانية في سيارتكِ؟ يا لكِ من فتاة!

فقالت له باسمة:

- أتتني بها «دهب» يوم أن كنتُ محتجزة في القسم، ليلتها كان الحجز شديد البرودة وكدتُ أتجمد بردًا.. وها هي تحميني من البرد للمرة الثانية.

وقعتْ أنظار «غراب» على البطانية من خلال المرآة الجانبية، وتعرف عليها على الفور. لم تكن «دهب» من أحضرتها، هل ادَّعتْ تلك الكاذبة أنها من اهتمّتْ بأختها تلك الليلة؟

لم يهتم بها سواه، لا أختها فاقدة الإحساس ولا خطيبها فاقد النخوة. اهتمّ بها من خلف باب مغلق، للمرة الثانية.

ورغم الغضب الذي لا يزال يستعر بداخله؛ لم ينطق بحرف واحد.

---

(٢)

«عين» التي لم تغمض لها عين الليالي الفائتة انتشر في وجهها علامات القلق، هالات سوداء تحت عينيها، وشفاه باهتة، وبشرة شاحبة شحوب الموتى.

الجميع من حولها يستعدون للعُرس القريب في ابتهاج حسدتهم عليه، كانت وحدها تذبل مثل نبتة نسيها أحدهم في أحد الأركان. القلق المعتاد الذي يصيب كل فتاة قبل زفافها تضاعف قدره في صدرها حتى زهدَتْ الطعام والشراب، وهزل جسدها وفقد وزنه.

القلق الذي يستعر بقلب العروس قبل زفافها من حياة جديدة لم تعتدها، ومُفارقة الأجواء التي تربّتْ فيها طيلة حياتها، كان هينًا مُقارنة بالمخاوف التي أخذت تحتشد أمام وجهها وتُريق ماء عينيها في غرفتها سِرًا.

لا تخشى الزواج فحسب، بل تخشى عريسها كذلك! لا تجد في نفسها ما يأمن جانبه، وما يدفعها لأن تتكئ على قلبه. ما يملكه داخل صدره ليس قلبًا، بل حجرًا؛ كيف ستستظل معه بسقف بيت واحد؟

في المساء عندما ينفض الجمع وتعود إلى غرفتها الساكنة وحيدة، تصطف الذكريات أمام عينيها، ومن بين عشرات الذكرى لم تعثر على واحدة تعاملت فيها مع «بحر» عن قُرب.

اقشعر بدنها وهي تقف مرة على حقيقة زارتها بعد غيبة، إنها لا تعرف «بحر» حقًّا! لا تذكر منه سوى الطفل الذي قال لها ذات مرة وهو يهديها حلوى العيد: «بحر» لـ «عين» و«عين» لـ «بحر».

وعندما نظرت إليه بدهشة هزّ كتفيه قائلًا:

- سمعتْ أمي تقول هذا لأمك.

ثم تركها وأخذ يلعب بالكرة مع أقرانه. لكن كلماته نُقِشَتْ ذلك اليوم في عقلها، وكلما حاول الزمن أن يزيل آثار تلك الكلمات كان يحفرها أحدهم في رأسها أكثر؛ أمها.. أبوها.. الشيخ.. «أم ذيل».. إخوانها.. أقاربها.. صويحباتها.. كل من في القبيلة كان يدق الكلمات في رأسها حتى لم تعد لأيادي الزمن قُدرة على محوها.

ومهما جاهدت الآن كي تفعل؛ تفشل!

«بحر» الذي أهداها حلوى العيد في صغره صار «بحر» آخر لا تعرفه، بحر كبير أكثر منها علمًا وخبرة، استطاع محو قدرة هذه الكلمات على أن تُنقَش داخل عقله، فليخبرها إذن على الطريقة كي تتبعها.

سرق نومها من الليل بضع ساعات، وفي الصباح خرجت للبحث عن «بحر». لا تعرف ماذا ستخبره، ولا تعرف إن كان سيستمع لها، لكنها شعرت بحاجة شديدة للحديث معه، وعند اللقاء ستولد الكلمات في رأسها.

لم تعثر عليه، لكن آثاره كانت بادية بوضوح حين عادت إلى بيتها؛ هدايا باهظة الأثمان من الأفضل والأجود والأروع، تليق بمُهديها، «بحر» ابن

«السوارفة». كل قطعة تزهو باسمه ونسبه، وعندما فتحت علبة قطيفة زرقاء ورأت قلادة ذهبية ثقيلة الوزن ومُبهرجة الشكل؛ علمتْ أنها هدية اختيرَتْ للزهو والتباهي، هدية تجهل ذوق صاحبتها!

ولم تعرف «عين» أنه حين زار متجر المجوهرات لشراء الهدية وقعت عيناه على خلخال رنان تتدلَّى منه نجمات صغيرة، ولم تعلم أنه طالما كان يُفتنه صوت الخلخال في قدم امرأة تمر أمامه حتى وإن لم يتبدَّ له طرفها، وفِتنته بصوت الخلخال جعلته يتحسس النجوم المتدلية منه مشدوهًا، يُحركه كي يرن ويتسرَّب صوته إلى أذنيه كمقطوعة مُشتهاه.

ولم تعرف أنه اشترى هذا الخلخال بشغف غاب عن باقي الهدايا، وأنه أخفاه في جيبه مثل السِر.

ولم تعرف أنه لم يرسله مع ما أرسله لها من هدايا أشكال وألوان، ولم تعرف أنه أخفَى نجمات الخلخال سِرًا كي يهديها ذات يوم للفتاة التي يختارها قلبه لتُضيء عتمته، كما تُضيء النجوم سجادة السماء السوداء.

---

(٣)

مرَّتْ «شفق» بكابوس أطبق على صدرها وكتم أنفاسها.

أيقظتها «نرجس» تهتف بها في جزع، وعندما تحررتْ «شفق» من قبضة الكابوس بكت. عانقتها «نرجس»، لم تتحدث معها حتى هدأت وقالت:

- آسفة يا «نرجس» أيقظتكِ.. لا أعرف ما يحدث لي.. أبكي فجأة بلا سبب.

- ليس بلا سبب يا «شفق»، أنتِ تتعاملين مع عقلكِ كأنه قطعة خُردة! عقولنا غير الواعية ذكية جدًّا، إنها تعرف كيف تُعاقبنا مع ما نُجرم به في حق أنفسنا.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنكِ تفتقدين للتوازن في حياتكِ.. لكل منا نقطة ارتكاز يتكئ عليها.. أنتِ كأنكِ فقدتِ بُوصلتكِ يا «شفق»، ولكي تستعيديها عليكِ أولًا أن تكوني صادقة مع نفسكِ.

- وهل تظنين أن كل من صدَقَ نفسه عاش سعيدًا؟

- هناك فارق بين من يعيش سعيدًا ومن يعيش راضيًا مرتاح البال.. لا أقول لكِ كوني سعيدة دائمًا.. لكن عليكِ أن تكوني راضية كي تستعيدي التوازن المفقود.

- أنا راضية بواقعي يا «نرجس».

- كيف تكونين راضية بواقع تخفينه ولا تواجهينه من الأساس؟ لكي تكوني راضية عن حياتكِ يجب أن تفهميها أولًا.. يجب أن تحاولي تغييرها.. ومن ثم تحاولين التعايش مع لا تستطيعين تغييره والرضا به.. أنتِ لا تفعلين ذلك.. أنتِ تخافين من الألم.. ولذلك تفرين من المواجهة.. ورغم ذلك تتألمين أكثر.. لن أقول لكِ افعلي ولا تفعلي.. أنتِ ناضجة وعاقلة بما يكفي.. أقول لكِ فحسب كوني صادقة مع نفسكِ.. وإلا لن يتوقف عقلكِ الباطن عن إيذائكِ.. ولن تكون آلامًا نفسية فحسب.. بل قد تتطور أسلحته ويُحاول إيذاءكِ جسديًّا بأمراض عديدة.. السكر.. الضغط.. الجلطات.. أمراض القلب.. القولون العصبي.. اضطرابات الجهاز الهضمي.. الالتهابات الجلدية العصبية.. نوبات الذعر.. كلها أمراض قد تُسببها الحالة النفسية.. أرجوكِ يا «شفق» أريحي عقلكِ قبل أن يُدمركِ.

أعادت الغطاء فوق جسدها وهي تقول بحنان:

- والآن عودي للنوم.. تبدين مُتعبة.

كلمات «نرجس» كانت ترياق انساب إلى عقلها فتوقفتْ الكوابيس، لتلك الليلة على الأقل.

في الصباح كانت أكثر نشاطًا، التفَّتْ حول طاولة الطعام مع «نرجس» وأبويها، تشحن طاقتها بالأحاديث الحانية والضحكات الودود.

لم تنسَ آن تترك رسالة لـ «دهب» تُخبرها بآنه ستقضي الليلة عند «نرجس»، ولم تخبرها بالسبب؛ فضَّلتْ أن تقص عليها ما حدث وجهًا لوجه كيلا يستبد بها القلق.

وعندما كانت في غرفة «نرجس» في انتظار شاي الصباح وقعت أنظارها على كتاب مفتوح، قرأت بضع صفحات، ثم أطلقت ضحكة صغيرة عندما دخلت «نرجس» الغرفة وقالت تمازحها:

- ما هذا الذي تقرئينه؟ مثلث الحب! هل أنتِ واقعة في حب رجلين أم أن رجلين واقعان في حُبّكِ؟

شاركتها «نرجس» الضحكات ثم قالت وهي تضع الشاي فوق طاولة صغيرة بجوار الفراش:

- ظلمتِني كعادتكِ.. مثلث الحب هي نظرية ابتكرها عالم النفس الأمريكي «روبرت سترنبرج».. ولا تعني ما فهمتِه من مشاركة علاقة حب بين ثلاثة أضلاع.. بل تتحدث عن مكونات الحب الثلاث.. تعلمين أنني ما زلتُ أحب علم النفس حتى وإن لم يكن مجال عملي.

لم تكن تلك الأحاديث عن الحب مما تثير شغفها قبلًا، لكنها وجدت في نفسها اللهفة الكافية لتسألها عن النظرية، فقالت «نرجس»:

- الألفة.. الشغف.. الالتزام.. هي قمم مثلث الحب متساوي الأضلاع.

- وضَّحي.

- الألفة شعور هادئ.. دافئ.. شعوركِ بالتقارب مع شخص ما أمامكِ.. وهو الأساس في أي تقارب إنساني.. لا يمكنكِ أن تقتربي من أحد وتكشفي نفسكِ أمامه إن لم تشعري نحوه بالألفة.. وكلما شعرتِ بالدفء والثقة.. أفصحتِ عن نفسكِ أكثر.. وكشفتِ جزءًا أكبر من نفسكِ.. وتكونين أكثر استعدادًا لتبادل الأفكار والمشاعر.. تشعرين بالاهتمام به.. والثقة به.. الصراحة.. والتعاطف.. الدفء.

أخذت نفسًا ثم قالت:

- والقمة الثانية هي الشغف.. العشق.. مشاعر الافتتان.. الحماس.. الانجذاب للجنس الآخر.. الرغبة الشديدة في القُرب.. والألم عند الفراق.

ثم استطردت بعدما رشفت من كوبها:

- أما القمة الثالثة هي الالتزام.. قرار الطرفين بالاستمرارية.. شعور كل منهما بالمسؤولية تجاه الآخر.. والرغبة في حمايته.. والدفاع عنه ورعايته.. وهي أهم قمة في الهرم وتُمثّل قاعدته.. لذلك تنجح الكثير من الزيجات دون عشق.. فقط بتوافر قاعدتي الألفة والالتزام.

تساءلت «شفق» شاردة:

- تقصدين أن الحب ليس شرطًا لنجاح العلاقة؟

- أقصد أن العشق والشغف والنشوة وكل هذه المشاعر الفوَّارة المتأججة التي تشاهدينها في الأفلام لا تكفي وحدها لتكوين قاعدة قوية تقوم

عليها علاقة طويلة الأمد.. دون قمة الالتزام لن تتحول هذه العلاقة إلى رباط أبدي.. لذلك أتعجب ممن يجرؤ على تسمية علاقة الساعات والأيام بالحب!

إن في ذلك ظلمًا عظيمًا لكلمة مقدسة مثل الحب.. لا يقوم مثلث الحب الحقيقي في غياب أهم قممه.. التزام الطرفين برباط طويل الأمد يؤدي فيه كل ذي حق حقه.. لذلك من السفَه أن نُسمي العلاقات العابرة بالحب.

ساد صمت طويل يرتشف عقلها من كؤوس المعاني، حتى قطعته «نرجس» بقولها:

- والآن فلنتحدث عن رسائل التهديد.. من الذي يُهددكِ؟ وبماذا؟

رشفتْ «شفق» الشاي ثم قالت:

- ظننتُ بالأمس أن لرسائل التهديد علاقة بحادثة السرقة.. لكن بعد تفكير أظن أنه علاقة بأمر آخر.

- وما هو؟

- «سهيل السخاوي».

حاولت «نرجس» التذكر، ثم هتفت أخيرًا:

- أتقصدين الرجل الذي هاتفكِ وطلب لقاءكِ في «العريش»؟

- هذا الرجل مات يا «نرجس».. إنه أحد ضحايا حادثة العمال.

اتسعت عينا «نرجس» دهشة، تركت كوبها فوق الصينية ثم قالت بجزع:

- ألم تكتشفي ذلك إلا الآن؟

- اسمه لم يكن في القائمة التي وصلتني عن أسماء العمال المتوفِين.

- لماذا؟

- هذا ما أحاول معرفته.. اتصلتُ منذ قليل بضابط قريب لصديقة لي من الجامعة.. طلبت منه أن يأتيني بكل ما يمكن التوصل إليه عن «سهيل السخاوي».

- ألم تعرفي بعدُ لماذا أراد هذا الرجل لقاءكِ؟

تذكرتْ أن «غراب» أيضًا يعرفه، هذا ما أشعل فتيل فضولها ودفعها لأن تقول بتصميم كبير:

- هذا الرجل أراد لقائي كي يخبرني بأمر مُهم لا يقبل التأجيل.. مسألة حياة أو موت كما قال لي على الهاتف.. ومات قبل أن أعرف بماذا أراد أن يخبرني.. لكنني سأعرف!

أمسكَ «غراب» برأسه الذي كاد ينفلق نصفين، يُمرر عينيه التي لم تذق غمضًا على أمواج البحر الثائرة كثورة نفسه.

انتظر الصباح الزاحف ببطء صوب السماء، فمعه سيحل آول فصول المواجهة.

قبض على حفنة من الرمال الندية، سحقها في قبضته كما ودّ أن يسحق الفتاة المخادعة. ما إن استيقظت الشمس واتخذت مقعدها السماوي حتى انطلق صوب الفندق، طلب من مكتب الاستقبال إخبار «دهب» أن زائرًا ينتظرها أمام بوابته. طفق يذرع الشارع مجيئًا وذهابًا، حتى خرجت من البوابة وأقبلتْ عليه تتشح بلهفة كاذبة وهي ترمق ملابسه الملطخة بالدماء، وكدمة تتوسط جبينه وتقول:

- «غراب».. ماذا حدث لكَ؟

أقبل صوبها ووقف تمامًا في مواجهتها، يقطع طريق الهرب على عينيها، ويتمسّك بجُل قسماتها، يضم أصابعه في قبضتين مرتعشتين غضبًا، يستجمع شتات نفسه ليسألها بصوت صارم:

- في ليلة الحادثة أخبرتكِ بحكاية عن نجمتين.. أعيديها على أسماعي الآن.

تقهقرتْ «دهب» خطوة إلى الخلف، ازدردتْ لعابها، ثم سألته باضطراب:

- هل جئتَ إلى هنا في هذا الوقت كي أحكي لكَ حكاية؟

عضلات عُنقه تتشنج ويتبدى منها عرق نابض بالثورة. هتف بها:

- أخبريني الآن.. ماذا كانت الحكاية؟

تقهقرتْ خطوة أخرى، ارتعد قلبها فزعًا، ماذا فعلا هذان الغبيان بالأمس؟ أخبراها أنهما سرقا السيارة وأحرقاها بكل محتوياتها، حتى أغراضه التي في جيبه أحرقاها جميعها.

أتُراه لم يطق صبرًا واندفع يسأل أختها السؤال الممنوع؟ هل اكتشفت «شفق» الحقيقة؟ ذبل وجهها بغتة كأنها على وشك فقد وعيها، نظرت إليه فإذ بعينيه جمرتين مشتعلتين تقذفانها بالحمم، بينما يقول بقسوة:

- لم تكوني خلف الباب المغلق تلك الليلة.. بل كانت «شفق».

اجتاحتها نوبة ذعر حقيقية، ارتعش جسدها فزعًا، وخرج من بين شفتيها صوتًا يُشبه مواء قطعة جائعة صدمتها سيارة في ليلة مُمطرة. لم يصدق ما رأته عيناه، لم تأخذه بها شفقة أو رحمة، استطرد بالقسوة ذاتها:

- لا أعرف كيف جرؤتِ على خداعي بهذا الشكل.. ولا ما مصلحتكِ في ذلك كله.. لكن كل ما أعرفه أنكِ شيطانة خبيثة.. على الناس أن تستعيذ منكِ كلما صادفوكِ في الطرقات.

تقهقرت خطوتين، اتسعت عيناها خوفًا، عرف الحقيقة، عرف كل شيء. هل سيتهجّم عليها؟ سيضربها؟ يخنقها؟ يشج رأسها؟

رأته ينحني ليُمسك حجرًا ويقبض عليه بكل قوته، أطلقت صيحة ذعر عالية أيقظت روَّاد الفندق من نومتهم الهانئة.

ثم وبكل ما احتشد بداخله من غضب قذف بالحجر!

أغمضت عينيها بشدة تُخفي وجهها بكفيها وصوت صراخها لا ينقطع، سمعت أصوات زجاج يتهشَّم، فتوقفت عن الصراخ وفتحت عينيها على اتساعهما تتطلع للجدار الزجاجي لمدخل الفندق، والذي أضحى مهشمًا تمامًا.

وقف أمامها يلهث، ولا تزال قبضتيه مضمومتين وكأنه يخشى إن فتحهما أن يطبق بهما حول رقبتها.

لم تواتِه من قبل رغبة في ضرب امرأة قط، بل اعتبر مجرد التفكير ذلك من خوارم المروءة، لكنه الآن يشعر برغبة ساحقة في أن يجذب شعرها المُخبَّأ خلف غطاء الرأس ويضرب رأسها في الجدار ثلاثًا؛ كفَّارة خدعتها الخبيثة.

ولأن رغبته تلك أفزعته وأخافته من نفسه الأمارة بالسوء، ترك الأمن يُقيدونه دون مقاومة، وسمح لهما باقتياده إلى داخل الفندق لحين حضور الشرطة.

لم ينبس ببنت شفة، ولم يقاوم بمثال ذرة من قوة؛ كان بحاجة إلى التقييد، كي يلجم حصان غضبه الجامح بلجام من حديد.

---

(٤)

انتظر «بحر» حتى انتهى الإمام من الصلاة ثم انتحى به جانبًا، أهداه جلبابًا عباءة من الكشمير وعطره المفضل، ثم سأله:

- افتني يا إمام.

ابتسم الإمام قائلًا وهو يُريح ظهره لجدار المسجد:

- قل يا «بحر».

أطرق قليلًا ثم قال:

- أريد أن أعرف ما برقبتي لابنة عمي من حقوق؟

- تقصد حقوق الزوجة على زوجها؟

نزلت الكلمة على صدره ثقيلة، أومأ برأسه قائلًا:

- نعم يا إمام.

تعجَّب الإمام من السؤال، إذ إن «بحر» أعلَم من أن يسأل سؤالًا كهذا، لكنه جاراه وأجابه:

- المهر والنفقة والسكن.. الإطعام والكسوة.. حُسن المعاملة.. عدم الإضرار بها.. المعاشرة بمعروف أو التسريح بإحسان.

بتحرج كبير، وضع يده على صدره وقال:

- وهذا يا إمام.

فطن الإمام إلى أصل المسألة فأطرق قليلًا ثم قال:

- هذا بين أصابع الرحمن يُقلِّبه كيف يشاء.

- لستُ مُلزمًا بحبها إذن.

- متى صار الحب إلزامًا خرج من كونه حبًّا يا «بحر».

هبَّتْ كلمات الإمام كنسمة على قلب «بحر»، أنعشته، فسأله:

- وما حقوقها إن جمعتُ معها غيرها؟

زَمَّ الإمام شفتيه، وقال مُتحسسًا معاني كلماته:

- العدل بينهما.. تمنح كلتاهما الحقوق ذاتها.

رفع «بحر» يده وأراحها صوب صدره ثانية وسأل بضيق:

- وهذا.. كيف له أن يعدل يا إمام؟

- لن تعدل وإن حرصتَ!

رمقه «بحر» مُستزيدًا من الفهم، فاستطرد الإمام:

- كان نبينا الكريم يعدل بين زوجاته ثم يقول «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلُمني فيما تملك ولا أملك» ويقصد أحكام القلب.. والرغبة في الأنس بواحدة وملاطفتها أكثر من الأخرى.

انتعشت نفسه، علا البِشر مُحيَّاه، حتى إن تنهيدة ارتياح انفلتت من

صدره عن غير قصد. فطن الإمام إلى ذلك، فقال ناصحًا بحكمة خبير:

- تزوَّج ممن مال لها قلبكَ يا «بحر»، واترك الأخرى لمن يُقدِّر قلبها.

عاد الغم يطفو فوق وجه «بحر» وقال في نفسه «هي لا تفهم في لغة القلوب يا إمام، تريد الاسم والستر والحقوق فحسب، وهذا ما سأمنحها إياه».

نهض «بحر» مغادرًا بعدما شكر الإمام وانحنى على رأسه مُقبّلًا، وحين اختلى بجمله الذهبي همس له مُستبشرًا:

- أخطأتْ «مدينة» في حساباتها.. بإمكاني أن أفوز بكل شيء.

أصدر جمله صوتًا فضحك قائلًا:

- هل تقول لي «هششش» أنت الآخر؟

قبض على عنق جمله وجذبه بشدة، رفع حاجبًا، وقال شاعرًا بدفقة من الإثارة تجتاح دماءه:

- «بحر» لا يُقال له ذلك.. سأؤدبكَ.. وأروِّض لسانها.

---

(٥)

حلّت الكارثة على رأسها، لا بد أنه أخبر «شفق» بكل شيء، أفسد ما بين الأختين مثل شيطان رجيم، يدعوها بالشيطان بينما هو من يبوء بالكلمة وأوزارها.

يا له من رجل لعين! كانت مُحقة من البداية حين حاولت إنقاذ «شفق» من بين يديه، كانت محقة في كل مخاوفها وظنونها، لكن قوتها لم تكفِ لحماية أختها.

والآن، أفسد بحقده كل شيء، ستكرهها «شفق»، لن تنظر مرة أخرى في وجهها، ستنبذها وحيدة، بلا أحد. أرعبتها الفكرة وشلّتْ عقلها. وعندما سمعت طرقات على باب الغرفة وصوت «شفق» يُناديها من خلفه هبط قلبها في قدميها.

جلست في أحد أركان الغرفة تضم رأسها إلى قدميها، جسدها ينتفض، تصم آذانها عن نداءات أختها. هل جاءت لتُعاقبها، لتُخانقها، لتقطع أوصال الرحم الذي جمعهما؟

سمعت من خلف الباب صوت مدير الفندق، وصوت مفاتيح تصطدم ببعضها، نجح أحدهم في الولوج في قفل الباب وفتحه. أطلّتْ «شفق» برأسها فهالها ما أصاب أختها. شكرت مدير الفندق على عُجالة وأغلقت الباب، ثم دَنَتْ من «دهب»، تجثو على الأرض بجوارها تسألها عمَّا أصابها.

تحتويها بين ذراعيها، تُمسّد وجنتيها الشاحبتين، تمسح عبراتها، ترجوها أن تجيبها بكلمة. تنتبه «دهب» أن «شفق» ليست غاضبة منها، بل قلقة عليها، أيُعقل أنها لم تعرف الحقيقة بعد؟

- «دهب» لا تفزعيني أرجوكِ تحدثي.. ماذا حدث لكِ؟

استجمعت «دهب» شتاتها سريعًا، وقالت لائمة:

- أنا لست بخير أبدًا.. لماذا تركتِني بمفردي.. لماذا بقيتِ عند «نرجس».. لما هي أقرب لكِ مني؟

عانقتها «شفق» تقول بلوعة:

- لا تقولي ذلك.. لا أحد أقرب لي منكِ.

فوجئتْ بـ «دهب» تدفعها عنها بقوة وتصيح بهستيرية:

- كاذبة! الجميع أقرب لكِ مني.. الجميع يحبكِ أكثر مني.. أنتِ كان لكِ دائمًا زميلات من حولكِ.. ومعلمات يهتممن لأمركِ.. وصديقة مثل «نرجس» لم أحظَ يومًا بمثلها.

انتفض جسدها بالبكاء وهي تقول بألم شقَّ قسمات وجهها وأحدث فيه ندوبًا لا تبرأ:

- غيابي لا يُشكِّل معكِ أي فارق لأن عندكِ من يحبك غيري.. أما أنا في غيابكِ لا يكون لي أحد.

لو دار هذا الحديث بينهما منذ أسابيع، لأصرّتْ «شفق» أنها مرغوب فيها

وليست وحيدة على الإطلاق، لكن شيئًا ما قد تغيّر فيها، وهذا الشيء دفعها لتمسك بوجه أختها بين كفّيها وتقول لها:

- هذا لأنكِ كنتِ تفعلين كل ما بوسعكِ كي تبعدي الجميع عنكِ.. الناس لا تحب من يؤذونهم.. وأنتِ تؤذين الناس يا «دهب».

ارتعدت شفتا «دهب» وانسلت من عينها دمعة ذاقت ملوحتها، فيما «شفق» تستطرد هامسة وكأنها تستحي من الكلمات التي تنطق بها:

- زميلتي في الصف التي انزلقت فوق الأرض وكُسرَت ساقها ولزمتْ البيت لخمسة أسابيع.. لم يعرف أحد من سكبَ الزيت في طريقها.. لكنني أعرف.. المُعلمة «آمال» التي كانت تتحسّس من الفراولة.. يوم أن زارتني في البيت أصابتها حكّة وانتفخ وجهها بعد عصير الكوكتيل الذي قدّمته لها.. لا أحد يعرف من أضاف له الفراولة.. لكنني أعرف.

اضطربتْ «دهب» وتبدّلتْ قسماتها من الألم إلى الخوف، فيما «شفق» تستطرد بحزن:

- و«نرجس».. ما حدث لها في الشركة...

قبل أن تستكمل حديثها اندفعتْ «دهب» تقول بلوعة:

- لم أقصد أن أؤذيها.. أقسم لكِ.. كنتُ أشعر بالغضب فحسب.. لم أفهم كيف حدث ذلك.. وأنتِ رأيتِ بنفسكِ.. لم يكن جرحًا بالغًا.. كانت ضربة خفيفة.. لم أنْوِ قتلها.. أنا.. أردتُ فقط أن أحميكِ.. كانت تؤذيكِ.. تؤذينا.. كانت تفرق بيننا.

عاجلتها «شفق» بحزم:

- لا أحد يُفرق بيننا.. لا أحد في هذه الدنيا يملك القوة لأن يفعل ذلك أبدًا.

رمقتها «دهب» بإمعان، تُفتّش عن صدق حديثها، تستمد من كلماتها القوة لتتحلى بالإيمان الذي يسكن قلب «شفق». وقبل أن ينبض قلب «دهب» بنبضة راحة بعد قلق، بادرتها «شفق» وعلى وجهها يرقد الألم:

- كيف تؤذي «نرجس».. ألا تعرفين كم أحبها؟ أنتِ لم تؤذِها وحدها.. آذيتِني أنا أيضًا.. كيف طاوعكِ قلبكِ على التسبب في ألم إنسان لا يكِنّ لي ولكِ إلا الخير؟

لم يعض الندم أناملها، لكنها تظاهرت بذلك. ألقت «شفق» على أختها سؤالًا مميتًا:

- لم تؤذي أحدًا آخر، أليس كذلك؟

هزّتْ «دهب» رأسها نفيًا بقوة وسارعتْ بقول:

- لم أفعل.. صدقيني لم أفعل.

تساءلت «شفق» بشك يساورها، تخشى الجواب مثلما تخشى السؤال ذاته:

- خطبتي الأولى.. لم يكُن لكِ دخل في إنهائها، أليس كذلك؟

هزّتْ «دهب» رأسها بقوة شديدة وهي تهتف:

- لا أقسم لكِ لم أفعل.. ترككِ قبل الزفاف بأيام لأنه كان رجلًا نذلًا لا يستحقك.. أنا لم أفعل شيئًا يجرحكِ.

دققتْ «شفق» النظر في وجهها، وفي عمق عينيها، لم ترَ فيهما لمحة اضطراب واحدة. ارتاح قلب «شفق» لجوابها، ليتها سألتها منذ زمن بعيد، ولما سمحت للشك أن يرتع في قلبها ويتخذ منه مستقرًا ومقامًا.
الصندوق الخشبي وما أخفته بداخله من شعرة ذهبية، كانت كلها مخاوف لا أساس لها. الشعرة الذهبية التي تخص الشخص الذي فرّق بينها وبين خاطبها الأول، والتي احتفظت بها لشهور طويلة، لم تكن لـ «دهب»! صندوق «باندورا» اتضح أنه خالٍ من الشرور.

هل حقًا صدّقتْ ذلك، أم أرادتْ تصديقه؟

مسحت فوق رأس أختها وكأنها ابنتها الصغيرة وقالت بحنان:

- الحب أخذ وعطاء.. لا يمكنكِ أن تحصلي على الحب ما لم تمنحيه أولًا.

هذه المعاني ذاتها التي علّمها «الصوت» إياها، تذكّرته فابتسمتْ. عادت تتطلع إلى أختها، تعقد عزمها ثم تقول بجدية بالغة:

- إذا عرفتُ أنكِ آذيتِ شخصًا آخر أحبه.. لن أسامحكِ يا «دهب».. لم أعد أتحمل رؤية شخص أحبه يُعاني.. هذه المرة لن أسامحكِ أبدًا.. أنا جادة في ذلك.

ازدردتْ «دهب» ريقها بصعوبة وهي تومئ برأسها، مُستشعرة الحزم في عيني «شفق»، لن تعفو عنها هذه المرة، ستُعاقبها مرة واحدة وإلى الأبد. همست:

- لن يحدث ذلك.

طفق عقلها يتساءل، كيف عساها تمنع «غراب» من كشف الحقيقة لأختها؟ كيف عساها تتخلّص منه مرة واحدة وإلى الأبد؟

---

(٦)

فتحت عينيها وتقلّبتْ في فراشها دافعة عنها آثار الكسل، ينتظرها عمل كثير في البيت، ثم محاولة بيع الغنمات لتأتي لأهلها بالمال.

ما يتكسّبه أبوها من بعض الرجال الذين يعطفون عليه ويمنحونه عملًا يوميًّا بسيطًا، لا يكاد يكفي ليوم عليه البيت. عليها أن تساعده كيلا تكون حملًا ثقيلًا. لا تبحث المرأة عن الشقاء طواعية، بل تُجبَر عليه وتُدفَع إليه دفعًا. ليت أبوها يُرقق شيئًا من قلبه، وتجد فيه الدفء الذي فقدته طيلة حياتها.

طاف خيالها لوهلة بأرض «السوارفة»، وبابنتهم المدللة «عين»، إذ بلغها فيما بلغها بأمر زواجها القريب من الرجل الذي شهدتْ يوم البشعة لصالحه، والذي ما فتئ يحوم حولها كلما خرجتْ إلى المرعى المفتوح.

تجعّد جبينها ضيقًا، والتوتْ شفتاها غيظًا من الرجل الذي يستحِل الحديث معها متى اشتهى.

تعرف اسمه ونسبه وقدره بين الرجال، ولن تُخفي عن نفسها شعورها بشيء من الرهبة في حضرته، خاصة بعدما نما علمها أنه لم يعتَد إزعاج النساء كما يزعجها بروحته وغدوته.

سحبها التفكيرِ إلى العُرس المُنتظر، والذي بلغَت تفاصيله آذان أبناء قبيلتها، فانسكبَ بعضه في أذنيها في أثناء مرورها بمجالس الحديث. انطفأ نشاطها بغتة، فزجرتها قائلة: أفيقي يا «مدينة» أمامكِ يوم طويل.
فإذ بها تشهق ملتاعة؛ وقعت أنظارها على راحة يدها، والأثر الذي تركه خاتم الرجل الذي ألقت به في النار وسقطتْ فوقه.

اختفى الالتهاب، لكن النار الغادِرة تركتْ أثرًا داكن اللون، بارز المعالم في كفّها، وحروف اسمه واضحة وضوح الشمس في كبد السماء.

انتفضت من فراشها، ودهنتْ الأثر بكل ما وقع تحت يدها من مَراهم وأعشاب أملًا في أن يزول.

حلَّ المساء، واتضحتْ معه معالم الأثر أكثر، يُعاندها بإبراز لونه الداكن في راحتها البيضاء. لم تجد سوى حل واحد لطمسه تمامًا، دخلت المطبخ ثم أحضرت منه سكينًا، عادت إلى غرفتها وأمسكت بالمقبض بيد ثابتة، ووضعت النصل في راحتها كي تشوه الحروف الثلاث التي أفصحت عن نفسها في خيلاء! وفجأة، انفتح الباب، فزعت وأخفَت يديها خلف ظهرها. وقف «طحنون» ينظر إليها متسائلًا، يتأمل اضطرابها وما تُجاهد لإخفائه خلف ظهرها. دنا منها يقول بغلظة:

- ما الذي تخفينه خلف ظهركِ؟

لم تعتد الكذب، لذلك لم تعثر سريعًا على جواب يُشبع فضوله. انقض عليها «طحنون» يكشف عن يدٍ فيها سكين، والأخرى فيها آثار حرق.

قرّب كفّها من عينيه ونطق كأنه طفل يتعلم الهجاء:

- ما هذا الذي على كفّكِ؟ باء.. حاء.. راء!

ما إن نطق بالأحرف الثلاث حتى تشكّلتْ الكلمة في رأسه، وتشكّل معها أسوأ مخاوفه، وأحلكَ ظنونه، لم يشعر بنفسها إلا وهو ينهال فوقها ضربًا بكلتا يديه، ويصيح فيها بالسب والتحقير.

جاهدتْ «مدينة» كي توضح له سوء ظنه، وخطأ تفكيره، فما زاده ذلك إلا غضبًا. ضالًا مُضِلّا غابتْ عن قلبه صنوف الرحمة، تحجّر القلب وعاث فيه الخبث الوساوس والظنون، لم يُصدق ابنته ولم تأخذه بها شفقة.

لم يعرف أي ابنة ربّى، لأنه من الأساس لم يُربّ! ما نمَتْ إلا بحفظ الله وسقايته، ودعوات أمها في جوف الليل.

بلغتْ صرخاتها أسماع الجيران، فبلّغ الجيران الجيران، وهكذا حتى وصل الخبر إلى أسماع الشيخ، الذي التفتَ إلى «جبار» يقول بحنق شديد:

- قم واذهب لهذا المأفون وامنعه من ضرب الفتاة.. قل له الشيخ يأمركَ أن تتوقف عن ضربها وإلا أمر بإحضاركَ مُقيدًا وبضربك بالنعال في الطرقات.

«جبار» الذي ظلَّ يُجاهد منذ ليلة البشعة كي يعفو الشيخ عنه ويصفح ويدنيه من مجلسه ويعتمد عليه بإسناد أجل الأعمال وأهمها، لم يستسغ هذه المهمة الضئيلة، مَنْع «طحنون» من ضرب ابنته!

ما كان له أن يعصي للشيخ أمرًا؛ توجّه إلى بيت «طحنون» وشياطين الغضب تتقافز أمام وجهه. بلغته صرخات الفتاة وتوسلاتها كي يتوقف أبوها عن الضرب، سبّ الفتاة وأباها وهو يطرق باب البيت بقوة.

فتحت زوجة «طحنون» وهي غارقة في البكاء وتستنجد به:

- سيقتلها.. ابنتي.. أنقذها أرجوك.

توجّه «جبار» إلى الداخل، طرق الغرفة ثلاثًا وهو يصيح بـ «طحنون» كي يخرج له، ولما لم يبلغه رد على طلبه، أعلنَ أنه سيفتح الباب، ثم فتحه ودخل.

أمسكَ بكف «طحنون» الذي تهالك على الأرض من التعب، ولا يزال يضرب الفتاة. مالت «مدينة» وغطّتْ رأسها بملاءة قبل أن يفتح «جبار» الباب بثوانٍ. نهره «جبار» بحدة:

- لعنة الله عليكَ يا «طحنون»، ألن تنتهي مشكلاتكَ أنتَ وابنتكَ.. الشيخ يأمركَ بعدم ضربها.

ثم التفتَ صوبها يقول بحقدٍ لم يخبتْ منذ يوم البشعة:

- مع أنها تستحق الذبح.

وكأن كلمته كانت إشارة إلى عقل «طحنون» الذي قبض على السكين ثم هجم عليها ناويًا نحر عنقها، اندفع «جبار» يمسك بكفه ويضربه ضربة أسقطته أرضًا وقد تكوّر على نفسه مُتألمًا. صاح به «جبار»:

- ماذا تفعل يا مجنون؟

صاح «طحنون» وهو يسعل من الألم:

- سأقتلها.. سأنحر عنقها.

ثم انقضّ عليها يُمسك بكفها ويُخرجه أمام ناظري «جبار» ويصيح بجنون:

- انظر ماذا طبعَ ابن «السوارفة» على كفها.. كيف أعيش مع هذا العار؟

قالت من بين تأوهاتها:

- لم أفعل شيئًا يستجلب العار.

هجم عليها «طحنون» بقدميه وضربها؛ دفعه عنها «جبار» دفعة أسقطته أرضًا. اشتغل عقل «جبار» بالتفكير، والتمعتْ عيناه خبثًا وهما تخترقان اسم «بحر» المطبوع فوق كفها.

هكذا إذن! لهذا السبب شهدتْ الفتاة لصالحه، ولهذا السبب يتحدث البعض عن عدم رغبته في الزواج من ابنة عمه، سقط قلب «بحر» في شباك ابنة «السخاوية»، وسقط قلبها في شباك ابن «السوارفة».

خنجر جريمة «مُسفر» الذي انتوى السفر إلى «العريش» غدًا لتجهيزه من أجل طعن «بحر» في قلبه، لن يكون خنجرًا واحدًا، الآن أتته الفرصة على طبق من ذهب كي يُسدد لصدره طعنتين نافذتين.

وفي الوقت ذاته يفوز مرة أخرى بثناء شيخ «السخاوية» وثقته. هكذا حاكَ الشيطان فكرته الخبيثة في صدره.

التفتَ إلى «طحنون» وانتفخ صدره بينما يقول له:

- لا تقتلها.. زوِّجها في الحال.

هتف به «طحنون» لاعنًا اليوم الذي أنجبها فيه:

- لم يرضَ أحد من رجال القبيلة بالزواج من تلك الحقيرة سابقًا.. فمن سيرضى بها الآن؟

منحها نظرة حاقدة، ثم رفع رأسه يقول وقد تكشّف فمه عن أسنان نخرة:

- سأتخذها زوجة ثالثة!

---

(٧)

كان السجن أحبُّ إليه من أن يكون حُرًا خارجه، ليست حرية كاملة على أية حال؛ فإرادته مُقيّدة بأحداث ما حسبَ حسابها، وما أعدّ لها العُدّة.

حتى اللحظة الأخيرة ظلّ على أمل أنه واهمٌ، وأن جريمة كتلك لم تُرتكب، هل تقتل الأخت سعادة أختها؟ هل تسرق منها قسطًا من الحُب ساقه الله إلى قلبها؟ أي قلب أسود تحمل «دهب» في صدرها؟ وأي ستار أسود انسدل على عقله من البداية فحجبَ عنه الحقيقة العارية؟

نفسه الثائرة لم تهدأ على مدار ساعات أمضاها في الحجز، لكنه بات أكثر قدرة على التحكم في غضبته. أتى مدير الفندق ومدّ «غراب» له كفّ الصُلح، دفع له ضعف ثمن ما كسره، فطابتْ نفس الرجل وتنازل عن شِكايته.

خرج «غراب» من الحبس لا يرغب سوى في حمام دافئ طويل. ما إن وصل إلى بيته حتى حقق رغبته، وأزاح عنه آثار الليلة الماضية، إلا تلك التي حفرت آثارها في نفسه.

توجَّه إلى السرير وألقى فوقه ثقل جسده المُنهك، وأخرج الدواء الذي وصفه الطبيب من أجل بحَّة أحباله الصوتية. توقّف قليلًا عند الدواء، وهتف عقله: هكذا إذن لم تتعرف على صوتي لأنه كان مُغايرًا عما سمعته تلك الليلة.

أمسكَ بالحبَّة في يده مُترددًا لوهلة، ثم في اللحظة التالية كان قد ابتلع جرعتين بدلًا من واحدة. لن يكشف لها عن هويته الآن، عليه أن يفهم أولًا سبب خطبتها لهذا الرجل، ولماذا وكيف ومتى حاكَت «دهب» خدعتها الدنيئة. لن تجرؤ «دهب» على إخبار أختها، كانت تتلوّى أمامه من الخوف عندما كشف حقيقة كذبها.

فتح درجًا صغيرًا مجاورًا لفراشه، وأخرج منه علبة دواء مُلطّخة بطلاء أظافر أحمر!

أمسك بقوة وكأنه يقبض على كنز ثمين، لكن بقسوة وكأن هذا الكنز يتسرّب من بين أنامله كالرمال دون أن يملك وسيلة لمنعه. نام ساعتين ولم يزد، ثم انطلق من فوره إلى بيت الرجل الذي تسبب في هذا اللَبس منذ البداية، إلى «عبقرينو».

«عبقرينو» الذي لم يتوقع تلك الزيارة المفاجئة استقبله باضطراب أفصحت عنه كل خلجاته، أدخله غرفته وأغلق الباب عليهما.

وما إن التفتَ إلى «غراب» حتى فوجئ به يُمسك بتلابيبه ويقول بحدة مُحافظًا على انخفاض صوته كيلا يتسرب خارج الغرفة:

- لماذا كذبتَ عليّ؟ ما مصلحتكَ في ذلك؟

فغر «عبقرينو» فاه دهشة وقد بوغِتَ بحدة «غراب» وغلظته، أخبره أنه لا

يفهم عمّا يتحدث، فاستطرد «غراب» بانفعال:

- لماذا قلتَ لي إن «دهب» هي التي عينتكَ؟

فهم «عبقرينو» أساس المشكلة، لا بد أنه اكتشف أنه قابل «شفق» أولًا، والسر الذي ائتمنته «دهب» عليه تهتّك ستره. همّ بالحديث فرفع «غراب» إصبعه مُحذِّرًا:

- إياكَ والكذب.

- لن أكذب يا ريِّس «غراب».. لن أكذب.

تركه «غراب» وابتعد عنه خطوة، فقال «عبقرينو» آسفًا:

- بعد خروج الأستاذة «شفق» من الحجز لم أفهم عمّا كنتَ تسألني.. ثم عندما علمتُ.. طلبتْ مني الباشمهندسة «دهب» ألا أخبركَ بما أعرف.. قالت إن هذا لمصلحة الأستاذة «شفق».

هتف «غراب» بغضب:

- «دهب» قالت لكَ ذلك!

لم يعد «غراب» محتاجًا لأدلة تُثبت عدم تورط «شفق» في تلك الخدعة، إنها بالفعل جاهلة بها تمامًا. أشار له بنفاد صبر كي يستكمل حديثه، عدّل «عبقرينو» من نظارته ثم قال بصدقٍ:

- ليلة الحادثة ذهبتُ إلى الموقع لأقابل الباشمهندسة «دهب» من أجل العمل في الشركة كما أخبرتكَ.. لكنني لم أجدها.. وبدلًا منها وجدتُ الآنسة «شفق».

أطلق «غراب» زفيرًا عاليًا، إذ تجتاحه دفقة غضب كلما ثبتتْ له حقيقة الخدعة التي وقع فيها، أشارَ له كي يستكمل:

- تحدثتُ إليها وطلبتُ منها العمل في الشركة.. قالت لي أن آتي في اليوم التالي إلى الشركة وأقابل الباشمهندسة «دهب».. لم أغادر الموقع وقتها.. كنتُ أشاهد الأبنية والمنطقة المحيطة بها عندما وقعت الحادثة وسقط المبنيان.. عندئذ تحول المكان إلى خلية نحل.. عربات الإسعاف والشرطة.. قتلى وضحايا.. كل شيء كان كارثيًّا للغاية.. لم أتحرك من موقعي.. وحاولتُ المساعدة قدر استطاعتي.. وعندئذ لمحتُ الباشمهندسة «دهب» تخرج من المبنى الثالث وتعدو منه مُسرعة.

عند هذه النقطة استوقفه «غراب» وقد تحفَّزتْ كل خلية في جسده، سأله باهتمام بالغ:

- كيف عرفتَ أنها «دهب»؟

هزَّ «عبقرينو» كتفيه وقال بما بدا له بديهيًّا:

- لأن شعرها كان مكشوفًا.. وقتها كانت الأستاذة «شفق» فقط هي من ترتدي الحجاب.

ظهرت على وجه «غراب» علامات التفكير مليًّا، ثم سأله:

- ماذا كانت ترتدي؟

حاول «عبقرينو» التذكر ثم قال يائسًا:

- من الصعب أن أحدد ذلك.. كان الوقت ليلًا.. وكانت ملابسها مُعفّرة بالتراب.. لكن أظن حسب ذاكرتي.. أنها كانت ترتدي الأسود!

حافية القدمين هي «شفق»! تسارعتْ نبضات قلبه حماسة. فكّر «عبقرينو» وهو يحك شعره:

- هذا غريب، أليس كذلك؟ فالبشمهندسة «دهب» لا ترتدي الأسود.

- ثم؟

- ثم ذهبتُ إلى الشركة بعد يومين وقابلتُ الباشمهندسة «دهب».. فقالت لي أن الأستاذة «شفق» أخبرتها عني.. ثم منحتني العمل.

بدا لـ «غراب» كل شيء منطقيًّا إلا شيئًا واحدًا فحسب، إذا كانت «شفق» قد قابلتْ «عبقرينو» ليلة الحادثة إذ طلب منها العمل، فلماذا أنكرتْ ذلك حين سألها بنفسه بعد خروجها من الحجز؟

قطع «عبقرينو» تفكير «غراب» بقوله:

- يبدو أنني فعلتُ شيئًا أزعجكَ يا ريِّس «غراب».. لا أدري ما هو لكن صدقني لم أقصد أن أؤذي أحدًا.

ربّتْ «غراب» كتفه قائلًا مُتلطفًا:

- بل أنا الذي يجب أن يعتذر منكَ.. تعاملتُ معكَ بقسوة.. ولن أخرج من هنا قبل أن تسامحني.

---

(٨)

لم تكُن مهمة «حَمَد» سهلة، خاصة عندما علم بالوعكة الصحية التي أصابت الشيخ. اجتمع أولاده حوله في المساء، أحضروا له الطبيب، وأعطوه الدواء، وطلبوا منه الراحة وأعلموه أنهم سينوبون عنه في رعاية شؤون القبيلة والإعداد لحفل الزفاف.

وحده «بحر» كان يرمق أباه بحُزن كبير، خاصة عندما يشيح أبوه بوجهه، ويتعمد ألا ينظر في عينيه. دومًا كانت تلك هي طريقة عقاب الشيخ لـ«بحر» منذ أن كان طفلًا صغيرًا مشاغبًا.

كان يخاصم عينيه! وككل مرة يفعل فيها ذلك، شعر «بحر» بالانزعاج، وبالضيق، فأقبلَ على فراش الشيخ حين انصرف عنه إخوته، وقال له:

- هل أنتَ غاضب مني يا شيخ؟

لا يزال الشيخ يبعد ناظريه عن وجه «بحر» وهو يقول:

- وهل ترى نفسكَ فعلتْ ما يستحق غضبي يا «بحر»؟

زفر «بحر» بضيق، تشنّجتْ عضلات رقبته، ثم قال:

- يا شيخ أنا أبحث عن سعادتي.. وهذا حقي.

التفتَ إليه الشيخ للمرة الأولى ثم قال:

- الكبير كبير بتصرفاته يا «بحر».. يضع سعادة الجميع قبل سعادته.. وهناءهم قبل هنائه.. كيف آتمنكَ على القبيلة من بعدي وأنتَ تتحدى قوانيننا في حياتي؟ لو كان إخوتكَ بعقلكَ وحكمتكَ وتعليمكَ لما همّني شيء.. لكنكَ تعلم أنكَ ولدي الذي أعده من الصغر كي يكون خليفتي في مشيخة القبيلة.

عارض «بحر» بقوة:

- لكنني لا أتحدى القوانين يا شيخ.. بل سلّمتُ رقبتي لها.. وكل ما أريده هو شيء من الحرية.. ولِد الإنسان حُرًا طليقًا فلماذا يُجبَر على التقييد بقوانين خانقة؟

- لأنها تحفظ قوة القبيلة ووحدتها وتماسكها.. لو خرق كل من شاء ما شاء من القوانين لما تمكّن أحد من السيطرة على القبيلة.. ولغاب العدل والأمان.

- هل زواجي من فتاة غير سوارفية سيُضيّع العدل والأمان؟

- خرقكَ للقوانين سيفعل.. وأنتَ تعلم علم اليقين أن السوارفي لا يتزوج إلا سوارفية.

- قوانين ظالمة.

- القوانين التي تصفها بـ «الظالمة» هي التي حفظتكَ وكبّرتكَ وعلّمتكَ وصنعت منكَ رجلًا يُشار له بالبنان.. هي التي أعلَتْ اسم «السوارفة» في سيناء كلها.

نهض «بحر» مغادرًا وهو يُلقي بكلمته الأخيرة:

- كل هذا على العين والرأس.. لكنني لن أسمح للقوانين أن تتحكم في حياتي.. أحترم القوانين وأقدرها.. لكنني لن أكون عبدًا لها.

حين سمع «حَمَد» عرَضًا الحوار الدائر بين أخيه وأبيه شقَّ عليه مُفاتحته فيما أراد قوله، لكن الشيخ ما إن رآه حتى علم أن شيئًا ما يُحاك في صدره، فأمره أن يبوح به. تكلم «حَمَد» بعد مغادرة «بحر» غرفة الشيخ، يتخلّص من حمله الثقيل:

- أريد طلاق «عِيدة» يا شيخ.

رأى الغم يتسوَّر قسمات أبيه فسارع بقول:

- اعتبر أنني لم أقل شيئًا يا شيخ.. لم أقل شيئًا على الإطلاق.

استدار مُغادرًا فأوقفه الشيخ وأدناه من فراشه ثم قال:

- أنتَ رجل حقيقي يا «حَمَد».. لم تُخجِّلني حينما طلبتُ منكَ الزواج من أخت قاتل أخيكَ.. وعاملتها بإحسان كما علّمتكَ وربّيتكَ.. ويعلم القاصي والداني الأيام العجاف التي عشتها مع زوجتكَ.. بعد أن أصبح لكَ منها ابنة ظننتُ أن المياه ستسير في مجراها.. لكن هذا لم يحدث.

أخذ عدة أنفاس متلاحقة يُغالب بها ألمًا متناميًا في صدره. قال:

- لم يعد يُخشى على أحد من رجالنا أن يحاول القصاص لمقتل «مُسفر».. لذلك لن أكلفكَ أكثر مما تحتمله طاقتكَ يا «حَمَد».. أساسًا لو كانت زوجتكَ قد أنجبتْ لكَ الولد كانت ستتركنا وتغادر القبيلة وتعود إلى أهلها.. حتى وإن كنا غير مرحبين بذلك لكنكَ تعلم أنها القوانين التي تحكم سائر القبائل وما كان بإمكاني الوقوف في وجهها.

فكَّر الشيخ قليلًا ثم قال ساخرًا:

- لعل ما قاله «بحر» به شيء من الصحة.. لعل في تلك القوانين شوائب تحتاج إلى تنقية.. تحتاج إلى مجلس كبير يضم الكبراء والعقلاء والحكماء ونعيد التفكير في أمر التخلص من هذه الشوائب التي تُعكِّر سطح الماء الرائق.

سعل بقوة ثم نظر إلى «حَمَد» نظرة فخر قائلًا:

-أفخر بكَ ابنًا لي يا «حَمَد».. افعل ما شئتَ يا بني.. إن أردتها فامسكها.. وإن زهدتها فطلِّقها.

تساقطتْ العبرات من عيني «حَمَد»، ليس لقبول الشيخ بطلاقه من «عِيدة»، بل لأنه وللمرة الأولى يقول له «أفخر بكَ ابنًا لي يا «حَمَد». لم يشعر بالغيرة من «بحر» قط، لكن قلبه كان يتعكّر حين يرى فارق المعاملة، وكأن الشيخ لم ينجب سوى «بحر». وما قاله الشيخ الآن أزال كل ما بصدر «حَمَد» من تعكير.

نزل على ركبتيه بجوار فراش أبيه وانهال على يديه مُقبِّلًا وهو يدعو له بالصحة وطول العمر مع حُسن العمل.

كانت في المكتب شاردة، تتظاهر بالعمل بينما هو آخر شيء تُفكر به، عندما دخلت «نرجس» بغتة وعلى وجهها أمارات جادة. تحفّزتْ «شفق» في جلستها وسألتها في وجل:

- ماذا حدث؟

وضعت «نرجس» أمامها مظروفًا كالذي وصلها سابقًا، تطلعتْ إليها «نرجس» بقلق شديد وقالت:

- وجده «عبقرينو» أسفل باب الشركة.

فضَّته «شفق» بأنامل مضطربة، لم تجد حجر فيروز هذه المرة بل رسالة فحواها:

«مليون جنيهٍ مقابل صمتي، الرسالة التالية سيكون بها موعد ومكان التسليم».

ومرفق معها عدة صور مُلتقَطة لها أمام الشركة، وأمام الفندق. قرأت «نرجس» فحوى الرسالة، وقلّبتْ في الصور ثم هتفت «نرجس» بجزع:

- رسالة تهديد أخرى معها صوركِ يا «شفق».. هذا الرجل يلاحقكِ.

اندفعتْ «شفق» تتساءل بحيرة بالغة:

- لكن بماذا يهددني؟ هذا ما لا أفهمه أبدًا!

- يجب أن نتصرف.. علينا بإبلاغ الشرطة.

عارضتها «شفق» بقوة وهي تُعيد الرسالة والصور داخل المظروف وتخفيهم في حقيبتها:

- لن أبلغ الشرطة حتى أفهم بماذا يُهددني هذا الرجل.

- وكيف ستعرفين ذلك؟ الرجل لم يرسل أي وسيلة للتواصل.

قالت «شفق» بحزم:

- عندما تصلني الرسالة التالية.. سأعرفه حتمًا.

نظرت لها «نرجس» بريبة، فقالت لها «شفق» وهي تستعد لمغادرة:

- سأخبركِ بما أفكر فيه.. لكن الآن عندي موعد مهم لا يحتمل التأخير.

ولم يكُن الموعد المهم سوى لقائها بالخالة «نوّارة»، لم تخبر «نرجس» به لأنها أرادته أن يكون «خبيئة سر»؛ عمل خير لا يطّلع عليه أحد إلا الله.

مرّتْ على الخالة في بيتها، ساعدتها في التجهّز للذهاب إلى طبيب العيون، رغم اعتراضات الخالة وظنها بعدم جدوى هذه الزيارة.

وعند طبيب العيون الأفضل في «العريش» جلست «شفق» أمامه بقلب مُضاء بالأمل، تنتظره أن ينتهي الفحص على أحر من جمر، يقرأ التحاليل والفحوصات السابقة للخالة «نوّارة».

تزداد تقطيبة جبينه مع كل معلومة جديدة يقرآها عن مرض قلبها وداء السكري وحالة عينيها. ثم رفع رأسه قليلًا وقال:

- آسف جدًا.. الأمر لا يُبشِّر بخير.. لماذا تأخرتم في إجراء العملية؟

تبدد الأمل من قلب «شفق» تسرب منه وكأنه ممتلئ بالثقوب، حاولت الجدال مع الطبيب مرة ومرات، لكن حديثه لم يتغير، أصرّتْ على إعادة الفحوصات، في محاولة أخيرة منها لإنعاش الأمل الذي مات.

لما رآها الطبيب تسعى باستماتة للمحاولة، لم يزعجها بإصراره على عدم جدواها، وطلب عدة تحاليل وأشعة.

لم تنتظر «شفق» لحظة، وتوجهت صوب أفضل معامل «العريش» برفقة الخالة «نوارة» تكتم عنها عبراتها، لكن الخالة شعرت بكل ما يعتمل في صدرها، وبدلًا من تواسي هي الخالة كانت الخالة من تواسيها قائلة:

- هذا قدر ومكتوب يا ابنتي، وأنا لا أعاند الأقدار.. أتقبّلها راضية.

دخلت الخالة إحدى الغرف لأخذ عينة دم، وبقيت «شفق» في الخارج تُغالب عبراتها، رنَّ هاتفها فأجابت على الفور وهي تقول لمحدّثها بلهفة:

- أخبرني بكل ما عرفتَه.

تحدّث الرجل على الطرف الآخر بكل ما جمعه لها من معلومات عن الرجل الذي مات قبل أن تقابله، وكلما تحدّث أكثر اكفهر وجهها، وبهتت نظراتها.

قطعت المكالمة وهي ذاهلة في مقعدها. خرجت الخالة «نوّارة» من الغرفة، نهضت «شفق» تتقدم منها، تُمسك بذراعيها وتنظر في وجهها تسألها بأنفاس مُضطربة:

- خالة «نوّارة».

ببشرها المعتاد رفعت الخالة رأسها تواجهها، بسمتها الرائقة لا تُفارقها، سألتها «شفق» بخفوت:

- هل اسم ابنكِ «سهيل السخاوي»؟

أمالت الخالة رأسها وكأن الاسم يدفق بالشجن في عروقها، ثم قالت بصوت يُغالب البكاء:

- نعم يا ابنتي.. ابني الذي مات في حادثة العمال اسمه «سهيل السخاوي»، زوجي كان من قبيلة في الجنوب اسمها «السخاوية».. هل سمعتِ عنها؟

ولم تكن «شفق» قد سمعت بها من قبل، كل ما شغل عقلها في تلك اللحظة، ماذا أراد «سهيل» منها؟ هل أراد منها مساعدة أمه بالمال اللازم للجراحة؟ ولماذا هي بالذات؟

ليتها تمكَّنتْ من ملاقاته في وقتٍ أبكر، ليتها عرفت بحاجتها للمال وساعدتها وقت أن كانت المساعدة لها جدواها، نما بداخلها ضيق لم تستطع دفعه وهي تقول بانفعال:

- لماذا لم تستديني بالمال من آحد يا خالة.. لماذا لم يساعدكِ آحد؟ قلتِ أن زوجكِ كان طباخًا ماهرًا.. كيف لم يدّخر لكما أي مال على الإطلاق؟

ظلتْ الخالة محافظة على بسمتها، ومُقدرة قلة حيلتها. قالت:

- فعل يا ابنتي.. ادَّخر لنا المال.

سألتها «شفق» بحيرة:

- وأين هو إذن؟

- سرقه رجل بلا شرف.

نظرت إليها «شفق» مشدوهة تُكرر قولها في صدمة:

- سرقه رجل بلا شرف!

- نعم يا ابنتي.. لكنني أثق أنه يتعذب بهذا المال أضعاف ما أعانيه من فقد البصر.. كل ساقٍ يُسقى بما سقَى.. وما سقاني به وولدي من قهر أثق تمام الثقة أن الله يُسقيه أضعاف هذا العذاب الآن.

- ولماذا لم تشتكيه للشرطة؟

رفعتْ الخالة إصبعها إلى السماء وقالت بيقين شديد:

- شكوته إلى رب الشرطة.. وأثق أنه يدفع الآن ثمن كل قرش سرقه مني.

وفجأة، دخل المعمل آخِر شخص توقعت رؤيته في هذا المكان. التقتْ نظراتها و«غراب» فاضطرب واضطربتْ. دارتْ برأسها معاني عن «الألفة» و«اللهفة» و«مثلث حب» له ثلاث قمم.

انزعجت من كلمات «نرجس» التي اختارتْ تلك اللحظة بالذات لتقفز إلى عقلها، وانزعجتْ من نفسها لأنها لم تستطع صرفها.

ويبدو أنه انزعج مثلها لسببٍ تجهله، إذا اعتلى جبينه تقطيبة شديدة، وأبعد ناظريه عنها سريعًا، فقط لتقع على وجه الخالة «نوّارة» فيتجمد في وقفته.

اختفتْ التقطيبة وحلّ محلها نظرة ذعر! حارتْ «شفق» في فهم تلك النظرة، رمقته وهو يتقهقر إلى الخلف كأنما رأى أمامه شبحًا مُتجسّدًا.

كانت الخالة قد استدارت وأصبحتْ في مواجهته تمامًا، فتمكّن من رؤية الغمامة التي تُظلل عينيها، وأدرك أنها لا تراه، بينما الخالة تستكمل حديثها إلى «شفق»:

- سرقة الرجل ما لا يحق له هي «جريمة شرف»!

انتفض جسده كمَن مسّته شحنة من الكهرباء. قرأت «شفق» على وجهه الذنب والألم، جنبًا إلى جنب مع الخوف، ثم استدار على أعقابه مغادرًا دون أن يلقي نظرة أخرى من خلفه.

تساءل عقل «شفق» بحيرة كبيرة: لماذا أفزعه رؤية الخالة «نوّارة» إلى هذا الحد؟!

يتبع في الجزء الثالث